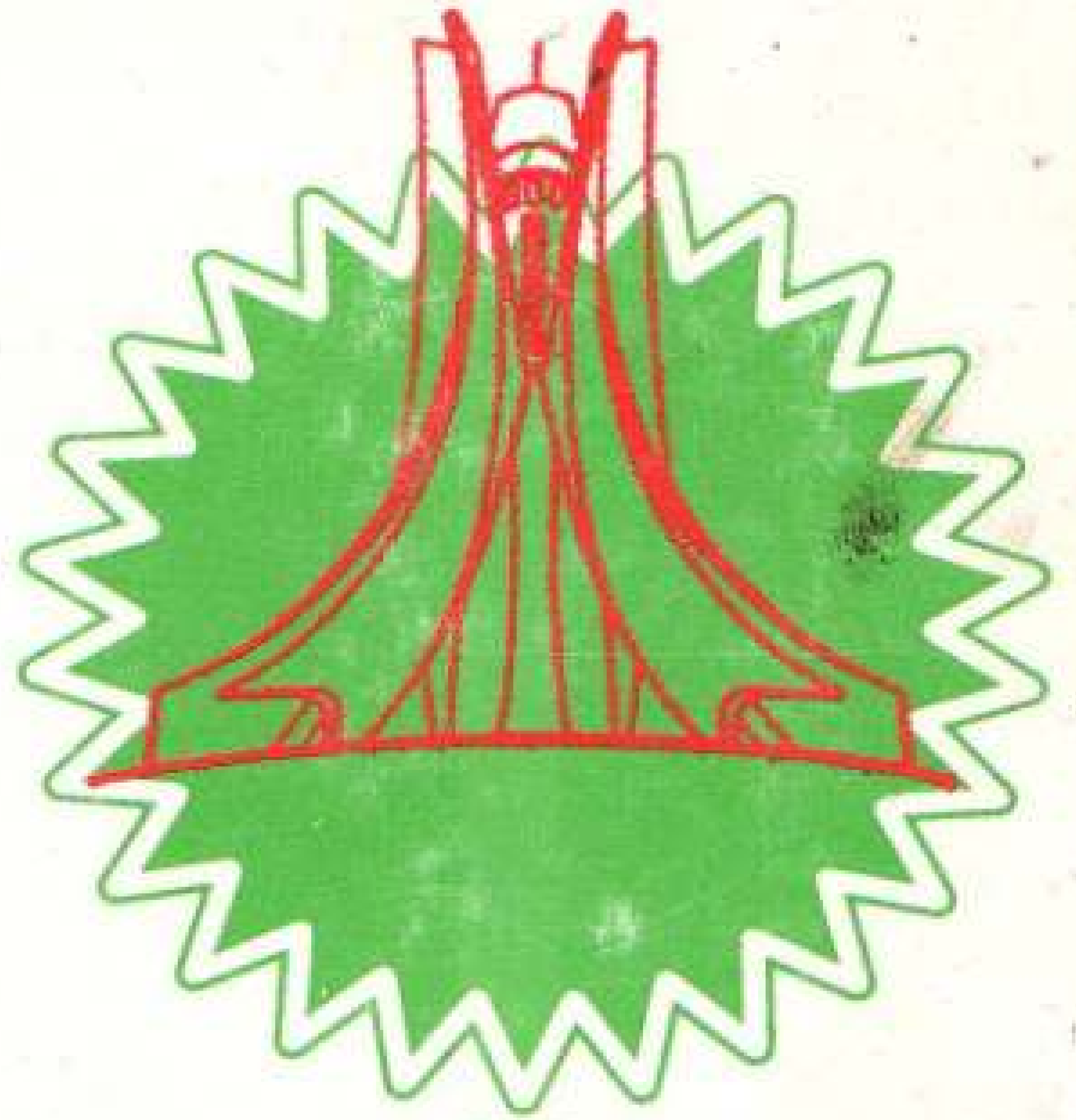
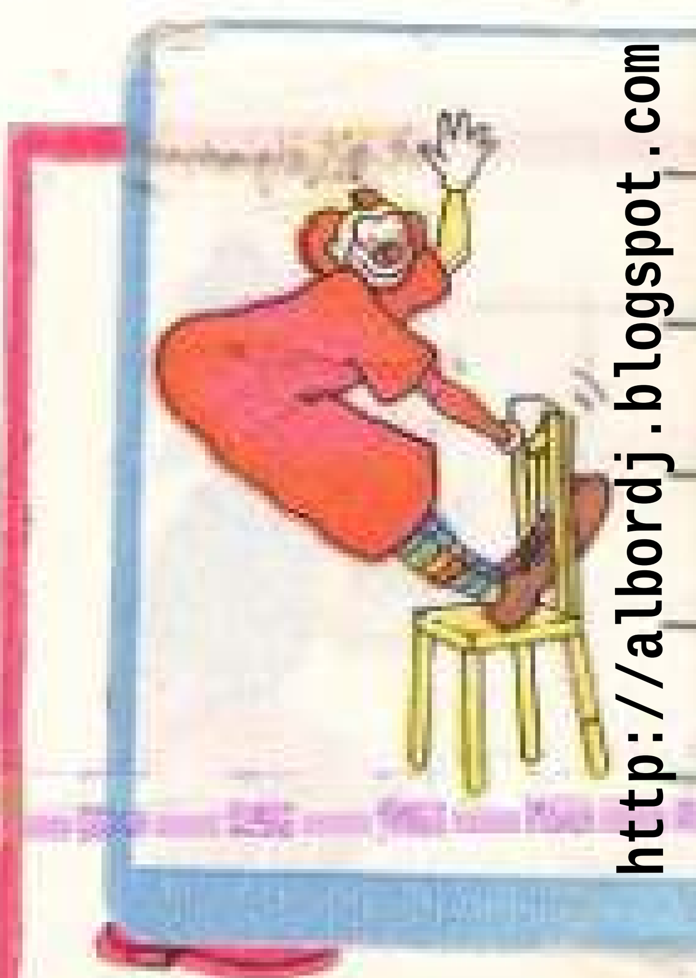


د. العربي الزبيري

المثقفون الجزائريون والثورة

منشورات المتحف الوطني للمجاهد



بيان أول نوفمبر 1954

«أيها الشعب الجزائري،
أيها المناضلون من أجل القضية الوطنية.

«أنتم الذين ستصدرون حكمكم بشأننا ـ نعني الشعب بصفة عامة والمناضلين بصفة خاصة ـ نعلمكم أن غرضنا من نشر هذا الاعلان هو أن نوضح لكم الأسباب العميقة التي دفعتنا إلى العمل، بأن نوضح لكم مشروعنا والهدف من عملنا، ومقومات وجهة نظرنا الأساسية، التي تهدف الى الاستقلال الوطني في إطار الشمال الافريقي ورغبتنا أيضا هو أن نجنبكم الالتباس الذي يمكن أن توقعكم فيه الامبريالية وعملاؤها الاداريون وبعض محترفي السياسة الانتهازية.
فنحن نعتبر، قبل كل شيء أن الحركة الوطنية ـ بعد مراحل من الكفاح ـ قد أدركت مرحلة التحقيق النهائية فإذا كان هدف أي حركة ثورية ـ في الواقع ـ هو خلق جميع الظروف الثورية للقيام بعملية تحريرية، فإننا نعتبر أن الشعب الجزائري في أوضاعه الداخلية متحدا حول قضية الاستقلال والعمل. أما في الأوضاع الخارجية فإن الانفراج الدولي مناسب لتسوية بعض المشاكل الثانوية التي من بينها قضيتنا التي تجد سندها الدبلوماسي وخاصة من طرف إخواننا العرب والمسلمين.
إن أحداث المغرب وتونس لها دلالتها في هذا الصدد فهي تمثل بعمق مراحل الكفاح التحريري في شمال افريقيا. ومما يلاحظ في هذا الميدان أننا كنا منذ مدة طويلة أول الداعين الى الوحدة في العمل، هذه الوحدة التي لم يتح لها مع الأسف التحقيق أبدا بين الأقطار الثلاثة.
«إن كل واحد منها قد اندفع اليوم في هذا السبيل، أما نحن الذين بقينا في مؤخرة الركب فإننا نتعرض إلى مصير من تجاوزته الأحداث. وهكذا فإن حركتنا الوطنية قد وجدت نفسها، محطمة نتيجة لسنوات طويلة من الجمود والروتين، توجيهها سيء محرومة من سند الرأي العام الضروري قد تجاوزتها الأحداث، الأمر الذي جعل الاستعمار يطير فرحا ظنا منه أنه قد أحرز أضخم انتصاراته في كفاحه ضد الطليعة الجزائرية، إن المرحلة خطيرة.
«أمام هذه الوضعية التي يخشى أن يصبح علاجها مستحيلا وأن مجموعة من الشباب المسؤولين المناضلين الواعين التي جمعت حولها أغلب العناصر التي لا تزال سليمة ومصممة، إن الوقت قد حان لاخراج الحركة الوطنية من المأزق الذي أوقعها فيه صراع الأشخاص والتأثيرات لدفعها إلى المعركة الحقيقية الثورية إلى جانب إخواننا المغاربة والتونسيين.
وبهذا الصدد فإننا نوضح بأننا مستقلون عن الطرفين اللذين يتنازعان السلطة، إن حركتنا قد وضعت المصلحة الوطنية فوق كل الاعتبارات التافهة والمغلوطة لقضية الأشخاص والسمعة ولذلك فهي موجهة فقط ضد الاستعمار الذي هو العدو الوحيد الأعمى. الذي رفض أمام وسائل الكفاح السليمة، أن يمنح أدنى حرية.
«ونظن أن هذه أسباب كافية لجعل حركتنا التجديدية تظهر تحت إسم:
«جبهة التحرير الوطني»:
وهكذا نتخلص من جميع التنازلات المحتملة، ونتيح الفرصة لجميع المواطنين الجزائريين من جميع الطبقات الاجتماعية وجميع الأحزاب والحركات الجزائرية الفرصة أن تنضم إلى الكفاح التحريري دون أدنى أعتبار آخر.
ولكي نبين بوضوح هدفنا فإننا نسطر فيما يلي الخطوط العريضة لبرنامجنا:
الهدف: الاستقلال الوطني بواسطة:
1) إقامة الدولة الجزائرية الديموقراطية الاجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادىء الاسلامية.
2) احترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني.

د. العربي الزبيري

المثقفون الجزائريون والثورة



حكـــمـــة الـكـتـــاب

ان الذي لا يدرس الماضي لا يمكن أن يفهم الحاضر، ومن ثمة فهو لا يستـطيع بناء المستقبل، لان عملية البناء والتشييد تعتمد أساسا على الواقع المعيش.

بســـم الله الــرحمــن الــرحيـــم

يتشــرف المتحف الـوطني للمجاهـد، أن يضع بين يـدي القـارىء الكـريم هـذا الكتـاب القيـم الـذي بـدون شـك سيسهـم في إثــراء المكتبـة الــوطنية والثقــافـة الانســانيـة ويـضـيـف لبـنـة الـى صـرح تــاريـخ شعبنـا العــريق في النضــال والتضحيــة .

«المتحف الـوطني للمجاهـد»

الاهـــــــــداء

- الى كل من يؤمن بأن التحرير الثقافي هو أساس بناء المجتمع وبأن الغزو الثقافي هو روح الاستعمار التي لا يمكن لأي شعب ان يخمدها مالم يضع حدا لكل الروابط التي تشده إلى المستعمر السابق،

- إلى كل مثقف وهب نفسه في سبيل الحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية،

- إلى كل الرواد الذين عرفوا كيف يستعملون سلاح الكلمة للدفاع عن الوجود ولتحقيق التعبئة الواعية والشاملة من أجل انتصار الثورة،

- الى كل مناضل متشبع بايديولوجية حزب جبهة التحرير الوطني،

أهدي هذا الكتاب

الجزائر يوم فاتح نوفمبر 1986

تقـــــديم

لقد تحدثنا، ذات يوم، أثناء محاضرة ألقيناها أمام مجموعة من الاطارات، عن خطورة الغـزو الثقـافي وأهميـة الـدور الـذي يجب أن يؤديـه المثقفـون الجزائريون لاستكمال عملية استرجاع الاستقلال الوطني. وبعد المحاضرة أثار حديثنا عن التحرير الثقافي رد فعل عنيف لدى عدد كبير من الحاضرين الذين رأوا أننا طوباويون وبعيدون كل البعد عن الواقع .. والواقع بالنسبة إليهم هو أن الغزو الثقافي متمكن من الانسان الجزائري، وأن تحريره يتطلب على الاقل عشرات السنين أو ثلاثين قرنا كما قال أحدهم.

إننا نعترف، مع هؤلاء، أن محاربة الشلل الذهني ليست بالشيء الهين، وأن الاصابات الايديولوجية التي تعرضنا لها طوال أكثر من قرن وربع قرن عميقة يتـطلب القضـاء عليهـا مجهودات جبارة خاصة في مجالات التكوين بجميع أنـواعـه، لكن الـذي نرفضه، من الأساس هو عدم الثقة في قدرة الجماهير الشعبية التي تصنع المعجزات عندما تجد الطليعة التي تنير لها طريق النضال وتكون لها القدوة الحسنة في تأدية الواجب قبل المطالبة بالمزيد من الحقوق.

إن الاستكانة الى الأمر الواقع نوع من الخنوع الذي يقتل الحماس الخلاق لدى الـطلائع الثورية، ويقود الى الردة التي سرعان ما تتحول الى مناهضة للثورة وتنكر للعهد وخيانة للمبادىء. وأول ما تبدأ الاستكانة إلي الأمر الواقع تأتي في شكل تسامح مع الاعتداءات الصارخة على مقومات الشخصية الوطنية ثم تنتقل الى الاستهتار بالقيم النبيلة والأخلاق الفاضلة لتنتهي عند تبني أنماط

للحياة لا علاقة لها بالواقع الاجتماعي وقبول، بدون ادنى مقاومة، للغزو والثقافي الذي يصبح أمرا طبيعيا لدى المستكينين الخانعين.

فالاستعمار الفرنسي الذي أصاب بلادنا في نهاية الثلث الأول من القرن الماضي كان أبشع أنوع الاستعمار وأكثرها شراسة لأنه كان استيطانيا، ولأنه كان من منطلق ديني واقتصادي وحضاري في آن واحد.

ففي السنوات الأولى من الاحتلال، وبالتوازي مع ما كان يقوم به من نهب للثروات الوطنية واستيلاء على الاراضي الخصبة الشاسعة، يوزعها على الكولون الجدد وعلى المؤسسات الاستعمارية المختلفة، راح يوظف كل مالديه من قوة، ظاهرة أو باطنة، للقضاء على مصادر الثقافة الوطنية: فهدم كثيرا من المساجد، وحول اعدادا كبيرة منها الى كنائس أو ثكنات أو مستوصفات وحتى الى ملاهي لاجناده وماخورات عمومية. وفي نفس السياق وجه ضربات قاسية للمثقفين الجزائريين فقتل من قتل، ونفى من نفى وزج في السجون بمن شاء، وظل يطارد ويضطهد كل من بقى طليقا قصد منعه من القيام بواجبه نحو المجتمع.

وبما ان الاسلام كان حصنا منيعا للشعب الجزائري، ومنطلقا لكل الانتفاضات، وعقبة كأداء في طريق الترويض الذي كان الاستعمار يسعى لتحقيقه، فإن الغزاة جندوا له الأباء البيض يحاربونه بشتى أنواع التحريف والتشويه والتزييف. وفي نفس الوقت كانوا ينفثون سمومهم وأفكارهم في أوساط المجتمع لافساد العادات الايجابية والاخلاق الفاضلة والتقاليد النبيلة والقيم الانسانية، لأن تجريد الفرد من كل ذلك يحوله الى مجرد حيوان، ويجعل منه أداة طيعة تستعمل لتحقيق كل مايراد من أغراض حتى ولو كانت منافية للدين ومناهضة للوطن.

ووقعت محاربة اللغة العربية بنفس الأساليب، بأبعدت من التعليم نتيجية ملاحقة معلميها وغلق المدارس والكتاتيب عنوة، ثمة استبدلت تدريجيا باللغة الفرنسية، وهمشت في الحياة اليومية بسبب فرنسة الادارة وغيرها من المصالح العمومية والمؤسسات الاقتصادية.

وبعد كل هذه الاجراءات العدوانية الأولى التي تندرج بكل موضوعية ـ في

منطق الاستعمار - ضمن التدابير الامنية التي لابد منها لحماية المستعمرة الجديدة من الضياع، شرعت سلطات الاحتلال في تنفيذ مخطط مرحلي يهدف خاصة الى قولبة ثقافة تساعد على تكوين انسان من الدرجة الثانية يعترف بأنه أدنى من الأخر، فيقبل سلطته ويمتثل لأوامره، ويبتعد بقدر المستطاع عن الرفض الذي هو طريق الثورة.

لقد جاء الانسان الذي نتحدث عنه كما أرادت له فرنسا أن يكون : طيعا في حالات الرخاء، على قلتها، والشدة الملازمة له على الدوام، اتكاليا حيث لابد من المبادرة والاعتماد على النفس، لأن الكولون عوده على أن اتخاذ القرار، مهما كان بسيطا، ليس من شأنه، اماعيا لأن الاستقلالية في الرأي تؤدي حتما الى التمرد على الظلم والاضطهاد والاستبداد، وبالاضافة الى ذلك، جاء جاهلا لدينه لا يعرف من عباداته سوى القشور ولا يلتزم بالمعاملات في شيء.

ان التعميم في كل شيء غير مقبول، ولذلك تجدر الاشارة الى أننا عندما نتحدث عن الانسان الذي كونته سلطات الاحتلال، فإن حديثنا لا يشمل تلك القلة التي يمكن ان نسميها الطليعة والتي ظلت دائما متمردة، تحمل في طياتها بذور الرفض الذي هو خميرة الثورة. وإلى جانب تلك الطليعة، هناك بعض الفيآت الاجتماعية التي ظلت تقاوم بكل ما أوتيت من قوة وساعدها على النجاح في ذلك صبرها على الاضطهاد والاستبداد وتعودها عليهما إلى جانب تمسكها بذلك الايمان الذي يخلط بين الله والدين والوطن.

ففعالية الطليعة المذكورة في أوساط الفيئات الاجتماعية المشار إليها أعلاه هي التي قادت بالتدريج الى نشر الوعي الوطني الذي ستتبلور من خلاله، خاصة في النصف الثاني من هذا القرن، الحركة الوطنية في كل اشكالها. ومن بين تشكيلات الحركة الوطنية، استطاع النجم، مرحليا، وبكثير من المعاناة أن يفرض إيديولوجيته على أرض الواقع وأنصفه التاريخ عندما أندلعت ثورة نوفمبر وتبين أن أسلوبه هو الأنجح ووسيلته المتمثلة في الكفاح المسلح لاسترجاع الاستقلال هي أفضل الوسائل.

وعندما تم استرجاع الاستقلال السياسي سنة 1962، كان على القيادة الثورية أن تتوقف، مليا، لتقييم المرحلة المقطوعة وإعادة النظر في مجمل

الايديولوجية التي صارت في حاجة الى تطوير لأن أهم جزء فيها وهو المتمثل في التخلص من الاستعمار الاستيطاني قد تحقق، كما تحقق، في أتون المعركة، تحول جذري في ذهنية الانسان الجزائري. لكن بالمقابل، ظهرت، جليا، الأوجه العديدة للاستعمار الجديد الذي بدأ مركزا على مجالات العدل والثقافة والتربية والاعلام.

لقد كان من المفروض أن تتضمن الايديولوجية الجديدة رفضا مطلقا لكل ما يمكن أن يقوم من علاقات مع المستعمر السابق لأن بقاء تلك العلاقات إجهاض للثورة وانحراف عن المبدأ الذي استشهد من أجله أكثر من عشر سكان الجزائر وترملت عشرات الألاف من نسائها وتيتم العديد من أبنائها وتهدمت القرى وتعرضت الجماهير الشعبية الواسعة لألوان شتى من التعذيب منها ما كان جسمانيا محسوسا ومنها ما ترك آثاره السلبية على المعنويات.

ان الاعلان عن استرجاع الاستقلال لم يكن هو الهدف الأسمى كما يزعم مؤرخو الاستعمار الفرنسي ولو كان الأمر كذلك لما كانت هناك ثورة، بل حرب أنتهت بوقف إطلاق النار.

لكن الذي وقع ليلة الفاتح من نوفمبر سنة أربع وخمسين وتسعمائة وألف كان بداية ثورية شهد التاريخ أنها أعظم ماعرف العالم المعاصر. ولأنها كانت ثورة، فإنها استهدفت تحرير الأرض وتحرير الانسان في ذات الوقت وهما مهمتان تتطلبان أكثر من وقف إطلاق النار.

إن تحرير الأرض، في منظور ثورة نوفمبر، لا يتوقف عند تخليصها من السيطرة الأجنبية بل يتعدى ذلك الى إعادة تأهيل مساحاتها الشاسعة وإعادة النظر في طرق التعامل معها بحيث تستعيد وظيفتها التي كانت تقوم بها قبل أن يفرض عليها الاحتلال.

لقد كانت معظم الأراضي في الجزائر، قبل الاستعمار الفرنسي، ملكا مشاعا للأعراش التي كانت تستثمرها جماعيا لتحقيق الاكتفاء الغذائي الذاتي وتصدير الفائض من الانتاج الي المشرق وأفريقيا السمراء والى بلاد جنوب أوربا على وجه الخصوص، ثم جاءت قرارات القادة العسكريين الفرنسيين ومراسيم السلطات فأباحت إغتصاب تلك الأراضي بسبب مشاركة أصحابها

في الانتفاضات الشعبية المختلفة وتسليمها بالمجان الى المعمرين الأروبيين الذين صاحبوا الحملة خصيصا للاستفادة من الحرب الصليبية أو إلى الأجناد المعطوبين والمتقاعدين أو الى شركات استغلالية كبرى وقع تأسيسها للقضاء على الهياكل الاقتصادية الثابتة ولجعل الفلاحة الجزائرية مكملة للاقتصاد الفرنسي وتابعة له في جميع الحالات.

فبواسطة هذه الطريقة في الاغتصاب والاستغلال تحولت مساحات كبيرة في مناطق مختلفة من منتجة للحبوب بجميع أنواعه الى منتجة للخمور أو لمزروعات صناعية لا علاقة لها بواقع المجتمع الجزائري وعلى سبيل المثال، فإن أراضي المدية ومعسكر التي كانت تنتج أحسن أنواع الأرز في العالم حسب شهادة كثير من المؤرخين الأوربيين أنفسهم، صارت تزود السوق الاستعمارية بأحسن أنواع الخمور، وكذلك سهول شمال شرقي البلاد وغربها التي كانت تنتج القموح والشعير بكميات وافرة.

وتحول الانسان الجزائري بالتدريج من صاحب أرض منتج الى أجير مسخر، فقد قدرته على التعامل مع الارض بتلك الحرية التي كانت تسمح له الزراعة وتحديد أوقات العمل حسب إمكانياته الخاصة وحسب التقاليد الفلاحية السائدة في سائر أنحاء الريف.

من هذا المنطلق، فإن تحرير الأرض يشمل، في ذات الوقت، استرجاع السيادة الوطنية على كافة المساحات المغتصبة والمستغلة سواء من طرف المستعمرين الفرادى والشركات الامبريالية أو من طرف العملاء من المواطنين، وتخليصها من أنواع الزراعة التي أدخلت الى بلادنا لتلبية بعض حاجات الفلاحة في فرنسا، ومن جهة أخرى، يتطلب تحرير الأرض إعادة صقل ذهنية الفلاح الجزائري والتركيز على استصلاح المساحات الشاسعة في الهضاب العليا وفي الصحراء، لأن الجزائر ليست هي الشريط الساحلي فقط، ولأنها تتلقى، سنويا كميات هائلة من مياه الامطار التي يضيع أكثر من خمسة اسداسها في البحر، كما أن باطن أراضيها يحتوي على ملايير الأمتار المكعبة القابلة للتجديد.

وبهذا المفهوم، فإن عملية تحرير الأرض كان يتوقف تحقيقها على ظهور

ونجاح حركتين أساسيتين أولاهما عسكرية واعية تستعمل العنف المتنور وتضم في صفوفها طلائع مؤمنة برسالتها وقادرة ليس على الاستشهاد فحسب بل، كذلك، وفي المقام الأول على ربح ثقة الجماهير التي هي ضرورية لربح المعركة ضد المستعمر الذي يملك العدة والعتاد، وثانيتهما ثقافية وطنية تستعمل التخطيط العقلاني ولا تتردد في اللجوء إلى العنف الثوري للقضاء على دابر التبعية بكافة أنواعها. هاتان الحركتان متلازمتان أشد الارتباط بحيث يظل أنتصار الواحدة كلاشيء مالم تتمكن الأخرى من تجسيد جل أهدافها على الأقل.

ولقد تكفلت جبهة التحرير الوطني بارساء قواعد الحركتين وبعثهما إلى الوجود في وقت واحد واستطاع الكفاح المسلح الذي بدأ بوسائل بدائية وظل مستمرا طيلة أثنين وتسعين شهرا أن يفرض على العدو الاعتراف بحق الشعب الجزائري في سيادته على أرضه وتقرير مصيره بنفسه. أما الحركة الثقافية فإنها ماتزال قائمة تتطلب المزيد من تظافر الجهود ومن التحلي باليقظة الدائمة لكي لا تعود من جديد قوى الظلام التي تحول دون الوصول الى تحرير الأرض بصفة نهائية.

وستبقى الانتصارات التي حققها الكفاح المسلح مجرد تتويج لحرب قامت وأنتهت، وليست مرحلة حاسمة في طريق انتصار الثورة الشاملة التي انطلقت ليلة الفاتح من نوفمبر مالم تتواصل المسيرة بنفس الحماس الذي كان سائدا خلال فترة النضال الدامي.

وإذا توقفت المسيرة، لا سمح الله، واعطيت الفرصة للاستعمار الجديد أن يعود بقوة بعد أن طرد بالقوة، فإن دماء الشهداء وآلام المعطوبين والأرامل وتشرد الايتام ودموع الأبرياء وتعرض القرى والمداشر والمؤسسات الاقتصادية للتخريب، كل ذلك يكون قد ضاع سدى، وعندها يحق لاعداء جبهة التحرير الوطني أن يلقوا في الاجواء علامات الاستفهام حول جدوى ماقدم من ضحايا وتضحيات طيلة أكثر من ثلاثين سنة.

إن الجزائر، في هذه المرحلة بالذات، لا يمكن مقارنتها بأي واحد من الأقطار العربية مغربية كانت أو مشرقية، ولاينبغي أن تكون شبيهة لهذا أو

ذاك لأن تجربتها وحيدة والثمن الذي دفعته لانجاحها مرتفعا للغاية ولأن ثمة عهودا مضروبة يجب الوفاء بها لأرواح مآت آلاف الشهداء.

أما تحرير الانسان، في منظور ثورة نوفمبر، فإنه يكتسي نفس أهمية تحرير الأرض، لأن المواطن الحر لا يعيش على أرض مستعمرة ولا يكون الانسان حرا الا اذا استطاع تخليص أرضه من كل أنواع العبودية.

وقد يقال : «وماذا يريد الانسان الجزائري أكثر من إسترجاع سيادته على كل شيء في أرضه، فدواليب الحكم بين يديه، وثروات البلاد تحت تصرفه يوظفها للبناء والتشييد، ودلائل الحرية شامخة لم تعد تخفى على أحد. فهذه هياكل الصناعة التحويلية أصبحت ثابتة وقادرة على إرساء قواعد التنمية الاقتصادية الشاملة، وهذه المدارس والثانويات والجامعات تضمن ديمقراطية التعليم للجميع، وهذه مآت الكيلومترات من الطرقات الواسعة تشق البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا. وفي مجال الاعلام والثقافة منجزات كثيرة تشمل النشر والطباعة والبث بأنواعه وفي كل حي مسجد يؤدن فيه للصلاة إلى غير ذلك من المفاخر التي أصبحت لا تعد ولا تحصى.

صحيح، إن هذه المكاسب في حد ذاتها عظيمة، وهي في ظاهرها كافية لتحقيق تحرير الانسان، لكن هناك معطيات أساسية يجب أخذها بعين الاعتبار قبل اصدار أي حكم في الموضوع. وأهم هذه المعطيات مايلي :

1 ـ إن إقامة المصانع وبناء المعامل واستصلاح الاراضي واستخراج الثروات الطبيعة والمعدنية قصد الاستثمار أو التصدير كلها تبقى، رغم الجهد والامكانيات، دون الاهداف المحددة لها من أجل تحقيق الاكتفاء الذاتي في إطار الاستقلال الاقتصادي، ذلك أن القطعة الأساسية في حقل البناء الواسع ستظل هي الانسان الذي تسند إليه مسؤولية التسيير والاشراف والتخطيط والصيانة والرقابة والابداع. وإذا كان هذا الانسان مفتقدا إلى التكوين الايديولوجي، فإن جل المجهودات تضيع سدى رغم كل المبررات التي قد نلجأ إليها.

فالتكوين الايديولوجي لا يعني أبدا حشو الادمغة بالشعارات النظرية كما

قد يتصور البعض، ولكنه عملية اجمالية ومستمرة تمس كافة الميادين وتساير الانسان في جميع مراحل حياته، وعندما تنقطع أو تتعطل لسبب من الاسباب فإنها تترك المكان للفراغ الذي تترتب عنه أنواع الفوضى والميوعة والاماعية التي هي نوع من التبعية القاتلة.

إن التكوين الايديولوجي هو الذي يسمح للانسان بادراك الواقع الذي يعيش فيه وبمعرفة المحيط الذي يتطور فيه. وانطلاقا من ذلك الادراك ومن تلك المعرفة يشرع في العمل من أجل التغيير نحو الأفضل بواسطة ما لديه من قدرة وإمكانيات وبما أن هذه العملية تتطلب مزيدا من الدقة والوضوح فإن نجاحها يكون مرهونا بمدى قدرتنا على تحقيق الشمولية في تجسيدها. ومن هنا، نستطيع القول بأن التكوين الايديولوجي يستلزم البدء من دار الحضانة، ولا ينتهي بالتخرج من الجامعة، كما أنه يمارس بنفس الوتيرة في مجالات العمل وأماكن الراحة والاستجمام بحيث يكون الفرد دائم الاطلاع على ماكان وما يجري وما سيكون.

ولا يكون التكوين الايديولوجي فاعلا إلا عندما يتمكن من تحريك الانسان بكيفية واعية وتلقائية في الاتجاه المطلوب، لأن الوعي والتلقائية شرطان اساسيان لنجاح العمل في جميع الميادين. ولا يمكن إرغام الانسان على القيام بأي شيء إيجابي اذا لم تستيقظ في داخله تلك القوة الكامنة التي تدفعه نحو الشعور بالواجب والقيام به.

2 ـ إن بناء المدارس والثانويات والمعاهد والمراكز الجامعية وجزأرة التعليم كما يقال كلها مكاسب عظيمة تدل على أن جهدا جبارا قد بذل ويبذل في ميدان التربية. وكلنا يشعر بكثير من الاعتزاز عندما يذكر بأن أكثر من خمسة ملايين من أبناء الجزائر يزاولون الدراسة بإختلاف مراحلها. لكن ذلك الشعور سرعان ما يختفي عندما نتوقف عند النتائج المحصل عليها ونتأمل مليا بعيدين عن الذاتية والعاطفة.

فالبرامج التربوية المتبعة في مؤسساتنا التعليمية منذ استرجاع السيادة الوطنية وطيلة عقدين كاملين لم تكن مستوحاة من إيديولوجية حزب جبهة التحرير الوطني، بل أن قوات خفية قد ظلت تمنع بعض المواد الأساسية من

الدخول إلى المدرسة والثانوية والجامعة وعلى سبيل المثال، فإن التاريخ الوطني وتاريخ ثورة نوفمبر خاصة ومادتي التربية السياسية والتكوين الايديولوجي كلها لم تكن تعلم لا من قريب ولا من بعيد.

فمثل هذا الوضع الشاذ يحتم على كل عاقل طرح العديد من الاسئلة التي لابد من الاجابة عليها للتمكن من فهم طبيعة المرحلة التي نمر بها ولاعداد الأرضية التي تنطلق منها ليس لازالة رواسب السيطرة الثقافية فحسب، ولكن، وبالدرجة الأولى، لتوفير الشروط الموضوعية اللازمة لبعث حياة ثقافية أصيلة تسهم فعليا في تكوين إنسان جزائري ذي شخصية متميزة، قادر على التخلص نهائيا من كل العقد.

وفي مقدمة الاسئلة التي تفرض نفسها بكل إلحاح ذلك الذي يتعلق بالأصالة الوطنية عند الأجيال التي تتراوح أعمارها مابين السن القانوني للالتحاق بالمدرسة والسن التقريبي للتخرج من الجامعة والدخول الى معترك الحياة. هل من المعقول أن ننتظر من هؤلاء الشباب أن تكون لهم جذور متينة تشدهم الى الواطن وتمنعهم من الاقتلاع عندما تهب العواصف القوية؟ وهل من الممكن أن نطالبهم تنشئة قوامها الاسلام والثورة والاخلاق النبيلة والمبادىء الاشتراكية، اذا كانت البرامج التعليمة لاتتضمن المواد التي تعدهم لذلك؟ وهل يستطيع التلميذ أن يكون وطنيا اذا كان لا يعرف عن وطنه سوى الاسم ؟ وهل يمكن أن يكون ملتزما بخيارات بلاده الأساسية اذا كانت إيديولوجية حزبه الوحيد لا تدرس له كمادة أساسية؟

إن هذا النقص في البرامج التعليمية هو الذي منع من تكوين أجيال متجانسة، وأدى الى خلق تيارات ايديولوجية متعددة كان يمكن أن يستفحل أمرها لو لم تأت عملية إثراء الميثاق الوطني التي أولت أهمية بالغة لمجالات التربية السياسية والتكوين الايديولوجي في الدراسة على إختلاف مراحلها.

3 ـ إن العدل، كما لا يخفى على أحد، هو أساس بناء المجتمع الذي تدعو إلى إقامته أدبيات الثورة الجزائرية، ذلك لأنه يحرر الانسان من الخوف ويعيد له ثقة في النفس واطمئنانا للمحيط، ولأنه، أيضا، يضمن الحق لكل المواطنين بقطع النظر عن الفيآت التي ينتمون إليها. ولكي يؤدي العدل هذا الدور

الحيوي، فإنه يعتمد على تطبيق القوانين بواسطة إطارات سياتها الرئيسية هي الكفاءة والنزاهة والالتزام.

لقد أكد الميثاق الوطني على أن الدولة «تعمل بإستمرار على تقريب القضاء من المتقاضين، وإقامة رقابة صارمة من شأنها إكتشاف الخلل والنواقص، لأن الدفاع من صلاحيات القضاء وكذلك الدفاع عن المتقاضي ضد ما قد يقع فيه القاضي من انحراف شرطان أساسيان لتطبيق العدالة».

وفي نظرنا، فإن الانحراف الأول الذي يشكل خطرا قاتلا على العدالة في بلادنا إنما يمكن في عدم تطابق القوانين مع الواقع الوطني الذي تعبر عنه النصوص الأساسية للثورة من جهة، وفي عدم تشبع إطارات القضاء بإيديولوجية حزب جبهة التحرير الوطني من جهة ثانية.

ومرد التركيز على هاتين النقطتين يكمن أساسا، في حتمية التأكيد بقوة على أن التكوين الايديولوجي ضروري حتى يكون القاضي مطلعا على حقائق المرحلة التي تجتازها البلاد وعلى صورة المجتمع المغاير التي تهدف الدولة الى تجسيدها على أرض الواقع . . وبناء المجتمع الذي يكون في مستوى ثورة نوفمبر لا يمكن الوصول إليه بعدالة جل قوانينها هي قوانين المستعمر السابق وسلوك كثير من رجالاتها يكاد يكون نسخة طبق الأصل عن سلوك رجالات القضاء الاستعماري.

لأجل ذلك، فإن مصلحة الثورة تدعو، قبل تقريب القضاء من المتقاضين، إلى تقريب القوانين من النصوص الأساسية للثورة وتكييفها مع واقع المجتمع الجزائري الذي يختلف كلية عن واقع المجتمع الفرنسي الذي كان في أساس صياغة تلك القوانين، مع الاشارة الى أن الاصلاحات الشكلية لا تجدي نفعا بل أنها تزيد مضرة لأنها تستر العيوب دون التمكين من القضاء عليها.

وبقدر ما يكون الالحاح على تقريب القوانين من النصوص الأساسية للثورة وتكييفها مع واقع المجتمع الجزائري، يكون الالحاح على ضرورة إختيار القضاة من بين الكفاءات التي تتوفر فيها شروط النضال بالدرجة الأولى، لأن النضال ليس عاطفة أو إنحياز لجهاز دون آخر كما قد يفهم

بعضهم، ولكنه صمام أمان لما يشتمل عليه من صفات لابد منها لتطبيق العدل.

4 ـ إن وسائل الاعلام والتبليغ هي فيتامين الثورة إذا ما أحسن توظيفها وعندما تكون بين أيدي مناهضي الثورة، فإنها تنقلب الى أداة تدمير وتخريب.
فالاذاعة والتلفزة والصحافة على اختلاف أنواعها وكذا دور السينما والنوادي الثقافية والشارع بمحلاته ومقاهيه كلها هي وسائل الاعلام التي لابد من تعبئتها لتكييف الاوضاع وخلق المناخ الملائم للتغيير والتحويل الضروريين لبناء المجتمع المحددة معالمه ضمن إيديولوجية حزب جبهة التحرير الوطني.
إن الاعلام، في الجزائر، لا يمكن ان يكون مجرد ناقلة أخبار يتمثل دورها في نشر المعلومات التي تستقيها من وكالات الأنباء على إختلاف مشاربها دون فحص ولا تمحيص ودون هدف واضح غير ملء أو تسويد الاعمدة، بل أن رسالة إعلام، في المجتمعات الحية، يجب أن تكون توجيهية بالدرجة الأولى لأنها، زيادة على التنقيب عن الأخبار، تشمل فن الدراسة والبحث وفقا لمنهجية علمية تأخذ في الاعتبار أولا وقبل كل شيء مصلحة الجماهير التي هي المصلحة العليا للثورة.

لأجل كل ذلك، فإن رجال الاعلام ليسوا اطارات عادين لكنهم علاوة على مقدرتهم الفنية، وإلمامهم بأساليب الدراسة والمعالجة واخلاصهم لمهنتهم وتفانيهم في سبيل إنجاحها، ونزاهتهم في كل مايقومون بهم من أعمال موجهة للقراء أو المستمعين والمتفرجين، يجب أن يكونوا طلائعيين يتحلون بصفات المناضل الاساسية التي هي الشجاعة المساعدة على التشبث بحرية التعبير والدفاع بحزم وقوة ضد كل مامن شأنه أن ينال من المكاسب الشعبية.
إن رجل الاعلام في بلد الحزب الواحد مسؤول في ذات الوقت على خلق الرأي العام وتوجيهه. واذا هو لم يكن متشبعا بايديولوجية ذلك الحزب، فإن سلوكاته وأعماله تكون على هامش التوجهات الحقيقية وبعيدة عن المضامين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية للثورة.

قد يقال : لكن الايديولوجية تحد من حرية التعبير وتقمع الديمقراطية، وهو زعم غير صحيح، لأن حرية التعبير هي أساس التطور الايديولوجي

وعندما تتقلص أو تموت، فإنها تترك مكانها للاستبداد الذي يفرز الجمود ثم الموت بعد الدمار والخراب. وعلى العكس من ذلك، فبمقدار ما تبقى الايديولوجية حية تنمو وتتطور دائما نحو الأفضل، فإن حرية التعبير تنتعش لأنها تحمل في طياتها ذلك الرقيب الخارجي الذي يهدي الى الصواب ويمنع من الانزلاق والانحراف. وأما الذين ينادون بالخروج من دائرة التأثير الايديولوجي، فإنهم مدفوعون لذلك بأحد أمرين: أما لأنهم يناهضون الايديولوجية السائدة لأسباب كثيرة تبدأ من حساباتهم الشخصية مع الماضي وتنتهي بإلتزاماتهم الصريحة مع ايديولوجيات اخرى، وأما لأنهم يجهلون تلك الايديولوجية، ومعروف أن من جهل شيئا عاداه. أما عن قمع الديمقراطية، فإن الأمر يختلف لأن الايديولوجيات ليست واحدة ولا تسعى لتحقيق نفس الاهداف. واذا كانت الايديولوجية ترمي، أساسا، الى بناء المجتمع الاشتراكي فإن مسعاها لا يمكن أن يكون الاضمن مسار ديمقراطي. وهنا، أيضا، يجب أن نتوقف عند مفهوم الديمقراطية الذي يختلف من معسكر لآخر ومن فترة زمنية لأخرى.

فإنطلاقا من كل ما اسلفناه ومن إيماننا العميق بأن الفكرة هي أساس كل عمل أي كان شأنه وبأن الثورة ذاتها لابد لها من فكر يغذيها اذا أريد لها البقاء والاستمرارية، نستطيع التأكيد على ان دور المثقفين حيوي بالنسبة لصقل الفكر وتطويره ولخلق الظروف الموضوعية لنشره في أوساط مختلف الفيآت الاجتماعية التي عندما لا تجد الأصالة تكون مضطرة لاستهلاك المادة المستوردة التي تكون في غالب الاحيان بعيدة كل البعد عن الواقع الوطني إن لم تكون مناقضة له وموجهة ضده.

ففي هذا الاطار، وسعيا للعثور على ما يدعم رأينا، عدنا إلى التاريخ القريب وبالتحديد الى نهاية الربع الأول من هذا القرن، نستنطق الأحداث ونعيد قراءة الوثائق المتوافرة هنا وهناك. وقد تجمع لدينا، بعد جهد، مايكفي للتدليل على أن المثقفين الجزائريين قاموا بأعمال جليلة للحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية التي كان اعتمادها ضروريا للتصدي الى الهجمة الثقافية الشرسة التي ظل الاستعمار الفرنسي يغذيها قصد التمكن من تسهيل عملية

الابتلاع عن طريق المسخ والتشويه، ومن جهة أخرى، إستطاعوا، بوسائل بدائية وامكانيات مادية لا تاكد تذكر، لكن بارادة حديدية لا تقهر، أن ينشروا في أوساط الجماهير الشعبية الواسعة روح الثروة التي ترتكز على حب الحرية الا متناهي والاستعداد المطلق للتضحية القصوى من أجل استرجاع السيادة المغتصبة ولاحداث التغيير الجذري الذي يعيد إلى المجتمع الجزائري مكانته المرموقة في مصاف المجتمعات المتقدمة في العالم.

إن دراسة الثورة في الأدب الجزائري تجعلنا نتوقف قليلا عند الرواد الذين شقوا لنا الطريق، والذين لم نكن أوفياء في معاملتهم ولا أهلا لحمل الراية التي نقلوها إلينا بكل أمانة مطمئنين إلى أننا سنواصل المسيرة، ورغم مرور ربع قرن من الـزمن على استرجاع السيادة الوطنية فإننا مازلنا نتعامل مع الواقع الثقافي بشيء من الاحتشام وبقليل من الواقعية، وبما يمليه علينا غيرنا في حين أن الشعب الذي إحتضن ثورة في مستوى عظمة ثورة نوفمبر 1954 لا يمكن أن يكون إمعيا ولا من المقلدين السلبيين، ولا يمكن أن يقبل السير في جو تكتنفه، مع الأسف، كثير من أنواع الهيمنة الأجنبية. لقد وجب علينا أن نعود إلى أنفسنا وأن نعطي الأجيال التي اضاءت لنا الطريق حقها كاملا، قد يقال لماذا؟ والجواب يكون هو أننا مهما فعلنا ومهما حاولنا أن نخفي الحقيقة لا يمكن إلا أن نؤكد بأن الثورة تبدأ فكرة وهذه نظرية ليست خاصة بنا، ولكنها عالمية لأن الفكرة تكون دائما في أساس المبادرة، وإن لم تكن هناك فكرة، فإن السلبية هي السائدة، ولا شيء ينتظر من السلبيات.

واذا كانت الفكرة هي أساس الثورة لأنها هي أساس التغيير، والثورة إنما هي عمل يهدف الى تغيير وضع من سيىء إلى وضع أحسن فإننا عندما نرجع إلى أدبنا السابق لسنة 1954 نجد فيه ما يمتع ونجد ما يطرب ونجد ما يقنع ونجد مايلهم ونجد ما يوجه ونجد ما يخطط وما يدفع على الأقل إلى تبني التخطيط الناجح... نجد أجيالا تمكنت في النهاية وبامكانياتها الخاصة من خلق الوعي القادر على احداث التغيير المنتظر.

لم يكن أولئك المثقفون من كبار المقاولين، ولم يكونوا من كبار المالكين ولم يكونوا من كبار التجار، وإنما كان سلاحهم الوحيد هو إيمانهم بأن التضحية

هي السبيل الأوحد لتحقيق النتائج الايجابية ، فضحوا بمستقبلهم الخاص كما ضحوا بمصائر ابنائهم وعائلاتهم لأنهم كانوا يختارون الطريق الصعب في الوقت الذي كان فيه الركون الى الطرق السهلة سهل اتباعه .

فعندما نعود اليوم إلى ما تركوا لنا من انتاج ننتشي وننتعش، وحينما نرجع إلى ماوصلنا من فكرهم نصدق بأن التفاعل الثقافي كان حقيقة في بلادنا وبأن التوجيه الصحيح يؤدي دورا فاعلا فيما كان يكتب - فيما وصلنا على الأقل -

وعلى الرغم من أن بعض الأقلام تحاول، عبثا، تزييف ما وصلنا وما لم يصل فإننا عندما نعود وندقق نرى إن ما استطاع أن يخلق المعجزة سنة أربع وخمسين وتسعمائة وألف لا يمكن أن تتسرب إليه الأيدي العابثة .

وكمثال على التفاعل الذي كان يأتي نتيجة وعي ونتيجة اهتمام بالساحة الثقافية نستطيع أن نتكلم فقط على ما كان كتبه الأديب محمد ديب في الدار الكبيرة عندما نجده، على لسان أحد شخصياته، يتحدث عن الأرض ويقول : «هذه التربة السمراء هي أرضنا، ومع ذلك أخذها الكولون وبعد أن أخدها، فهو الآن يعمل على الاستيلاء علينا كلية ولم يكتف بما اخذ إنما يريد أن يستولى على ماهو أثمن أي ان يزيف وأن يمسخ وأن يشوه بحيث الفراغ الفذي يبقى التبعية ، والذي يؤبد حالة التخلف التي يعمل الاستعمار على إبقائها حتى يتمكن من مواصلة الاستغلال .

إن هذه الفكرة، عندما نستقرىء التاريخ القريب جدا، نجدها متأتية من كلمة ألقاها زعيم جزائري هو الحاج أحمد مصالي، عندما قال، وهو متوجه إلى ملعب العاصمة سنة 1936 (1) وقد أخذ كمشة من التراب : هذه تربة سمراء، لا تزال مخضبة بدماء اجدادكم لكنها ليست ملكا لكم، فقد أخذها المستعمر، ولم يبق منها شيئا . . . ولذلك فواجبكم اليوم هو العمل على استرجاعها، وليس اعطاء التبريرات للمستعمر كي يبقى مسيطرا عليها .

انظروا هذا التفاعل بين هذه الفكرة السياسية التي جاءت لمقاومة وضع سياسي خاص، وخلق وضع سياسي جديد يتجاوز ذلك في طريق الاعداد

---

(1) كان ذلك يوم 1936/8/2 وقد جاء زعيم النجم خصيصا ليشارك في المهرجان الشعبي الذي نظمه يومها وفد المؤتمر الاسلامي قصد إخطار الجماهير الشعبية بنتائج المهمة التي قام بها في باريس .

للنهضة الشاملة التي تمهد لثورة نوفمبر 1954 ، وبين ما جاء به كاتب يحاول أن يصل إلى أكبر عدد من الجماهير، يوعيها في نفس الاتجاه، ويقودها إلى نفس الهدف. ذلكم هو الأديب الحقيقي، وذلكم هو الادب الذي لا يأتي من الأبراج العاجية، ولكنه ينبثق من الواقع الذي تعيش الجماهير، مستلهما طموحات تلك الجماهير، قيادات كانت أو قواعد . . . الأدب الذي يعبر بصدق عن الحالة التي يعيشها الشعب، ويعمل من آجل الوصول الى الغايات الاسمى.

من الممكن أن نضرب أمثلة أخرى لأدباء وكتاب شعراء عاشوا قبل 1954 . ومهما حاولنا أن نبحث عن النواقص، ومهما حاولنا أن نبحث عن نقاط الضعف فإننا سنجد دائما أن ا الايجابيات أكثر من السلبيات سنجد دائما ان الروح الوطنية متأصلة فيما كتبوه، وأن ما انتج يطفح بالقيم بكل ما يساعد على الدفع إلى الامام. وفعلا، فبفضل ذلك الأنتاج استطعنا أن نتصدى للتجنيس. . إستطعنا أن نتصدى للدمج . . إستطعنا أن نتصدى لأشياء كثيرة جندت لها كل الوسائل لكنها عندما وجدت المبدأ والفكر الذي يعتمد على الايمان قائمين تراجعت وتلاشت.

إن الحديث عن الفترة التي سبقت 1954 وكذلك الفترة الممتدة من 1954 إلى 1962 بما فيها من من نتائج إيجابية، يجعلنا نشعر بالفخر والاعتزاز. وبقدر ذلك تجدنا ننكمش عندما يجري الحديث عما بعد 1962 ؛ ونكاد نذوب، عندما نصل إلى سنة 1986 . وليس عيبا أن ننقد أنفسنا ونحن نميز بين النقد والانتقاد، لأننا نعرف أن الفترة التي سبقت 1954 هي فترة إمتازت بسيادة المبدأ والتضحية، وشيوع الروح الوطنية ونشرها في أوساط الجماهير بشتى الوسائل.

وفي فترة الكفاح المسلح كانت هناك أسباب أخرى إضافة إلى الأسباب التي ذكرنا، وكنا نتمنى أن نواصل المسيرة على هذا المنوال، ولو فعلنا ذلك لاصبحنا فعلا ذلك المجتمع الذي يحق له أن يقول أنه في مستوى عظمة ثورة نوفمبر 1954.

إن الادب، في الحقيقة، هو مصدر للتاريخ، كما أن التاريخ مصدر للأدب

وإذا ما فقدنا هذه الصلة التفاعلية بين هذا وذاك، فإننا نفقدهما معا، ولأننا بعد 1962 فقدنا الصلة بالتاريخ وبتاريخ ثورة نوفمبر 1954 على وجه الخصوص فإننا فقدنا صلتنا بالأدب الثوري والأدب الذي يكون في مستوى ثورة نوفمبر 1954.

لا يمكن أن ينزل الأدب الثوري من السماء.. الأدب الثوري ليس وحيا ولن يوجد إلا إذا إستطعنا أن نكون أجيالا متشبعة بالفكر الثوري. أجيالا متشبعة بفكر ثوري تمت قولبته من الأدب ومن العلوم الاجتماعية، والعلوم الانسانية بصفة عامة.

إن واجبنا اليوم هو ان نتوقف عند انتاجنا في المواد المذكورة لأن الانتاج في العلوم الاجتماعية يؤثر بطريقة كبيرة تأثيرا بالغا في تطور الأدب ونموه، كما أن الأدب يؤثر في العلوم الاجتماعية وإجتماع الأدب والعلوم الاجتماعية هو الذي يؤثر في الايديولوجيا، كما أن الايديولوجيا هي التي تؤثر في هذين المجتمعين، وهذا هو الذي يكون الانسان.

ومن الغريب أن موضوع المثقفين الجزائريين والثورة، رغم ماله من صلة بالقلم، لم يحظ بما يجب من عناية الباحثين، وكل الذين حاولوا الاقتراب منه انما فعلوا ذلك باحتشام كبير، حتى أنك، بعد ثلاثين سنة من إنطلاق الرصاصة الأولى، لا تجد مصادر جادة يمكن الاعتماد عليها في الكتابة العلمية أو لتقديم معلومات شافية حول أسهام المثقفين، فعليا، في مختلف مراحل الثورة.

هناك من يزعم أن المثقفين معقدون تجاه الثورة لأن مشاركتهم كجنود كانت ضعيفة لأجل ذلك فهم يتجنبون الخوض في الموضوع، وهناك من يدعي أن سبب العقدة يكمن في كون الثورة لم تعطهم كل ثقتها أثناء مرحلة الكفاح المسلح، بل أن عددا منهم اعدم في بعض المناطق بتهمة الخيانة خاصة. ثم تحولت التهمة، مع مرور الأيام، إلى عجز وجبن لصيقين بالمثقف يجردانه من القدرة على النضال والمقاومة.

إن هذه المزاعم وهذه الادعاءات كلها لا أساس لها من الصحة، لأن التغيير أيا كان نوعه لا يحدث في المجتمع إلا إذا وقع تزويد الجماهير صاحبة

التغيير بوعي يجعلها تدرك واقعها، وتؤمن بضرورة العمل من أجل تحسين ذلك الواقع أو تغييره جذريا.

واذا كان العمل السياسي في هذا المجال يؤدي دورا أساسيا، ويسهم، فعلا، في هز النفوس وتحميسها، فإن التعبئة الحقيقة لا تتم إلا اذا تمكن الفكر من إيجاد الشروط الموضوعية لتحويل الذهنية التي صنعها الاستعمار من ذهنية متميعة قابلة، إلى ذهنية متفتحة رافضة، ووضع الأرضية الخصبة التي تنبت فيها الروح الوطنية وتلتئم من جديد عناصر الشخصية التي كان العدو قد اسدل عليها ستار التجهيل والتشكيك والتنويم.

ومامن شك أن الفكر الذي يستطيع القيام بهذه المهمة الجبارة، يجب أن يكون أصيلا يأخذ قوته من التراث الصالح، وينطلق من العصرنة لبناء المستقبل الأفضل، وبعبارة أخرى، ينبغي أن يكون نتيجة لتفاعل الأداب والعلوم الاجتماعية والانسانية مع الايديولوجية المعتمدة لبناء المجتمع المتفق على إقامته.

فمن هذا المنطلق، واعتمادا على كون الثورات تبدأ فكرة ثم تتحول إلى وعي قبل أن تصبح تغيرا جذريا لأوضاع المجتمع القائم، وانطلاقا، كذلك، من الوثائق التاريخية المتوفرة لدينا، فإننا نستطيع الجزم بأن ثورة نوفمبر العظيمة قد ساهم في التحضير لها، بقسط وافر، رجال الفكر والآدب من أبناء الشعب الجزائري على اختلاف انتماءاتهم الاجتماعية والسياسية.

غير أن هذا الجزم، الذي اوردناه في محله، لا يمنع من التأكيد على أن المساهمة كانت تختلف من مفكر لآخر ومن أديب لآخر حسب الايديولوجية التي تشبع بها كل واحد.

فعلى هذا الأساس قد نجد شاعرين، مثلا، يتغنيان مثلا، يتغنيان بالحرية ويدعوان إلى النهوض لنفض الغبار والتخلص من كابوس الظلم والاستبداد.. إن الغاية واحدة في الظاهر. لكن السبيل لتحقيق تلك الغاية ليس واحدا عند كل منهما. فهذا يدعوا إلى التسلح بالمعرفة وذلك ينادي بالاسراع إلى حمل البندقية وشتان بين الوسيلتين لاسترداد السيادة المغتصبة ولتحرير الأرض المحتلة.

وإذا كان الفكـر والأدب والعلوم الاجتماعية كلها مرتبطة بواقع الجماهير وتخضع في تطورها لتطور تلك الجماهير، وتشكل عاملا فاعلا وضروريا لحياة الايـديـولـوجية عندما توفر لها أسباب البقاء والتطور، فإن المفكر والأديب والمثقف، بصفـة عامـة، لا تكون أعماله إيجابية إلا إذا كانت مستلهمة من إيديولوجيته، ومن ثمة، فإن الانتاج الثقافي بجميع أنواعه مرتبط أشد الارتباط بالايديولوجية التي يؤثر فيها ويتأثر بها.

ولقـد كان في الجـزائـر، قبل اندلاع ثورة نوفمبر العظيمة، مجموعة من الايديولوجيات التي يمكن حصر أهمها فيما يلي :

(1) - إيديولوجية نجم شمال إفريقيا التي وضعت في مستهل الربع الثاني من القرن العشرين والتي ورثها وطورها حزب الشعب الجزائري ومن بعده حركة الانتصار للحريات الديمقراطية.

تهدف هذه الايديولوجية إلى خلق الظروف الملائمة لبناء مجتمع جزائري جديد تسوده الحرية وتمارس فيه الديمقراطية وتطبق فيه المساواة وبين جميع أفراده الذين ينبغي أن يستفيدوا من خيرات بلادهم، وأن تفتح لهم أبواب المعـرفة التي لابد منها للخروج من دائرة التخلف، مجتمع يكون خاليا من الأمراض بجميع أنواعها وقادرا على إحتلال مكانة مرموقة بين مجتمعات العالم المتقدم.

وتـرى هذه الايـديولوجية، لتحقيق هذا الهدف، أنه لابد من استرجاع الاستقلال الوطني وتكوين حكومة تسلم لها جميع الممتلكات بما في ذلك البنوك والمنـاجم والسكـك الحديدية والموانىء وغيرها من المؤسسات التي إغتصبها المحتلون، كما جاء ذلك في برنامج العمل المصادق عليه سنة 1933.

ولن يكون الاستقلال كاملا إلا اذا صاحبته تأميمات الأملاك الكبيرة التي في حوزة كبـار المـالكين والكولون والشركات الرأسمالية، وتوزيع الأراضي المؤممة على الفلاحين مع احترام الملكيات المتوسطة والصغيرة.

ويكـون بنـاء هذا المجتمـع الجـديد في إطار جمهورية جزائرية إسلامية العقيـدة عربيَـة اللسـان، ثوريـة المـذهب وحـدويـة المسعى، لأن الهدف الأسميمم يبقى دائـما هو استرجاع استقلال شمال افريقيا العربي الاسلامي

كخطوة حاسمة في طريق توحيد الوطن العربي بعد تحقيق استقلاله السياسي على الأقل.

وكما سنرى، فأن هذه الأهداف كلها ستبقى قائمة، لكن حزب الشعب الجزائري سيغير أسلوب العمل ويبدأ التركيز على تحضير الكفاح المسلح كحل وحيد للمشكل الجزائري.

وحتى عندما يجرب النضال السياسي، بعد الحرب الامبريالية الثانية تحت غطاء حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، فإنه سيدعم التوجه العسكري بإنشائه المنظمة الخاصة التي سيؤدي معظم اعضائها وقادتها دورا أساسيا في تكوين وتأطير النواة الأولى لجيش التحرير الوطني، والتي سيتمكن بعض افرادها من استمالة مجموعة من اطارات الحزب وأعضاء اللجنة المركزية لانشاء اللجنة الثورية للوحدة والعمل التي ستقود نشاطاتها إلى ميلاد جبهة التحرير الوطني ليلة الفاتح من نوفمبر سنة 1954.

(2) - ايديولوجية العلماء المسلمين الجزائريين، وهي من حيث الخطوط العريضة لا تختلف كثيرا عن ايديولوجية نجم شمال افريقيا، اذ تهدف إلى تغيير أوضاع المجتمع الجزائري الذي ينبغي أن يكون عربي اللسان، مسلم العقيدة وجزائري الموطن. لكن الاختلاف يكمن في كون جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانت ترفض الكفاح المسلح كوسيلة وتدعو إلى نشر التربية والتعليم باعتبارهما أنجع سبيل لتخليص الشعب من السيطرة الاستعمارية. لأجل ذلك جاء في الفصل الثالث من قانونها الأساسي أنه لا يسوغ لها، بأي حال من الأحوال أن تخوض أو تتدخل في المسائل السياسية.

(3) - إيديولوجية الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري كانت مشوشة. فهي تارة ترمي إلى تحقيق المساواة بين الأهالي والأوربيين بحيث يتم بالتدريج دمج كل الجزائريين في المجتمع الفرنسي، وتهدف أحيانا، إلى إقامة مجتمع مستقل يعيش تحت وصاية الوطن الأم.

سواء كانت الحالة الأولى أو الثانية، فإن الوسيلة واحدة ووحيدة بالنسبة لهذه الايديولوجية وتتمثل في الصراع السياسي في إطار الشرعية والقوانين الفرنسية.

(4) ـ إيديولوجية الحزب الشيوعي الجزائري التي هي إيديولوجية الحزب الشيوعي الفرنسي .

(5) ـ الايديولوجية الاستعمارية التي ترى أن المجتمع الجزائري لا يمكن إلا أن يكون تابعا للمجتمع الفرنسي في كل شيء ، لأجل ذلك فهي تدعو الى التمسيح المكثف والفرنسية بالنسبة للشرائح الواعية ، في حين تقر معقولية إبقاء الجماهير الشعبية الواسعة في حالة البهائم التي يستعملها السيد لقضاء مختلف حاجاته .

لقد كانت هذه الايديولوجية واضحة المنهج وثابتة القواعد والأسس ، رغم أنها لم تكن مكتوبة بصريح اللفظ ، وكان المتشبعون بها مفطومين عليها نتيجة انتماءاتهم إلى الفيآت العميلة للاستعمار أو التي تدور في أفلاكه ، وكانوا يناضلون بحماس وإخلاص لتجسيدها على أرض الواقع .

كل هذه الايديولوجيات كانت تتصارع ليس من أجل البقاء فحسب ولكن للانتشار والسواد في أوساط الجماهير على حساب بعضها البعض. وكما هو الشأن بالنسبة لكل صراع ، كانت هناك أحلاف إستراتيجية وأخرى تكتيكية ، وكانت هناك مساعي للتعايش السلمي وقتيا حتى يتم الاستعداد للمرحلة المقبلة .

ولئن كانت هذه الايديولوجيات تستهدف مباشرة الانسان وتزويده بما يلزم من سلاح ليتولى بنفسه تغيير الواقع الذي يعيش فيه أو تطويره وتحسينه أو إبقاءه على ما هو عليه وقبول الفكرة الاستعمارية كإختيار أو كأمر واقع ، فإن المثقفين بجميع أنواعهم ، وفي كل الحالات ، هم جنود القلم المعتمد عليهم في تعميم الأفكار ونشر المبادىء بواسطة القصائد والقصص والمقالات الصحفية والروايات المسرحية خاصة ، كما أنهم هم الذين يعملون على تعميق الفكر وتجديد الأدب ، أي على تطوير الايديولوجية التي يتغذون منها .

فمن هذا المنطلق لا يمكن أن نتعامل مع كل المثقفين الجزائريين الذين عاشوا قبل الثورة بنفس الطريقة ، كما أنه لا يمكن أن نطبق عليهم نفس مقاييس التقييم وإنما يجب أن نرجع كل فئة إلى إطار ايديولوجيتها ثم نحاول حصر مدى ماقامت به من نشاط وطني كان أو غير وطني .

ونظرا إلى أن موضوعنا اليوم يخص فئة الوطنيين اللذين ساهموا في إعداد الأرضية التي انطلقت منها ثورة نوفمبر العظيمة، فإننا سنحصر النقاش في إطارها دون التعرض لغيرها من فيآت المثقفين الجزائريين تاركين ذلك إلى فرصة أخرى.

وهنا، أيضا، تجدر الاشارة إلى أن المبدعين نوعان : أحدهما متشبع بايديولوجية جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وبالتالي، فإن إنتاجه يغلب عليه التوجه الثقافي والتربوي وطابع الحفاظ على الشخصية العربية الاسلامية في الجزائر، أما الثاني فمتشبع بأيديولوجية، نجم شمال إفريقيا، ومن ثمة، فإن انتاجه كله دعوة إلى الثورة على المستعمر والاستعداد لخوض الكفاح المسلح من أجل استرجاع الاستقلال الوطني، بالاضافة إلى العمل من أجل تحقيق نفس أهداف النوع الأول.

وبما أننا لا نستطيع التعرض إلى كل المبدعين اللذين برزوا في الفترة السابقة لسنة 1954، فإننا سنحاول تقديم بعض النماذج من الصنفين تاركين للقارىء حق الحكم وإبداء الرأي.

القسم الأول

فترة ما قبل ثورة نوفمبر

النمـــوذج الأول



مفـدي زكريـاء

مما لا ريب فيه أن مفدي زكرياء هو النموذج الحي للمثقف الحقيقي الذي جمع بين صفات العالم ذي الباع الطويل في شتى فنون المعرفة والمناضل السياسي المحنك ذي المبادىء الثابة والادارة الحديدية.

صحيح أن الجو العائلي الذي نشأ فيه بوادي ميزاب، مسقط رأسه وكذلك المحيط الذي انتقل إليه، بعد أن حفظ القرآن الكريم وتلقى المبادىء الأولى في القواعد والشريعة، قد ساعداه على النضج مبكرا، ومكناه من إكتساب الثروة العلمية والتجربة السياسية اللتين سيوظفهما أحسن توظيف في كل الأعمال التي سيقوم بها طيلة حياته التي قاربت السبعين سنة، لكن ذكائه الخارق وما وهبه الله من ذاكرة قوية وما بذله هو شخصيا من جهود متواصلة، كل ذلك كان له دور كبير في تمكينه من الارتقاء إلى المكانة التي احتلها عن جدارة سواء في هياكل الحزب أو في أوساط المثقفين على اختلاف ميولهم السياسية.

لقد كان مفدي محظوظا، اذ من الله عليه بالعيش في بيت عمه الشيخ صالح بن يحي (1) الذي كان رفيقا في النضال وصديقا شخصيا لمؤسس الحزب الحر الدستوري التونسي السيد عبد العزيز الثعالبي، وذلك أثناء مزاولته للدراسة ضمن البعثة العلمية الميزابية. ففي نفس الوقت الذي كان ينهل فيه المعرفة بجميع انواعها على أيدي أساتذة بارعين ومقتدرين تركوا بصماتهم

---

(1) يقول أحمد توفيق المدني في كتابه «حياة كفاح» ج 1 - ص 156 «كان ملكا في صورة إنسان، ما عرفت في حياتي رجلا مؤمنا كإيمانه، فاضلا كفضله، متواضعا كتواضعه، مجاهدا كجهاده، له وجه تشرق عليه شمس القلب الطاهر فتنيره بنور الجلال والوقار. وله نفس زكية تبث شعاعا من الايمان واليقين إلى كل أطرافه - فما رأيت عضوا من اعضائه إلا رأيت فيه نوعا من تجلي الكمال المطلق. كان كلامه حكمة وكان عمله جهادا وكان مسعاه نفعا لأمة الاسلام.

واضحة في مصائر أجيال باكماها ، كان يستفيد مباشرة أو بطريقة غير مباشرة من اللقاءات التي كانت تتم في بيت عمه بين الزعماء السياسيين انذاك .

ومن الجدير بالذكر أن النشاط السياسي في تونس ، كان في تلك الفترة مكثفا ومتسما بالمشاركة الجماعية والفعلية للجزائريين في تأسيس وتنظيم وتسيير وتنشيط الحزب الحر الدستوري التونسي . وسيظل الوضع على ذلك النحو إلى أن تبدأ السلطات الاستعمارية في نفي الأقطاب أمثال أبي اسحاق ابراهيم طفيش ، وعبد الرحمن اليعلاوي والشيخ صالح بن يحي وأحمد توفيق المدني دون أن ننسى عبد العزيز الثعالبي نفسه .

وكان لهذا الجو النضالي تأثير بالغ على تكوين مفدي الذي انطلق يقول الشعر الحماسي والوطني في سن جد مبكرة . فبمجرد أن بلغ الثامنة عشرة من عمره نشر قصيده نورد منها البيتين التاليين :

رفقا بلادي ، فأنت الكون أجمعه لولاك كنت ، بلادي ، هالكا فإن
لك الفؤاد ومافي الجسم من رمق ومن دماء ومن روح وجثمان

لكن نفي الشيخ صالح ورفاقه أوقف الانطلاقة الثورية لدى الشاعر الفتى الذي وجد في حركة الاصلاح مجالا مؤقتا للعمل الفكري . وبدأ ينشر اراءه في الشهاب وفي وادي ميزاب خاصة يدعو من خلالها إلى اكتساب المعرفة التي هي مفتاح التقدم والخروج من دائرة التخلف وينادي بمحاربة الجمود والانقسام ، والعودة إلى الدين الصحيح والتمسك بالعروة الوثقى للنجاة من الهلاك .

ففي يوم 20 سبتمبر سنة 1926 ، وهي نفس السنة التي احتفل فيها بعيد ميلاده الثامن عشر، نشرت له مجلة الشهاب في عددها السابع والخمسين . قصيدة مطولة نقتطف منها مايلي :

بني وطني هذى الحياة شريفة لجوا بابها، واستصحبوا المنهل العذبا
بني وطني هذى الحضارة فاقتفوا بريق المنى واستبدلوا محلكم خصبا
بني وطني يكفي الجمود فشمروا على ساعد الاقدام وأقتحموا الخطبا
بني وطني إن العلوم تفتقت كمائمها فيكم ، ألا فاقطفوا اللبا

وفي نهاية السنة الموالية نشرت له جريدة «وادي ميزاب» قصيدة تحت عنوان مصرع الفضيلة ركز فيها على فضح سلوكات رجال الطرق، وعلى الدعوة إلى التصدي لهم بكل الوسائل. معظم أبيات القصيدة متساوية من حيث الجمال والقوة، لكننا نكتفي بما يلي كنموذج يساعد القارىء على تكوين فكرة أجمالية :

لطموا الدين والكرامة والعـ	ـلم، بخزى وقحة وعناد
واعدوا لشعبهم ذاريات	خانقات أمام كل مناد
وانضووا تحت هيكل الدين ظلما	فحذا الدين عنهم في ابتعاد
خدعوا الناس بالعمائم كبرى	وبنوا في الرؤوس ذات العماد
ولكم تحتها عقارب شر	وأفاعي فتنة وعناد
أيها الناس والنواصب جلى	أنهوضا، أيقظة من رقاد؟
علموا الابن والبنات علوم الد	ين والكونيات والاقتصاد
وانقسوا في صدورهم عزة النفـ	ـس وصدق النهى وحب البلاد

وظل مفدي ينشط في الاصلاح مدة حوالي خمس سنوات يكتب الشعر الجيد والمقالات الهادفة التي يزود بها بعض الجرائد والمجلات في كل من الجزائر وتونس والمغرب الاقصى. لكن تأثير الأعوام التي قضاها في بيت عمه لم يسمح له بالمواصلة أكثر من تلك الفترة، ودفعه تكوينه السياسي إلى البحث عن مجال جديد يتيح له فرصة النضال الحقيقي. وقد وجد ضالته سنة 1932 في منظمة طلاب شمال افريقيا.

لقد كان مفدي، قبل ذلك التاريخ، يؤمن بضرورة توحيد جهود كافة أبناء شمال إفريقيا من أجل استرجاع السيادة الوطنية وبعث كيان موحد يسمى المغرب العربي الكبير. إن هذه الفكرة قد تأصلت في نفسه منذ العشرينات عندما كان أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي يأتون باستمرار إلى بيت عمه يتناقشون حول مختلف جوانب الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي، ويخططون للمصير المشترك.

وأهم ما يحفظ لزكرياء أثناء الفترة القصيرة التي قضاها مناضلا ومسؤولا بهذه

المنظمة خطاب ألقاه بمناسبة افتتاح المؤتمر الرابع الذي انعقد بتونس سنة 1934 جاء فيه على الخصوص ما يسمى بعقيدة التوحيد موزعة على نقاط عشر هي :

1 - امنت بالله ربا، وبالاسلام دينا، وبالقرآن إماما، وبالكعبة قبلة، وبسيدنا محمد نبيا ورسولا، وبشمال افريقيا وطنا واحدا لا يتجزأ.

2 - اقسم بوحدانية الله أنني أومن بوحدانية شمال إفريقيا واعمل فيّ سبيل ذلك مادام فيّ قلب خافق ودم دافق ونفس عالق.

3 - الاسلام ديننا - شمال إفريقيا وطننا - العربية لغتنا.

4 - لست مسلما ولا مؤمنا ولا عربيا اذا لم ابذل نفسي ومالي ودمي في سبيل تحرير وطني العزير من أغلال العبودية، وأخراجه من ظلمات الجهل والفاقة الى نور العلم والرفاهية والعيش السعيد.

5 - كل مسلم بشمال إفريقيا يؤمن بالله ورسوله ووحدة شماله هو أخي وقسيم روحي . فلا أفرق بين تونسي وجزائري ومغربي، ولا بين مالكي وحنفي وشافعي واباضي وحنبلي، بل كلهم إخواني أجبهم وأحترمهم وأدافع عنهم ماداموا يعملون لله وللوطن وإذا خالفت هذا المبدأ، فإنني أعتبر نفسي أعظم خائن لدينه ووطنه.

6 - كل من عمل التفرقة بين أجزاء وحدة وطني اعتبره اكبر عدو لي ولوطني وأحاربه بكل وسيلة ولو كان أبي أنجبني أو أخي من أمي وأبي.

7 - وطني شمال إفريقيا له ذاتيته المقدسة، وتاريخه الباذخ، ولغته الكريمة وجنسيته الشرقية. وكل من سولت له نفسه الانسلاخ عن هذه الجنسية أو المروق من هذه الذاتية اعتبرته آبقا من وحدة وطني، وخارجا عن جماعة المسلمين ليدخل لقيطا بجنسية غيره، فعلية غضب الرب وغضب الشعب.

8 - قد تبين الرشد من الغي. فلا سياسة اندماج، ولا سياسة إستجداء. نحن طلاب حق مغصوب، وتراث مسلوب، فيجب ان نناله وكفى. فلا منزلة بين المنزلتين أما وطني صميم، وأما خائن أثيم.

9 - نحن لانبغض الأجناس. فالكل عباد الله، والأجانب الذين يعيشون في بلادنا نحترمهم ماداموا يحترموننا، ولانؤذيهم مادموا لا يؤذوننا في حرياتنا

وكرامتنا وخيرات بلادنا. فإذا رعوا حق صاحب الدار رعينا حق الضيوف. لهم مالنا وعليهم ما علينا. بهذا أمر ديننا الحنيف، وبهذا تأمر ضمائرنا الطاهرة.

10 ـ وطننا شمال افريقيا لا يتجزأ من جسم الشرق العربي نفرح لفرحه ونتألم لآلامه، ونتحرك لتحركه، ونسكن لسكونه، تربطنا به إلى الأبد روابط اللغة والعروبة والاسلام.

ومن خلال منظمة طلاب شمال إفريقيا اهتدى مفدي إلى نجم شمال افريقيا الذي كان قد نشر برنامجه السياسي سنة 1933. وجاء البرنامج المذكور متضمنا لكل الأهداف التي كان يحلم بتحقيقها منذ أن كان يافعا.

فالمادة الثانية من القسم الأول في البرنامج تنص على أن الهدف الأساسي للنجم هو الكفاح من أجل الاستقلال الكامل لكل واحد من البلدان الثلاثة: الجزائر، المغرب، وتونس، ووحدة شمال إفريقيا.

وقد استطاع مفدي ان يصعد بسرعة فائقة سلم المسؤوليات في هذه التشكيلة السياسية، وأن يتفاعل بصدق وإخلاص مع كل ماجاءت به إيديولوجيتها. ولم يمض وقت طويل حتى أصبح واحدا من المنظرين الأساسيين للنجم ومن القادة البارزين المعتمد عليهم سواء في داخل البلاد أو خارجها.

وفي سنة 1936 كتب للنجم نشيده الرسمي:

فداء الجزائر روحي ومالي	ألا في سبيل الحرية
فليحي حزب الاستقلال	ونجم شمال إفريقيا
وليحي شباب الشعب الغالي	مثال الفدا والوطنية
ولتحي الجزائر مثل الهلال	ولتحى فيها العربية
خلقنا بحكم الهوى أخوة	فتبت يدا كل من فرقا

نريد الحياة لنا حرة كفانا من حياة الشقا

خلقنا لهذا الورى سادة	ونجم الهدى عندنا أشرقا
بلادي يمينا مقدسة	سنرعى عهودك طول البقا

وقد ضمن هذا النشيد، الذي يتكون من أثنين وعشرين بيتا، زيادة على

روح برنامج النجم السياسي والثقافي خاصة، ردا عنيفا على مخطط الجبهة الشعبية الحاكمة في فرنسا أنذاك والمعروف بمشروع بلوم فيولات (1)

ومحاربة مفدي للفرنسة والتجنيس لا تقتصر على ماورد في هذا النشيد، بل أنه سيظل، كلما اتيحت له الفرصة، ينشر من شعره الصادق القوي ما فيه الزاد الكافي للوطنيين في تصديهم للفكرتين القاتلتين ومن جملة قصائده في هذا الموضوع نقتطف الأبيات التالية ليس لأنها أكثر تعبيرا من غيرها، ولكن فقط، لنقدم نموذجا للقارىء الذي يبقى عليه الرجوع إلى أنتاج الشاعر لكي يكون لنفسه فكرة كاملة عن الدور الذي قام به زكرياء في توجيه الرأي العام الجزائري لمكافحة السياسة الاستعمارية التي كانت تهدف إلى تنفيذ عمليات التذويب والتشويه والتزييف والأبيات الاتية من قصيدة نقلتها لقرائها «الشباب» التونسية يوم 5 مارس سنة 1937 أي قبل تأسيس حزب الشعب الجزائري بأقل من أسبوع.

أيها الشعب والجزائر تشكو | في ثنايا الضلوع داء عضالا
وتنادي بني العروبة «وامعت | صماه» قد أحكموا الاغتيالا
سطروا حولها برامج للمسخ | وحطوا على فناها الرحالا
فاتقوا الله أيها الجوع الغر | ثى ولا تأكلوا الحرام حلال
إن شعبنا على العروبة والاسلا | م قد شب لا يطيق فصالا
إن تربا مضمخا بدماء | من حدود لا يستطيع اعتزالا

وعندما حل حزي الشعب الجزائري محل نجم شمال إفريقيا يوم 11 مارس سنة 1937، كان مفدي واحدا من قادته الاساسيين ورئيس تحرير لسانه المركزي جريدة «الشعب» التي جاء عددها الأول عبارة عن بيان موجه إلى الجماهير فيه دعوة الى الثورة وتذكير بضرورة الاستعداد لخوض المعركة الفاصلة. ولم تكن صرخة زكرياء في ذلك العدد الأول شعرا، لكنها جاءت نثرا لا يق عنه جمالا وقوة، كان ذلك يوم 27 أوت سنة 1937 على النحو التالي :

---

(1) هو مشروع إستعماري كان التركيز فيه على إعطاء المساواة لحوالي عشرين ألف من الجزائريين الذين تتوفر فيهم مجموعة من الشروط مثل التعليم والخدمة العسكرية والوظيف الخ. وعندما نريد الايجاز نقول أنه المشروع الذي وضع ليفصل الطلائع بجميع أنواعها عن الجماهير الشعبية.

«لقد أذن المؤذن أيها الشعب، البدار البدار، فلات حين هجوع. ودوت في السماوات الصرخة الكبرى فلات ساعة خنوع، وأزلفت السعادة يومئذ للعاملين الصادقين، وبرزت اللعنة والهزيمة للمنافقين العابثين، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا في ديارهم جاثمين.

اقتربت الساعة أيها الشعب، وإنشق طريق الحياة، وحق لك أيها الشعب أن تتمتع بصحافة حرة صادقة غير مخادعة ولا مخاتلة، ولا مواربة، ولا تملك غير الحق سلاحا، ولا ترى غير كفاحا، وأن افتخر الناس بانسابهم فهي تفتخر بنسبها إليك، وإذا تباهت الشعوب بأثارها فباه يا شعب بمحصول دماغك وبصنع يديك، وسلام عليك يا شعب يوم كنت حرا عزيزا، ويوم أردت أن تسترجع عزك وحريتك، ويوم تعود، بفضل جهادك واعتمادك على نفسك، سيد أرضك ورب بلادك.

وفي العدد نشر الشاعر قصيدة موجهة خصوصا للجزائريين يضعهم أمام مسؤولياتهم التاريخية ويحضهم على استلال الأقلام ليس للبكاء والتشكي، ولكن لخوض معركة المصير من أجل التحرير والتحرر.

ونحن إذا نظرنا، اليوم، إلى محتوى هذه القصيدة وجدناه، بعد نصف قرن من الزمن، مازال صالح للنشر، بل مازلنا في حاجة إليه لهز نفوس الأدباء والكتاب الجزائيين ويستطيع القارىء أن يحكم بنفسه على الأبيات التالية التي نقترح أن تغير فيها كلمتان سنوردها بين قوسين. قال مفدي مخاطبا الكتاب في تلك السنة.

تعالو نقتسم حلوا لاماني   تعالوا نقتسم الجراحا
تعالوا نرهف الاقلام يوما   ونذكر عندها الادب الصراحا
ونكتب «بالدم الغالي» حروفا نعلم للبنين بها الكفاحا
وننقد باليراعة «حق» شعب غدا نهبا، وأصبح مستباجا
كفى يأيها الكتاب نوما   وحسبنكم بني أمي مزاحا
أيقضي القوم عمرهم جهادا   ونقضي العمر كالثكلى نواحا
فلا نال الكرامة من تواني   ولارزق الحياة من استراحا

لقد اعتبرت السلطات الاستعمارية هذا العدد من جريدة الشعب دعوة صريحة إلى الثورة وكتابات مفدي الشعرية والنثرية تحريضا سافرا على التمرد والعصيان. ونظرا إلى أن زكرياء كان مسؤولا أول في الحالتين بالاضافة إلى أنه كان رئيس اللجنة التنفيذية لحزب الشعب الجزائري، فإنه أودع السجن بعد ان تعرض مسكنه إلى عملية تفتيش واسعة ومدققة.

ولئن كان ظهور العدد الأول من جريدة «الشعب» هو الذريعة التي تسلحت بها سلطات الاحتلال للقبض على الشاعر القائد، فإن هناك قصيدة أخرى كان مفدي نشرها في الوطن وقد تكون هي الدافع الأول لسجنه نظرا لما تضمنته من أفكار ثورية ونقد لاذع لسلوكات وتصرف الادارة الاستعمارية، ولما جاء فيه من استهزاء بسياسة الجبهة الشعبية ومن دعوة الجماهير الشعبية الجزائرية للاعتماد على النفس لتسترجع بالقوة، ما أخذ من الحدود بالقوة. ومن جملة ما شتلت عليه هذه القصيدة الابيات التالية :

يافرنسا لا تجهلينا، فإنا ... قد نهضنا فلا نطيق ركودا
قد كرهنا حياة ظلم وجور ... وسئمنا الخراب والتبديدا
كف هذى في اللجان عنا فإنا ... قد سمعنا وعيدها والوعودا
ورأينا اللجان كيف تغني ... وفيوليت اذ يستعيد القصيدا
ضاق صدر البلاد يا جبهة الشعب ... فهل تنجبين شيئا مفيدا

أيها الشعب خل عنك الأماني ... واركب العزم واتركن الجمودا
وعلى النفس فاعتمد وتقدم ... واقتحم في الحياة عصرا جديدا
كل من يعتمد على الغير أضحى ... بيد الغير في الحياة مسودا
كل من يرتضي حياة هوان ... ظل في أرضه الشريدا الطريدا

وظل مفدي زكريا في السجن مدة أكثر من عامين ولم يطلق سراحه إلا بعد اندلاع الحرب. الامبريالية الثانية. وحتى في غياهب السجن، فإن الشاعر لم يسكن بل استمر في النضال وواصل الكتابة سواء في شكل مقالات أو قصائد شعرية كانت تنشر على أعمدة الجرائد والمجلات التونسية، لأن جريدة الشعب

كانت قد ارغمت على الاحتجاب بينما كانت الجرائد والمجلات الاخرى التي تصـدر في بلادنـا لا تقوى على نقل اللهب المرسل من السجن لاشعال نار الثورة. فمن الروائع التي أوحى به السجن لمفدي النشيد التالي الذي يعرفه جل المجاهدين :

اعـصفـي يـاريـاح واقـصفـي يـارعـود
واثـخنـي ياجـراح واحـدقـي ياقيـود
نـحـن قـوم أبـاة لـيـس فينـا جبـان
قـد سئمـنـا الحيـاة في الشقـا والهـوان
ادخلـونا السجـون جـرعـونـا المنـون
ليـس فيـنـا خـؤون ينـثنـي أو يـهـون

أجـلـدوا، عـذبـوا
واشـنـقـوا، واصـلـبـوا
واحـرقـوا، واضـربـوا
نـحـن لانـرهـب

هذه، لمحة موجزة عن الاسهام الفعلي الذي قام به شاعر الثورة في الاعداد للثورة. ومن خلال هذه اللمحة يتسطيع القارىء أن يتبين بأن الجهد الفكري قد سبق بالفعل انطلاق الرصاصة الأولى، ولولا انتشار الفكر الذي كان يعبر عن ايديولـوجية الثـورة ويعمـل في ذات الـوقت على تعميقها باستمرار، لما استطاعت أية قوة أن تنفذ إلى الجماهير الشعبية الواسعة توعيها وتعبئها وتدفع بها في طريق الخـلاص من الاحتـلال الاستيطاني والهيمنة الاجنبية في جميع أشكالها وبسائر أنواعها.

النمـوذج الثـاني



محمد العيد آل خليفة

ان إختيار محمد العيد كنموذج للفئة الثانية من الرافظين ليس صدفة، بل أنه متعمد لثلاثة أسباب على الأقل : أحدهما لأنه شاعر مثل مفدي زكرياء الذي قدمناه كنموذج للمثقفين المتشبعين بايديولوجية نجم شمال إفريقيا التي تدعو إلى الكفاح المسلح لاسترجاع السيادة المغتصبة، وثانيهما لأنه كان في نفس سنة تقريبا أي أنه عاش نفس الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي عرفها مفدي وتمرد عليها، وثالثها لأن الشاعرين مرا بنفس المراحل التعليمية وقالا الشعر الجيد الذي نال إعجاب العارفين قبل سن الرشد القانونية.

لقد ولد محمد العيد قبل مجيىء مفدي إلى الوجود بأربعة أعوام، ومثله نشأ في بيت محافظ وفتح عينيه على الكتاتيب حيث حفظ كتاب الله وبدأ الغوص في بحور الفقه والعلوم الانسانية.
لكن الاختلاف في حياة الرجلين بدأ يظهر ويتسع بعد مرحلة الطفولة حيث قضى محمد العيد مراهقته الأولى يتعلم على يد علماء مصلحين أمثال علي بن إبراهيم وأحمد الجنيدي ومحمد السائح حقي ثم ملأ محيطه رجال أفذاذ مثل الامام عبد الحميد ابن باديس الذي كان يزور بيتهم كلما حل بمدينة بسكرة، والشيخ الطيب العقبي والشيخ أحمد بن العابد العقبي وغيرهم ممن بثوا فيه روح النهضة الأدبية وروح الاصلاح. أما مفدي، فإنه عاش، مراهقا، في بيت عمه بتونس يكرع من ينبوع النضال السياسي كما سبقت الاشارة إلى ذلك.

وبالفعل، فإن المحيط المباشر قد أثر في توجهات محمد العيد الثقافية والسياسة. ونقول المحيط المباشر، لأن المحيط الأوسع لم يكن كله من الداعين للاصلاح والمتحمسين له.

ففي مدينة بسكرة كان هناك شاعر عاش قبل محمد العيد بقليل يدعي أبو القاسم الخمار (قد يكون هو جد شاعرنا الذي يحمل اليوم نفس الاسم) يقول الشعر السياسي ويبدو أن محمد العيد كان يحفظ له بعض القصائد. إذ يذكر الدكتور سعد الله في كتابه «محمد العيد آل خليفة، رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث» الصفحة الرابعة والعشرين أن الشاعر استظهر له، ذات يوم، مقطعا جاء فيه :

فرنسا جاءك الأجل المسمى فلا بحر يقيك ولا حصون

ويشير سعد الله دائما إلى أن لخمار قصائد اخرى في هذا المعنى اطلع على واحدة منها في جريدة الاخبار الصادرة بتاريخ 12 أفريل سنة 1914.

واذا عرفنا ان ابالقسم الخمار كان، في سنة 1914، لم يتجاوز سن الشباب، فإننا نستطيع التأكيد بأن هناك جوا اخر غير جو الاصلاح كان يسود المجتمع الجزائري في بسكرة ونواحيها. لكن محمد العيد لم تتح له سوى فرصة التشبع باراء وأفكار المصاحين الذين كانوا، لأسباب متعددة، يزورون والده. وحتى عندما صار يافعا، فإن كل أصدقائه كانوا من المتعلمين الذين سيسهمون، بدرجات متفاوتة، في دفع حركة الاصلاح أشواطا كبيرة إلى الأمام.

وفي تونس كان من الممكن أن يغير محمد العيد اتجاهه بسبب النشاط السياسي المكثف الذي كانت تتزعمه كوكبة من الجزائريين المؤنين بقضية شمال إفريقيا والعاملين، بكل الوسائل، من أجل استرجاع الاستقلال الوطني. لكن ذلك لم يحصل رغم أنه ظل، طيلة السنين اللتين قضاهما بعاصمة إفريقيا (سابقا) مواضبا على قراءة جريدة الحزب الحر الدستوري التونسي.

ونحن نعتقد أن قصر مدة الاقامة في تونس، وعدم التمكن من الاحتكاك المباشر بالزعماء السياسيين مثلما كان الأمر بالنسبة لمفدي يأتيان في مقدمة الأسباب التي منعت الشاعر من استبدال الاصلاح بالنضال السياسي. ثم أن زيارات الشيخ عبد الحميد إبن باديس المتكررة إلى تونس قد ساعدت على إبقاء خيوط الاصلاح متماسكة في أعماقه.

هكـذا، وبمجـرد العودة إلى بسكرة، إنضم محمد العيد إلى مجموعة من العلماء العـاملين الـذين لم يكونوا غرباء عنه ولا متقدمين عنه كثيرا في السن وأسسـوا حركـة إصـلاحية اتخذوا لها لسانا مركزيا أطلقوا عليه إسم «صدى الصحـراء» كان ذلـك في خريـف عام 1925 ، وكـان المسؤول عن المجلة، يومها، هو السيد أحمد بن العابد العقبي (1) .

ففي هذه الجـريدة، بدأن محمـد العيد ينشر أرائه وأفكاره حول الصحوة الدينية والنهضة الأدبية اللتين يري فيهما شرطا أساسيا للنهوض بالمجتمع الجزائري .

واذا كانت الأسس التي لابد منها لانجاح المشروع تتلخص، حسب رأيه، في تأسيس جمعية إصلاحية لمقاومة البدع والضلالات، ة وفي نشر اللغة والثقافة ورفع القدم عنها، فإن تحديده للاصلاح قد ضمنه أعمدة صدى الصحراء في عددها الصادر بتاريخ 4 جانفي سنة 1926 ، وفيمايلي فقرة من المقال :

«ليس الاصـلاح ان تحسنوا اختراع الكلمات الساحرة والألفاظ الخلابة، فتلك أغراض لا تلبث أن تذهب أدراج الريح . ولكن الاصلاح كل الاصلاح في لم الشعب ورأب الصدع وتوجيد الكلمة وتحسين الثقة حتى تتألف جبهة قوية وعصابة ملية، تقارعون بها مصائب الدهر وطوارق الحدثان» .

ولم يبـدأ معركة الاصلاح منظرا وداعية فقط، لكنه دخلها جنديا باسلا، ومناضلا ملتزما .

هكـذا، نزل إلى الميدان في نفس السنـة يرد على أحد غلاة الكولون يدعي آشيل، كان قد كتب مجموعة من المقالات تحامل فيها على الاسلام وحاول النيل من القرآن الكريم . قال محمد العيد :

هيهـات أن يعتري القرآن تبديل ... وأن تـبـــدل تـوارة وآنـجيـل
قـل للذيـن رموا هذا الكتاب بها ... لـم يتفـق معـه شــرح وتأويــل
هل تشبهون ذوي الألباب في خلق ... إلا كمـا تشبــه النـاس التمـاثيـل

---

(1) كانت هذه الجريدة تصدر تحت الرعاية السامية للعلامة الشيخ الطيب العقبي اللذي سيؤدي دورا أساسيا في إصلاح العاصمة وضواحيها وفي إرساء قواعد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

مابال آشيل في الديبش (1) يسخر من | أيـات محكمـة لاكـان آشيـل
مابـال آشيـل يهـذى في مقالتـه | كحاكـم راعـه في النـوم تخييـل

ولم تكن الكتـابـة هي السـلاح الوحيد المعتمد من طرف شاعرنا في هذه المعـركـة، بل أن محمـد العيد، زيادة على نشاطه الفكري ضمن المجموعة المذكورة كان يعلم الطلاب في مدينة بسكرة. ومن الممكن أن عمله كان حرا وبالمجان لأن الدكتور أبو القاسم سعد الله يذكر أنه لم يباشر العمل إلا عندما عين معلما في جمعية الشبيبة الاسلامية بالعاصمة سنة 1928.

واذا كنا لانشك في كون محمد العيد قد ألتحق بالعاصمة سنة 1928 فإننا نستطيع الحزم بأن ذلك لم يكن في بداية السنة وإنما بعد ختم درس كتاب القطر لابن هشام. يكفينا دليلا على ذلك القصيدة التي نظمها بتلك المناسبة والتي نشرت بجريدة الشهاب في نفس السنة.

ولقـد جاءت هذه القصيدة بالنصـائـح المـوجهة للطلاب يدعوهم، من خلالها، إلى الكد في سبيل المعرفة، والتنافس من أجل إكتساب العلم والعلم به إرضاء الله وللمجتمع وفيما يلي بعض الأبيات المختارة ليس لقيمتها الفنية ولكن لما حوته من معنى ودلالة.

يا معشر الطلاب هل من ناهض | بالشعـب حـر حافـظ لـذمامـه
أو باعـث في الشعب روح أبايـة | منكم فموت الشعب في استسلامه
ما عاشـت الذؤبـان في اغنامـه | لـو كانـت الأسـاد فـي آجـامـه
لكـم اللسـان الفـذ في ايضاحه | رغمـا علـى الساعيـن في ابهـامه
لا تهملـوا هذا اللسان ففقـدكم | فـي فقـده ودوامـكـم بدوامـه

ورغم ان محمد العيد قبل العمل في العاصمة طواعية، إلا أنه وجد صعوبة كبيرة للتأقلم مع جوها الذي لم يوفر له المتنفس الثقافي الذي كان في حاجة ماسة إليه خاصة وأنه ترك وراثه، في بسكرة، نشاطا فاعلا أسهم شخصيا في بلورته.

---

(1) هي الجريدة التي كان يصدرها الاستعمار وعنوانها: «لاديباش دو كنسطنطين»
La dépéche de constantine

وعلى كل حال، فإن العام الأول والثاني قضاهما في مدينة الجزائر، قد ساعداه على التأمل مليا في الأوضاع المزرية التي فرضها الاستعمار على الشعب الجزائري، وانطلاقا من تلك التأملات راح يغرس في نفوس تلامذته روحا وطنية تمكنهم من الادراك بأن حقوقهم الضائعة ستعود ولو طال الزمن، شريطة أن تتضافر الجهود في إتجاه الجماهير توعيها وتجندها حول واقعها المؤلم الذي يجب أن يتغير نحو الأفضل.

وبمناسبة مرور مائة سنة على الاحتلال، بينما كان الكولون يقيمون الأفراح تخليدا للذكرى، قطع محمد العيد قرنا كاملا ليعيش الحملة الصليبية على الجزائر وكتب البيتين التاليين :

في مثل هذا اليوم ريعت أمتي	بالاحتلال ونالها ما نالها
ولعل من جعل الصليب يظلها	سيضيء من خلف الغيوم هلالها

وبنفس المناسبة، جادت قريحة الشاعر ببيتين لا ندري لماذا شبه فيها الاستعمار بالضيف :

أطلت بجانبي ياضيف فارحل	لحاك الله من ضيف ثقيل
مضى لك مذ نزلت علي قرن	متى يا ضيف تؤذن بالرحيل

ومهما يكن من أمر، فإن المقطعين لم ينشرا، وان كان الدكتور سعد الله يذكرهما في كتابه «محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث».

إن البيتين الأولين كان موضوع الدرس الذي ألقاه الشاعر على تلاميذه يوم 5 جويلية سنة 1930.

وبعد هذا التاريخ بأقل من سنة نشر محمد العيد على أعمدة الشهاب قصيدة التي ستصبح من الأناشيد الوطنية التي ترتفع بها أصوات الصغار والكبار على السواء.

يابـــلادي يابـــلادي أنـــا لا أهـــوى ســـواك
قـد سـلا الـدنيـا فـــؤادى وتـفـانـــي فـــي هـــــواك

وفي سنة 1932 ، وبمناسبة الاحتفال السنوي الذي تنظمه مدرسة الشبيبة، ألقى محمد العيد أمام الجمع قصيدة يمكن وصفها بالثورية، خصص الجزاء الأكبر منها لمخاطبة الشباب يحثه على الاقدام وترك خوف المخاطر والبكاء، ويدعوه إلى العمل الدؤوب والتضحية المستمرة قصد تخليص الوطن من براثن المستعمر :

شباب الجزائر طب بالاخـــاء فقــد حزت في سعيك الأسبقية
ذر الخوف تعرف ثنايا السلوك فمـن هـاب خـاف وضل الثنيـة
ولا تـنتصـــر للبـكـا بالـبكـــا وتبـدي الشكيـة عنـد الشكيـة
إذا كـــان كفـك غيـر سخـــي فمـاذا تفيـد الدمـوع السخيـة؟

وبالاضافة إلى التدريس، وإلى تسيير المدرسة، فإن محمد العيد كان يسخر الشعر لخدمة الاصلاح في الجزائر. فيدعو أولى المغرفة إلى الأخذ بيد الشعب لتخليصـه من التخلف، وإخـراجـه من ظلمات الجهـل وإعـداده ليتحمـل مسؤولياته التاريخية، ويطالب العلماء ببذل كل ما في وسعهم لمحاربة الطرقيين والمتلاعبين بعواطف الجماهير، العاملين على إبقاء المواطنين في غفلة يسهل معها الاستغلال والاستعباد. ولقد تعود الشاعر أن يلقي قصيدة سنوية بنادي الترقي على إثر الانتخاب السنوي لمجلس ادارة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، يضمنها تقيما شاملا للوضع الذي تعرفه حركة الاصلاح. وفيمايلي نورد بعض الأبيات من حولية عام 1933 .

مــن الجـــزائـــــر يـفـتـــــد يـهـا الـيوم مـن سـفـه الـسفـل؟
مـــن كـــل مـبتكـــر المكـــــا ئـــــد فـي عقـــائـده دخـــل
يغـــرى النفـــوس كـأنـــه ذئـــب علـــى حمـــل حمـــل

وعندما انعقد المؤتمر الاسلامي تحمس له محمد العيد متبنيا، في ذلك موقف جمعية العلماء ومعتقدا أنه سيؤدي إلى توحيد كل القوى الوطنية لخدمة مصالح الشعب الجزائري.

ولقد كان المؤتمر، في الواقع، انزلاقا نحو الخطأ السياسي الذي سيسجله التاريخ ضد جمعية العلماء التي رفعت شعار اللاسياسية، وهو لا طبيعي لأن الاسلام لا يفصل عن أي نشاط في الحياة. ثم عندما تعاطت السياسة راحت تتبنى مواقف من كانوا يسمون بالمعتدلين يومها وتدير الظهر للسياسة الواضحة المسطورة من طرف نجم شمال إفريقيا.

وبما أن محمد العيد كان هو شاعر الجمعية الرسمي، فإنه ذاب في موقفها دون مناقشة، ونشر قصيدة على أعمدة الشهاب ضمنها أهداف المؤتمر المتمثلة في المطالبة بالحقوق والمساواة، وهي أهداف ما أبعدها عن برنامج نجم شمال إفريقيا الذي كان يدعو إلى الاستقلال الكامل، لأجل ذلك، فإن النجم، للتذكير، لم يكتف بمقاطعة المؤتمر ولكنه جند كل ما في وسعه لمحاربته وإفشال مساعيه. أما القصيدة المذكورة، فإننا نقتطف منها مايلي :

يافرنسا ردى الحقوق علينا	واقلي الأذي وكفي الوعيدا
نحن رغم الطغاة في الأرض أحرا	ر وأن خالنا الطغاة عبيدا
نبتغي السلم والهدوء ونأبى	أن يكاد امرؤلنا أو يكيدا
حسبما العدل لا يهم بأن نث	أر من من حاكم بغى أو نقيدا
فدعي الماضي الحزين بما فيه	وهاتي الغد الرضي السعيدا

وعلى شاكلة جمعية العلماء، ظل محمد العيد يعتقد أن الاتصال بفرنسا يمكن أن يسفر عن نتائج إيجابية، وأن المطالبة بالمساواة تجدي مع الاستعمار الذي هو مبني أساسا على الظلم والاستغلال والاستبداد.

ففي نفس هذا الاطار، كتبت جريدة البصائر في عددها الرابع عشر تقول : «اقترحنا على شاعر الشباب، بل أمير شعراء الجزائر أن ينظم لنا أبياتا

في مخاطبة لجنة البحر العليا (الحقيقة هي لجنة ما وراء البحر) (1) بمناسبة اجتماعها الأخير، ومقال جريدة الطان الذي أقام الأمة واقعدها، تخليدا لذكرى هذه الحادثة، وإبقاء لها ما بقي التاريخ، لأن الشعر يحفظ ولا ينسى، فأجاب الاقتراح وعبر عن شعورنا، وأعرب عما في ضميرنا بهذه الأبيات العامرات الخالدات، ان شاء الله.

يـــالجنــة البحـــر خبـرينـــا — هـل فيـك للشعـب مـن مفيـد
جـريـدة الطـــان أنـذرتـــنـــا — بحـــادث الســوء مـن بعيـــد

وأنـــت تـدعـينـنـــا لنـــوم — منعـــم بـالـــرؤى سـعيـد
وإلـــى متـــى تنشـــدين فيـــنا — أنـشـــودة الأم للـــولـــيـــد؟

وعندما جاءت نتائج المؤتمر مخيبة للآمال، واتضح أن موقف الجبهة الشعبية من المستعمرات لا يختلف في شيء عن موقف الحكومات السابقة، وعندما أطلق إبن باديس صيحته المشهورة التي قطع بها كل حبال الأمل في إمكانية الحصول على الحقوق المطالب بها، واعطى الاشارة الخضراء للدخول في معركة توحيد الصف الوطني لمواجهة العدو الواحد، عندما تبين كل ذلك لمحمد العيد، وهو الشاعر المعبر عن سياسة العلماء، راح يدعو إلى انتهاج الأساليب الكفيلة باسترجاع الحقوق المأخوذة بالقوة.

فقـم يا إبن البلاد، اليوم وانهض — بـــلا مهـل فقـد طـــال القعـــود
وقـل يـا ابـن البـلاد لكـل لـص — تجـلـى الصبـح وأنتبـه الـرقـود
فخـض يـا إبـن الجزائـر في المنايا — تضلـلـك البنـود أو اللحـــود
بإخـلاص وإقـــدام وعلـــــم — يســـود البـريـــة مـن يســـود

---

(1) كانت فرنسا تسمي مستعمراتها: مقاطعات وراء البحر، أي المفصولة عنها بواسطة البحر. لكن كرسكا كانت مستثنية من هذه التسمية.

وقال أيضا في نفس الفترة وفي نفس الاتجاه :

وهبتك روحي يا جزائر فأمري كما شئت إني خاضع لك خادم
حماك ربيع لي وأن كان جاحما على، وهل يصلى خليلك جاحم

وتأتي الحرب الامبريالية الثانية، ويلتحق إبن باديس بجوار ربه، فيسكت الشاعر ولن يعود إلى الميدان النضالي إلا عندما تهزه انتفاضة الثامن من شهر ماي 1945 .

لقد فاضت عواطفه بتلك المناسبة، وتفجر الشعر فيه كالبركان فجاء شواظا من نار لا نعتقد أنه قال مثله من قبل ولا من بعد وأنه لمن الصعب جدا تفضيل بيت على آخر. وإذ نورد مقطعين قصيرين من القصيدة فإننا نطمع أن تحفظ للتلاميذ في جميع مراحل الدراسة لأنها تعبير حي عن الذي جرى وعن المرارة التي كان يحس بها كل مواطن واعي في ذلك الوقت

وقفت أجيل الطرف في الأرض باحثا وأضرب اخماسي الجميع بأسداسي
إذا بي أرى فيها الضعيف يجيله شراء وبيعا في الورى كل نخاسي
أرى كرة ترمي إلى شر غاية تبارى عليها الأقوياء بأقواس
فيا أيها المستعمرون تنزهوا ولا تمسحوا وجه الحياة بأرجاس
ألم يكفكم مامر من قتل أنفس ومن كم أفواه ومن خنق أنفاس
ويا أيها الشعب المروع لا تضق بدنياك ذرعا وأطرح خلق اليأس

وكانت انتفاضة ماي منعطفا جديدا في حياة شاعرنا. فهو لم يتخل عن الفكرة الاصلاحية لكنه راح يطعمها بالفكر السياسي الضروري لها حتى تكون نتائجها إيجابية، وأصبح شعره أكثر تعبيرا عن الواقع الجزائر وعن الرسالة النضالية التي يجب ان يؤديها كل ذي ضمير حي لنشر الوعي في أوساط الجماهير.

محمد العيد الذي كان يدعو الشباب إلى التقى والزهد، وإلى الجري، فقط، وراء العلم والمعرفة والتمسك بتعاليم الدين الحنيف، أي إلى تكوينهم تكوينا لا يخرج عن

الاطار المحدد من قبل سياسة الاصلاح في ذلك الوقت، صار لا يفصل بين الأهداف الدينية والأهداف السياسية، وأصبح يستعمل شعره، بكل شجاعة، لتوجيه الأجيال الصاعدة وجهة وطنية كفيلة باستنهاضها وبتعبئتها ضد الوجود الاستعماري ومن أجل مكافحة الغزاة الأجانب بكل الوسائل.

فالشباب الجزائري، حسب محمد العيد في سنة 1947، يجب أن يعمل على استرجاع عناصر شخصيته التي شوهها الاستعمار الفرنسي ثم يخوض معركة توحيد مختلف القوى الحية في البلاد لمكافحة الارهاب والاستبداد ولتحرير الشعب وتوفير أسباب رقيه وازدهاره.

هذه الأرض سوف تنبت عزا	إن تصافت في ظلها الأحزاب
كلنا إخوة من الدين والجنس	عليها وكلنا أحباب
نبتغي العيش في الجزائر حرا	مطلقا لا يحفه إرهاب
ارشدينا السبيل أيتها الحمراء	أنا قوم إليك ركاب
هل إلى وصل بيننا من سبيل	غبت عنا وطال منك الغياب

وسيستمر محمد العيد على هذا النحو، داعية إلى الاصلاح الذي شب عليه وإلى الاستقلال الذي أيقن، بعد تجربة طويلة، أنه الحل الوحيد للمأساة التي يعيشها الشعب فجاءت الاشعار التي جادت بها قريحته في تلك الفترة الوجيزة التي سبقت الثورة، مليئة بالدعوة الصريحة إلى الجهاد، تدل على تلك الأبيات التالية المقتطفة من قصيدة نشرت بجريدة المنار سنة 1950 :

الأسر طال بكم فطال عناؤكم	فكوا القيود وحطموا الأغلالا
والشعب ضج من المظالم فأنشدوا	حرية تحميه واستقلالا
لا أمن إلا في ظلال مرفوف (1)	حر لنا عال ينير هلالا
من فوق جند بالعتيد من القوى	يلقى العدو ويصمد أستبسالا
وإذا أراد الشعب نال مراده	لو أنه كالنجم عز منالا

(1) يقصد العلم الوطني الذي كان ممنوعا الحديث عليه أو الاشارة إليه.

النمــوذج الثــالث

محمد السعيد
الزاهري

وفي سنة 1933 وجه حمدان بن عثمان خوجة مرآته إلى فرنسا، ولئن كان الكتاب، في مجمله، مرافعة لا مثيل لها في التاريخ، فإن بعض فقراته تفرض على الدارس أن يعود إليها من حين لآخر يستلهمها ويستعين بمضمونها لايجاد الخيط الرابط بين مختلف المراحل التي قطعها الشعب أثناء مسيرته الطويلة ولتسليط الأضواء على كثير من المحطات التي لابد من التوقف عندها لتقييم الماضي وفهم الحاضر، والتخطيط للمستقبل. ومن بين الفقرات التي مازالت لم تفقد قيمتها وقوتها تلك التي وردت في الفصل الحادي عشر على النحو الثاني :

«إنكم (ملك فرنسا) تعطون الملايين لليونانيين وللبولونيين، فتنجدون تلك الشعوب بأموال الجزائريين. فلماذا لا تخرج فرنسا المتحررة من الجزائر وتترك إدارتها لأبنائها، وبذلك تكون قد مهدت الطريق لسائر الشعوب التي تكافح من أجل تقرير المصير؟ ولماذا تسكت الحكومة الفرنسية عن الجرائم التي ترتكبها جيوشها يوميا ضد السكان الأمنين في مختلف أنحاء الأيالة؟ إن كل تلك الأعمال الوحشية لن تفيد الفرنسيين في شيىء، لأنها لن تخرجهم من الورطة التي وقعوا فيها عندما اقدموا على نكث العهد وإحتلال الجزائر».

نستكشف من خلال هذه الفترة ويدعمنا فيما نقول عدد من المؤرخين أمثال جورج أيفار، أن حمدان خوجة هو أول من إستعمل عبارة «الجزائر للجزائريين» وقبله بحوالي عشرين قرنا كان ماصينيصا قد رفع شعار «إفريقيا للافارقة» تعبيرا عن غيرته على إستقلال الدولة النوميدية وعزمه على تعبئة الجماهير لمواجهة الأطماع الأجنبية وخاصة منها أطماع روما المتسلطة يومها.

---

(1) المرآة : كتاب قيم ألفه حمدان دفاعا عن الجزائر لكنه ضاع ولم تبق منه سوى الترجمة الفرنسية التي كان أنجزها في نفس السنة وزير خارجية ليبيا يومها. وقد قمنا، سنة 1972 بتعريبها وتقديمها إلى القراء. وقد لاقى المرآة رواجا كبيرا حيث طبعناه ثلاث مرات ولم تبق منه نسخة واحدة في السوق.

ولم تمر على التاريخ الذي رفع فيه حمدان تقريره إلى ملك فرنسا سوى ست وستين سنة حتى إحتفلت قرية ليانه (ولاية بسكرة) بميلاد محمد السعيد الزاهري الذي سيؤسس عام 1925 جريدة «الجزائر» ويجعل شعارها القار «الجزائر للجزائريين».

ليس هناك مايثبت أن ذلك الأديب الشاب قد نقل الفكرة عن حمدان، كما أننا لا نملك ما يدل أن الزاهري قرأ المرآة، أو اطلع على دراسات السيد جورج ايفار التي نشرها على أعمدة المجلة الافريقية عام 1913 والتي يبرز فيه أن إبن عثمان خوجة هو أول من رفع الشعار المذكور.

ورغم كل ذلك، فإننا عندما نقرأ للرجلين نجد أن ثمة قواسم مشتركة بينهما نستخرجها من الروح الوطنية الواعية التي كانت تدفع كلا منهما والتحمس اللامحدود الذي كان يطبع تصرفاتهما في التعامل مع القضية الجزائرية. وأكثر من هذا وتلك، فإنهما كانا يشتركان في صفات أهمها الثقافة الواسعة والنضال الهادف والالتزام الحقيقي بقضية الجماهير والعمل الدؤوب من أجل إسترجاع السيادة والكرامة.

ومن الغريب في الأمران أسلوب الرجلين، رغم الفارق الزمني، يكاد يكون واحدا وطريقة المعالجة للمواضيع متشابهة إلى حد لا يكاد يقبل التصديق، فعلى سبيل المثال، جاء في مقدمة المرآة بقلم حمدان: إنني مازلت ابحث بدون جدوى عن مسليات لأبناء وطني، فمصالحهم مجهولة، وآمالهم مغيبة، ولا شفقة عليهم ولا رحمة ولا عدالة، وبالتالي فإنني أتساءل لماذا تزعزع بلادي في جميع أسسها وتصاب في جميع مبادئها الأساسية... إنني لست مرتاح البال، بل على العكس، فإن مصائب بلدي تقلقني بإستمرار. ولقد كنت، في كثير من الأحيان، وأنا أسجل تلك المصائب أجبر على التوقف عن الكتابة لا أترك المجال لدموعي فتنساب.

وبعد حوالي تسعين سنة من نشر هذه المقدمة، كتب الزاهري يقول أرى الجزائر في أنياب بؤس يمضغها مضغا، وأراها في فقر يأكلها أكلا لما واراها بعد ذلك تتخبط في جهالة عمياء وتعمه في ضلال مبين. فلا استطيع لذلك صبرا. أراها كذلك فيذوب لها فؤادي رقة وحزنا وتذهب نفسي عليها تحسرات... أنه

ليكاد يقضي على الكمد ويقتلني الأسى، إذا تذكرت ما كان لوطني من العزة والشرف وما كان له من السيادة على الفرنجة، ثم أراه صار بعد ذلك كله إلى الذلة والهوان.

وإذا كان الزاهري يلتقي، من حيث الهيكلة الذهنية والتكوين السياسي والثقافي، مع حمدان خوجة، فإن وضعه الاجتماعي والمحيط العلمي الذي نشأ فيه يجعلانه قريبا جدا من محمد العيد آل خليفة. فقد حفظ القرآن الكريم وبعد أن تم دراسته الابتدائية تتلمذ على رائد النهضة الاصلاحية الشيخ عبد الحميد بن باديس ثم إلتحق بجامع الزيتونة الذي تخرج منه بشهادة التطويع، وهي آخر ما يمكن أن يحصل عليه الطالب في تونس.

ويقول الزاهري عن نفسه (لما لم يعدلي من غرض اقعد به في تونس رجعت إلى عاصمة الجزائر في سبيل صحيفة وطنية عربية القلم اؤسسها (بعاصمة البلاد) فانشأت جريدة «الجزائر وجعلت شعارها «الجزائر للجزائريين» اصدرت منها أعدادا ثلاثة، لم تصبر الادارة على حرارتها وصدق وطنيتها فعطلتها وشيكا. غير أن العزيمة التي أوجدت «الجزائر» لم يزدها الضغط الاستعماري إلا حدة ومضاء.

لكن قبل تأسيس «الجزائر» كان الزاهري يناضل من خلال صفحات «الاقدام» خاصة في سبيل نشر الوعي الوطني ومؤازرة الأمير خالد في دعوته الرامية إلى محاربة التجنس والمطالبة بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره بنفسه. وتدل كتابات الزاهري وأشعاره على تحكم كبير في اللغة وتشبع بالايديولوجية الوطنية، كما أنها تسمح للدارس المتمعن أن يستخلص بأنه إلى جانب عدد قليل من المناضلين العاملين واحد من الرواد الذين أرسوا قواعد حركة نجم شمال إفريقيا في الجزائر. ففي سنة 1923 ضمن الزاهري أعمدة الأقدام قصيدة بعنوان «أنين الجزائر» نقتطف منها مايلي :

ياللجزائر ممن هاضها، وسطا — حكما عليها، وكانت أمة وسطا
لملكها كانت الأيام صاغرة — أكان أقسط ذلك الملك أم قسطا

كنا إذا منيت بالروع مملكة نمدها، فيبيت الروع منكشطا
لم تعتلق بعظيم قط همتنا إلا انثنينا ولسنا نعرف القنطا

وعندما أصدر «الجزائر» قال في عددها الأول بأنه انما اصدرها لتكمل الرسالة الوطنية التي بدأتها جريدة «الاقدام» التي كتم الاستعمار أنفاسها سنة 1923 . وقد كانت الساحة الثقافية، يومها، تنتظر الكثير من الصحافة نظرا لما كان لصاحبها من أيمان بمبدأ الجهاد في سبيل التحرير ومن قدرة على التعامل مع الجماهير وصدق في التعبير عن طموحاتها فعلى هذا الأساس كتب الامام إبن باديس في العدد الخامس من جريدة «المنتقد» الصادر بتاريخ 1925/7/30 جلا علينا العدد الأول من «الجزائر» فوجدنا بها مقالات بليغة، في متانة تعبير وسمو فكرة، ونبالة مقصد، وثقة ببلوغ الغاية، وجدير بها إذا كان السيد واضعها، أن يكون السعيد طابعها».

وبالفعل لقد كان ذلك العدد الأول لهبا مقدسا، وصرخة عالية، ودعوة صريحة للانطلاقة في النضال من أجل كسر القيود والنهوض بالمجتمع الجزائري قصد تطويره وترقيته بعد تحريره. ومن جملة ما ورد في ذلك العدد قصيدة معبرة للزاهري نقدم منها للقارىء البيتين التاليين :

فيا ويح أحرار الجزائر. كم وكم يهيج عليهم من هموم وبلبال
لقد كسر الناس القيود وحطموا ونحن بقينا في قيود وأغلال

إن انتهاج مثل هذا الأسلوب في نهاية الربع الاول من هذا القرن يعد، بحق، أكبر دليل على وعي الرجل المبكر، وشجاعته واستعداده للتضحية في سبيل إنهاض الشعب الجزائري والأخذ بيده لخوض معركة الكرامة واسترجاع السيادة.

ولم ينل «الجزائر» من الصدور من عزيمة الزاهري، بل زاده إيمانا بقضية شعبه وجعله يلجأ إلى كل الجرائد التي تقبل إنتاجه كاملا وبدون اخضاعه لشتى أنواع الرقابة، وراح يواصل نشر دعوته التي كانت، في ذلك الوقت،

رائدة وتستحق، أن يتوقف الباحث عندها لأنها كانت تحمل في طياتها بذور الحركة الوطنية التي ستلد انتفاضة الثامن من شهر ماي 1945 ثم ثورة نوفمبر العظيمة يوم الفاتح من نوفمبر 1954 . ولندعم ما نقول يكفي أن نورد الأبيات التالية من قصيدة نشرتها له النهضة التونسية في نفس العام الذي ارغمت فيه «الجزائر» على الاختفاء :

إذا كـانـت أعنـاق البـريـة حـرة فأعنـاقنـا مغـلولة فـي السلاسل
وإنـا لمسجونـون وسـط ديـارنا خضوعا لقانون من «الأم» (1) عادل
ولكننا نعي إذا الحـرب شمـرت نقـي «أمنـا» من عاديات القنابل
وقـى «أمنـا» شـبـابنـا وكـهـولنـا وكم خلفوا من أمهات ثواكل (2)

ومـن بعد ذا، شعبي يسام مهانة ويحـرم شعبي مـن حقوق كـوافل
فهـذا لعمر الحـق أهـون حـالنـا فـإن تذهلوا عنه، فلست بذاهل

وعلى شاكلة الأمير خالد، كان الزاهري حر التفكير، وطني التوجه، يبحث دائما، بلا هوادة ولا كلل، عن السبيل الموصلة إلى تخليص أبناء ملته من براثن الاستعمار. ولقد كان مقتنعا بأن المعرفة هي أفضل سلاح لذلك، لكنه لم يكن يفرق بين مختلف مجالاتها بل يعتبر أن السياسة والأدب وعلوم الاجتماع والاقتصاد والدين كلها مكملة بعضها لبعض ولا يمكن لأحدها أن يفيد فائدة إذا كان في معزل عن الباقي.

وقد جند الزاهري قلمه وانذر وقته كله لخدمة هذا الاتجاه، وكعادته، كان ينشر في كل جريدة تتشجع على قبول إنتاجه الناري كما يضعه. وبالاضافة إلى ذلك، أصدر في السابع من مارس سنة 1927 ، بمدينة قسنطينة، أسبوعية ثانية إسمها «البرق».

---

(1) كان الاستعمار يطلق على فرنسا تسمية «الوطن الأم»

(2) يقصد مشاركة الجزائريين باعداد غفيرة في الحرب الامبريالية الأولى وقد تركوا في ميادين المعركة أكثر من ربع مليون قتيل دفاعا عن فرنسا.

وفي نفس تلك السنة نشرت له الشهاب في عددها الصادر بتاريخ 24 ديسمبر قصيدة عبر فيها بعمق عن مدى ذوبانه في الجزائر وفنائه في حبها.

ويلاه، اذهل خاطري عما بي — ما بالجزائر من أليم عذاب
فنسيت من بؤس الجزائر كلما — ألقاه في الدنيا من الأتعاب
وفنيت في حب الجزائر، مثلما — يفني المحب الحق في الأحباب
كيف الخلاص من الجزائر بعدما ملكت علي مشاعري وصوابي
فإذا ضحكت فللجزائر، أو نحبت فلم يكن إلا لها تنحابي

أويت يوما أو ذهبت، ففي — الجزائر مذهبي أبدالها ومآبي
وإذا أصاب بني الجزائر حادث — فهناك عظم بليتي ومصابي

ولم يكتف الزاهري بالكتابة والشعر، فراح يفكر جديا في أنشاء إطار نظامي يمكنه من تعبئة الطاقات الحية لتحقيق أهدافه في توعية الجماهير وتزويدها بالمعرفة. وفي هذا الصدد تجدر الاشارة إلى أنه بدأ يعد في سنة 1928، قانونا أساسيا لبعث ما سماه بحزب الاصلاح الديني. ولقد أشار إلى هذا القانون في حديث كان أجراه مع الشيخ عمر راسم ونشره سنة 1929 بمجلة «الفتح».

«وتكلمنا في الاصلاح الاسلامي، فقلت له أني اشتغل بوضع القانون الأساسي لحزب الاصلاح الديني فإذا فرغت منع عرضته على جماعة الاصلاح وعقدنا اجتماعا عموميا لبحثه وتمحيصه، ثم عرضناه، للموافقة. وأطلعت الشيخ راسما على مجمل هذا القانون، فقال أنه برنامج محكم يمكن بكل سهولة تنفيذه بتدقيق وهو كفيل برد جميع طبقات المسلمين، في الجزائر، إلى القرآن الكريم، وتوحيد كلمتهم عليه وأنه بغير هذا لا يمكن لنا أن نجمع أشتات هؤلاء المسلمين».

من الممكن جدا، أن يكون هذا المشروع هو الذي قاد بعد سنتين من التاريخ المذكور إلى تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كان الزاهري أحد أعضاء مجلسها الاداري الأول البارزين النشطين.

ورغم أن الجمعية تعهدت بعدم تعاطي السياسة والاقتصار فقط على الاصلاح الديني بمعناه الضيق الذي لا يتعدى محاربة الطرقية والخرافات والشعوذة، ونشر العلم والمعرفة في أوساط الجماهير، فإن الزاهري الذي يرفض التخلي عن السياسة قد قبل للاشتراك في الهيأة المديرة معتقدا أن الأيام والظروف القاسية التي يمر بها الشعب الجزائري، يومها، ستساعده على إقناع أغلبية الأعضاء، على الأقل بضرورة خوض معركة شاملة.

وإن مذهبه الشمولي هذا هو الذي جعله يكون في الوقت نفسه عضوا قياديا بجميعة العلماء، ومناضلا بارزا في صفوف نجم شمال إفريقيا الذي كان يؤمن ببرنامجه السياسي ويدعو بشتى الوسائل إلى تطبيقه، ولا غرابة في ذلك، لأن الزاهرى، كما أشرنا سابقا، يعد بكتاباته ومواقفه واحدا من الرواد الذين رفعوا راية الجهاد على كل الجبهات من أجل أن تعود الجزائر للجزائريين ومن أجل أن تتحد أقطار المغرب العربي وتوحد نضالاتها ضد الهيمنة الاستعمارية.

ففي هذا الاتجاه كتب على أعمدة «الوزير» التونسية في شهر مارس سنة 1929. وإذا تم ذلك - وسيتم إن شاء الله - فسيكون كل مفكر في الجزائر أو في تونس أو في مراكش يفكر بالمغرب لا يخصص بعمله الصالح قطرا دون آخر، ويومئذ تتوحد جهودنا التي نجدها لصالح هذه البلاد.

«إن تاريخ المغرب هو تاريخ واحد متصل تمام الاتصال بعضه ببعض، حتى لا يقوم تاريخ تونس مثلا بدون تاريخ الجزائر ومراكش إلا كما يقوم عضو من أعضاء الانسان بدون غيره من بقية الأعضاء... فلنعمل على تقوية الرابطة الاسلامية وأحيائها بين أقطار المغرب الثلاثة، ولنسم أنفسنا أبناء المغرب ولنسع في أحياء مجد المغرب، وفي أحياء مكان للمغرب من أدب وعلم، ولندع إلى الوحدة المغربية، ولنكن نحن أبناء المغرب فخرا للاسلام، كما كان اسلافنا الابرار، ولا نكن عارا عليه، وسبة له».

فهذا البعد هو الذي سيتضمنه بيان الفاتح من نوفمبر، وهذا الطرح الوحدوي هو الذي مازال قائما في أوساط النخبة الواعية إلى يومنا هذا. معنى ذلك أن المسيرة النضالية ظلت متواصلة ولم تعرف الانقطاع وإن كانت لم تجد

طريقها الثابت لتجسيد ما تصبو إليه جماهير الشعب في هذه المنطقة الشاسعة من الوطن العربي.

وإذا تساءل بعضهم، اليوم، عن الأسباب التي جعلت الزاهري، في حديثه عن المغرب العربي، يقتصر فقط على تونس والجزائر والمغرب الاقصى، فإن الجواب في متناول الجميع وهو أن الظرف الاستعماري هو الذي كان يملي ذلك. فسكان شمال إفريقيا الذين تتوفر لديهم أسباب الوحدة أكثر من غيرهم هم الذين يرزحون تحت نير استعمار واحد. أما الأقطار التي كانت تخضع لاستعمارات أخرى مثل الصحراء الغربية التي كان يحتلها الاسبان، وليبيا التي كانت تحت سيطرة إيطاليا، فإن أنضمامها يأتي بعد تحريرها، ولقد كان الزاهري في مقالة نشرها سنة 1936 بمجلة «الرسالة» أشار إلى أن مصر هي المتاخمة لبلاد المغرب. وأن تاريخ هذه البلاد حافل بالشواهد والبينات على أن المغرب يرتبط بمصر منذ العصر الحجري بكثير من راوبط النسب والحضارة والدين :

وإن الـذي هـو مـا بيـننـا ومابيـن مصـر، لمحـض الـنسب
ربـاط العـروبـة يـجـمـعـنـا ويـجـمـعـنـا ديـنـنـا والـحسـب

ولكن هل يمكن أن يبعث من جديد، ماكان بين المغرب ومصر من الروابط وصلات القربى؟ أن هذا السؤال الذي ألقاه أديبنا الفذ منذ أكثر من نصف قرن ما يزال مطروحا ينتظر الجواب.

أما إذا عدنا إلى الجزائر وإلى الحديث عن جمعية العلماء بالذات، فإننا نجد أن الزاهري قد جند قلمه لخدمة الاسلام ونشر فكرة الاصلاح، ولم يتردد، قط، في التصدي لمختلف مشايخ الطرق وعلماء الاستعمار الذين كان يوظفهم في ميادين مختلفة. وكان الامام إبن باديس ثقة كبيرة بكفاءته العلمية وقدرته على الكتابة شعرا ونثرا، ولذلك، فإنه حمله بمعية الشيخ الطيب العقبي رئاسة تحرير جريدتي «السنة النبوية» و«الصراط السوي» اللتين صدرتا في قسنطينة سنتي 1933 و1934.

وخلال كل هذه الفترة ظل الزاهري شاهرا قلمه يحارب البدع والتفرنس،

ويدعو إلى التمسك بالقرآن والسنة والتحصن بالانية والأصالة والاحتماء بالتراث. وقد تسببت له تلك المواقف في كثير من الاعتداءات التي كان اخرها ذلك الذي كاد يؤدي بحياته عندما شج مجهول رأسه بهراوة ثم لاذ بالفرار.

وقد تعرض أبو اليقظان في جريدته «النبراس» إلى الاعتداء المذكور فقال : «ولقد وقع الحادث من موقع الدهشة والاستغراب، بما في طيه من الجرأة والعبث والفساد على الأمم والنظام، سيما حول العلماء والأدباء والكتاب، ونحن وإن كنا نجهل الأسباب الأساسية الباعثة لذلك ولكننا نتحقق أنها مهما كانت فلا نخرج على تحكم القانون إلى تحكيم الهراوة. وما خرجت من الدرجات الأولى إلى الثانية إلا لافلاسها من المحجة والبرهان، وإلا لما عدلت عنها إلى الاعتداء على القانون العام. وفي سبيل الله والأمة ما لاقيت يا زاهري».

ولقد تأكد الزاهري، بعد أربع سنوات من العمل الدؤوب في إطار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أن الاصلاح ، بعيدا عن التكوين السياسي والايديولوجي ، لايكفي لاعداد أجيال الثورة، لأجل ذلك إعتنم فرصة إنعقاد أول مؤتمر للجمعية ليعبر عن تشاؤمه ويبدأ الانسحاب بالتدرج مع التركيز من جديد على النضال في صفوف «نجم شمال إفريقيا» وفي صفوف .«حزب الشعب» من بعده.

ولئن كان الزاهرى قد أعلن، جهرا، عن موقفه، ربما لأنه لم يكن قد تخلى في يوم من الأيام عن النضال السياسي، فإن بعض قادة الجمعية الآخرين قد تأكدوا مثله بأن الدعوة الدينية وحدها لاتجدي. وإذا كانوا لم يتخذوا نفس موقف زميلهم، لأسباب متعددة، فإنهم لم يعودوا يخفون ميلهم ومؤازرتهم لما يسمى في ذلك الحين بالحركة الوطنية.

ومن جملة أولائك القادة السيد أبو اليقظان عميد الصحافيين في الربع الثاني من هذا القرن (أصدر ثماني صحف في الفترة ما بين 1926 و1928) الذي صار يسخر جريدته «الأمة» لنشر مواقف حب الشعب الجزائري والدفاع عنها بكل شجاعة.

لقد إنسحب الزاهري من الهيأة الادارية لجمعية العلماء، لكنه لم يبتعد عن

الاصلاح بل إزداد إيمانا بضرورته لتخليص الشعب من الأوهام وتقريبه من الحقيقة حتى يتحسن واقعه المزري فينهض، عن بصيرة ووعي، لتغييره، ولا يكون التغيير الحقيقي إلا في إسترجاع الاستقلال الوطني.

إن الاصلاح في نظر الزاهري لا يكمن في إعلان الحرب على الطرقية، وقضاء جل الوقت في البحث عن العبارات الجارحة للتراشق بها، كما أنه لا يعني الانغلاق في جو التعليم والتربية دون الاهتمام بالتوعية والتكوين السياسي، بل أن الاصلاح الحقيقي هو الذي يسعى دائما إلى تقريب المسافة بين مختلف الطوائف الشعبية التي لا تزال الرجعية الاستعمارية تنشر بين صفوفها البلبلة والتفرقة والتشاكي والخصام لتشغلها عما تبيته لها من الشر والأذى، كما جاء ذلك في إفتتاحية العدد الأول من «الوفاق».

ويواصل الزاهرى فكرته في العدد الرابع من الجريدة نفسها فيقول: «إن أعداء الاسلام المستعمرين يحملون على الطرقيين والاصلاحيين معا، فلماذا نحن لا نوحد جهودنا لدفع الخطر» وفي العدد السابع يقول: «نحن نبدأ والى الوفاق والسلام بين الاصلاحيين والطرقيين، ونتبع في ذلك نفس المبادىء الثابتة الرشيدة التي أسسنا من أجلها جمعية العلماء التي يحاول بعض المغرضين أن يجعلها آلة مشاغبة وخصام».

وسيظل الزاهرى حاملا هذا الشعار خلال كل الفترة التي تفصل بين المؤتمر الاسلامي والحرب الامبريالية الثانية. وإلى جانب ذلك، كان يشارك في تحرير جريدة «الليالي» ذات النزعة الاصلاحية، وجريدة «الشعب» اللسان المركزي لحزب الشعب الجزائري، وجريدتي «سيدي هنيني والميدان» الوطنيتين.

وكان، فوق كل ذلك، يساهم بانتظام في تزويد الصحافة العربية خاصة في تونس ومصر بمقالات مطولة حول هموم الوطن العربي المتنوعة وقضايا العالم الاسلامي المتعددة.

ويشهد له كبار الأدباء والمفكرين بأنه كان من العمالقة الذين يمتازون ببعد النظر والفكر النير والأسلوب الأخاذ والقدرة على الجمع بين صفتي الصحافي الناجح والكاتب المبدع. وليس أدل على ما نقول من أن مجلة «الفتح» القاهرية اتخذت أكثر من مقالة افتتاحية لها مع العلم أنها كانت مجلة راقية ولا يكتب

افتتاحياتها إلا أمثال شكيب ارسلان ومحب الدين الخطيب ومصطفى صادق الرافعي وغيرهم من العظماء.

ولئن كان نشاط الزاهرى قد اختفى تقريبا طوال فترة الحرب، فإن أعماله الأدبية قد ظهرت من جديد مع عودة حزب الشعب الجزائري، وراحت تتطور مع نفس الاتجاه، تسعى للنفاذ إلى أوساط الجماهير، توجهها وتعبر عن طموحاتها التي تبلورت بالتدريج حول هدف واحد هو الكفاح من أجل استرجاع الاستقلال الوطني.

وإننا لا نبالغ عندما نؤكد أن كثيرا من مقالات الزاهرى ودراساته حول موضوعات خطيرة مثل وحدة المغرب العربي، والاصلاح، والاسلام والمسلمين ما تزال صالحة للنشر وأن نعرف بها أجيالنا الصاعدة للافادة والاستفادة.

النمـوذج الـرابع



الشيخ البشيـر الابــراهيمي

لقد كان لجمعية العلماء دور حاسم في الحفاظ على مقومات الشخصية الجزائرية التي عمل الاستعمار، جاهدا، على تقويضها والقضاء عليها، متبعا في ذلك طرقا متعددة، ابتداء من محاربة اللغة العربية، وتشويه الدين الاسلامي، وإنتهاء بطمس معالم التاريخ الوطني واستبدال أنماط الحياة الأصيلة بأنماط مستوردة خصيصا لتمييع المجتمع، وتجريده من كل ما يمكن أن يصبح في يوم من الأيام بذورا للثورة، أو دافعا للتمرد على ماكان يسمى «بالوطن الأم».

ولقد كان الامام عبد الحميد بن باديس وهو رئيس الجمعية، يحاول دائما أن يقف في وجه دعاة الفرنسية والتجنس والاندماج، ولمقالاته المنشورة بمجلة «الشهاب» وجريدة «البصائر» في هذا الصدد، أثر طيب في إيقاف حملة التسميم التي جندت لها فرنسا من أسمتهم، آنداك، بالنخبة، والذين كان فرحات عباس من أبرز أقطابهم.

إن النخبة التي «فتشت عن القومية الجزائرية في بطون التاريخ فلم تجد لها من أثر، وفتشت عنها في الحالة الحاضرة فلم تعثر لها على خبر(1)، لم تكن واعية لما كانت تقوم به من أفعال تسيء لشعبها، بل أنها كانت، بفعل ثقافتها الغربية، في شبه غيبوبة كان لابد من تضافر مفعول مقالات إبن باديس، ومواقف مسؤولي الحركة الوطنية، ورد فعل سلطات الاستعمار في الجزائر، لتتخلص منها، ولتضع إمكانياتها في خدمة مصالح الجماهير المحرومة المضطهدة.

إن جمعية العلماء قد وقفت، بكل شجاعة، في وجه سلطات الاحتلال، العاملة، بكل الوسائل، على محو آثار لغة القرآن، وبذلت كل ما في وسعها لجمع فئة قليلة من المعلمين «الأحرار»(2) المستعدين للاستمرار في المقاومة من

---

(1) عبد الحميد بن باديس، مجلة الشهاب، عدد أفريل سنة 1936، ص 45 وما بعدها.

(2) يعني بهم المعلمون المستقلون عن الادارة الفرنسية، وقد كانت التنظيمات الوطنية المختلفة هي التي تدفع لهم أجورهم.

أجل نشر المبادىء الأولية للقراءة، ولحماية ما تبقى من أصول الدين وعناصر الشخصية الوطنية.

وإلى جانب مجموعة المدارس «الحرة» (1) التي كانت ميزانيات تسييرها وتجهيزها تجمع من تبرعات المواطنين الميسورين، جندت الجمعية مجلة «الشهاب» وجريدة «البصائر» لاحباط بعض الاجراءات والتدابير المتخذة لمحاربة التعليم العربي في الوطن الجزائري.

ومن الجدير بالذكر، أن الحكومة الفرنسية لم تقابل نشاطات جمعية العلماء بالسلام والابتسام، ولكنها شنت عليها حربا عوانا استهدفت أعضاءها ومعلميها وكذلك بعض المحبين الذين كانوا يساهمون ماديا في بناء المدارس والنوادي في مختلف أنحاء البلاد.

ولم تكن الحرب مقصورة على استصدار قرارات منع التعليم، وغلق المدارس، بل أنها كثيرا ما تتعدى إلى ملاحقة المدرسين وتغريمهم وحبسهم ومضايقتهم بكل الوسائل، قصد إبعادهم عن النضال الذي آمنوا بجدواه، فوهبوه أنفسهم وهي أغلى ما يملكون (2).

وإذا كان معلمو جمعية العلماء لم يستسلموا لتلك الضغوط، وقصدوا السجون بأعين قريرة لأنهم دخلوها في سبيل مبدأ شريف، فإن أفراد الشعب الجزائري قد واجهوا تلك الحرب بتحدي، فكانوا كلما أغلقت مدرسة سارعوا إلى استبدالها بغيرها، أو بأكثر منها.

وكانت نتيجة ذلك الصراع الطويل، نتيجة إيجابية تمثلت في إقامة المدارس (3) الحرة التي تخرج منها آلاف المواطنين الذين كانوا، على الرغم من قلة زادهم العلمي، يتمتعون بروح وطنية، وجدت غذائها في شعار عبد الحميد بن باديس الخالد: «الاسلام ديني، العربية لغتي والجزائر وطني» (4).

---

(1) هي المدارس التي تتولى الجمعيات والأحزاب السياسية اقامتها مستقلة عن الادارة الاستعمارية وبهذه المدارس يشتغل المعلمون الأحرار.

(2) إن مجرد نظرة سريعة على مختلف اعداد «البصائر» لسنة 1948. قد أفادتنا بأن عدد المعلمين المحكوم عليهم بتهمة التعليم «الحر» بلغ في تلك السنة وحدها، حوالي ثلاثين معلما ومديرا.

(3) بلغ عدد المدارس الحرة التابعة لجمعية العلماء 136 مدرسة في سنة 1950.

(4) يذكر الأستاذ توفيق المدني أن هذا الشعار له، وهو خطأ لاحظه كل معاصر فاستنكر على الاستاذ زعمه.

صحيح أن جمعية العلماء لم تشارك مباشرة في سائر النشاطات السياسية ويعزى بعضهم ذلك لأسباب نستطيع حصر أهمها فيما يلي :

1) إن رئيسها، الامام إبن باديس، قد توفي في بداية الحرب الامبريالية الثانية، وبذلك لم تتح له فرصة الاستفادة من تطور الأوضاع السياسية خاصة وأن عدد المحبين والأنصار قد تزايد على مر الأيام والسنين.

ومما لا شك فيه أن عبد الحميد بن باديس كان يتحلى بصفات الزعيم السياسي، وبوفاته، فإن الجمعية فقدت حظوظها في إمكانية التكيف مع الأوضاع الجديدة التي ساعدت على خلقها شعارات أمثال الرئيس الأمريكي «ولسن» (1).

2) إن جل خلفاء ابن باديس لم يكونوا على شاكلته مدفوعين فقط بحب الجزائر وخدمة الثقافة العربية الاسلامية، مستعدين للتضحية القصوى من أجل انتصار المبادىء الأساسية التي بنيت عليها جمعية العلماء، لذلك وجدناهم يقصرون نشاطهم على ميادين التعليم بل أن بعضهم قد وقف في كثير من الأحيان، ضد التلاميذ المناضلين في صفوف الحركة الوطنية ومنعوهم من مواصلة التعليم في كافة المؤسسات التابعة للجمعية، كما لو كان الدين الاسلامي وتعلم اللغة العربية لا يتلاءمان مع ممارسة السياسة (2).

3) إن معظم قادة جمعية العلماء، بعد إبن باديس، لم يكونوا قد بلغوا من النضج والتكوين ما يسمح لهم بعدم فصل الدين عن السياسة لذلك رأيناهم يعملون، صادقين في سذاجتهم، على منع تلاميذهم من تعاطي السياسة بعد أن اعتزلوها عن محض إرادتهم باعتبار أنها من إختصاص مناضلي الحركة الوطنية.

والواقع أن هذه مجرد ادعاءات لها ما يبطلها، نأخذه من حياة الجمعية وبعض ما كتبه الشيخ البشير الابراهيمي خاصة.

---

(1) على غرار ما فعل في السيد فرحات عباس.

(2) حدثنا في هذا الموضوع عدد كبير من التلاميذ الذين وقعوا ضحية لهذا الاجراء كما أننا وجدنا نفس هذه المعلومات عند بعض المعلمين أنفسهم.

إننا لا نريد هنا أن نقيم ما قامت به الجمعية من نشاط في جميع المجالات، ولكن ذلك لا يمنعنا خلافا عما تعودنا سماعه أن نؤكد أن جمعية العلماء هيئة تعليمية وإصلاحية، ولكنها كذلك سياسية وإجتماعية في آن واحد.

ولقد ورد في العدد الثالث من جريدة البصائر الصادرة بتاريخ 1947/4/5 ما يمكن اعتباره برنامج عمل سياسي.

إن الجمعية كما جاء في المقال، تدافع عن الذاتية الجزائرية التي هي عبارة عن العروبة والاسلام مجتمعين في وطن. هذا من ناحية النضال الداخلي، أما بالنسية للسياحة الخارجية، فإن عمل الجمعية مركز على تمكين أخوة الاسلام وتقوية روابط العروبة.

لقد كان المقال المذكور بقلم الشيخ البشير الابراهيمي الذي نورده في هذه الدراسة كواحد من النماذج الحية للمثقفين الرواد الذين ساهموا بقسط وافر في الاعداد لثورة نوفمبر.

وسنحاول بقدر الامكان أن نتعرض لبعض جوانب هذه الشخصية التي يجمع الراسخون في العلم على أنها كانت ظاهرة ثقافية فذة.

جاء الشيخ البشير إلى هذه الدنيا قبل نهاية القرن الماضي بإحدى عشرة سنة، فعاش وهو طفل مجموعة من الأحداث التي سيكون لها تأثير بالغ على تسيير الأحداث السياسية في الجزائر طيلة الربع الأول من قرننا هذا.

ومن جملة الأحداث تلك الاجراءات التعسفية التي إتخذها الوالي العام تيرمان للاجهاز على الثقافة الوطنية ولتوسيع رقعة الاستبداد الأوربي عن طريق تكثيف عمليات سلب الأراضي الخصبة من أصحابها الجزائريين ووضعها تحت تصرف الكولون. والغريب أن تيرمان كان يعتقد أن سلوكاته تخدم «الأهالي» (1) وتسهم في تحسين مستواهم وتوفير الشروط اللازمة لترشيدهم. لكن الأكثر غرابة هو أن وزير الداخلية في ذلك الحين كان معجبا بتصرفات الوالي العام، ولم يبق عند حدود الاعجاب بل تعدى ذلك إلى التصريح أمام مجلس الشيوخ في اليوم الرابع من شهر مارس سنة واحد وتسعين وثمانمائة وألف قائلا : أن

---

(1) كان الاستعمار يطلق على الجزائريين تسمية الأهالي.

الكولون ليسوا فلاسفة يهاجرون لفعل الخير، لكنهم أناس يبحثون عن المال. . . ولا اعتقد أننا، نحن الفاتحين مطالبون بخدمة مصالح الأهالي. . . فإذا استطعتم، بمواقفكم، الابقاء على سمعتكم فإنهم سيرضون بكل ما تعطونهم (1).

ودائما في ذلك العقد الأخير من القرن الماضي درس مجلس الشيوخ الفرنسي تقرير النائب صاباتي الذي قدمه بإسم اللجنة الخاصة التي أوفدت إلى الجزائر قصد البحث عن انجع الحلول للمشاكل السياسية والاجتماعية. يلح التقرير المذكور على أن تأييد السيطرة في الجزائر يتطلب من الحكومة الفرنسية إتباع ثلاث سياسات مختلفة احداها تكون خاصة «بالقبائل» الذين يجب التركيز على تمسيحهم وفرنستهم والثانية تخصص للتعامل مع «الشاوية» الذين هم مزيج من الأجناس، وتوجه السياسة الثالثة للعرب (2) ويذكر التقرير أن هذه الطريقة في الحكم ستساعد على زرع الشقاق والانقسامات في أوساط الجزائريين الذين لا يمكن أن يكون اتحادهم لصالح السياسة الكولونيالية.

إن الحديث عن العشرية الأخيرة من القرن التاسع عشر يبقى ناقصا مالم يتعرض المرء بإيجاز إلى الحرب القاسية التي تعرض لها الفلاحون الجزائريون في مختلف أنحاء البلاد، لقد بلغت تلك الحرب أوجها سنة 1898 حسب ما جاء في تقرير رفعه إلى مجلس الحكومة المستشاران بوفاني ومولر.

تتمثل الحرب المذكورة في قيام الادارة الكولونيالية بالاستحواذ على كل الغابات وتكليف الحراس بمنع الجزائريين من استثمارها ومن إستعمال المراعي المجاورة لها. وأمام هذا التعسف قرر بعض الفلاحين الجزائريين تحويل أراضيهم الزراعية إلى مراعي، لكنهم عندما فعلوا طردوا منها وفقا للقانون الذي يمنعهم من إستعمال المراعي المجاورة للغابات، وحينما حاول بعضهم أن يعيد لارضه صفتها الزراعية قصد حمايتها من التأميم تعرض إلى عقوبات مالية

يذكر عددا منها مقرر لجنة الميزانية السيد لوموان في تقريره الذي قدمه في شهر ديسمبر سنة ثمان وتسعين وثمانمائة وألف.

يقول السيد لوموان الذي ادهشته معاملة الكولون للفلاح الجزائري «أنني عثرت على عدد هائل من الملفات التي تشتمل على قضايا سميت جنحا وماهي بذلك، اذكر منها على سبيل المثال :

أ ـ الجنحة رقم 523 التي يؤخذ على صاحبها أنه حرث قطعة أرض مكونة من أربعة هكتارات بعد أن كان حولها إلى مرعى. وقد سلط حارس الغابات على الفلاح المسكين غرامة قدرها ألفي فرنك، ولما لم يتمكن من الدفع أرغم على تعويض ذلك بالشغل مدة ثلاثة عشر ومائة يوم ونصف يوم لفائدة الدومين (1).

ب ـ الجنحة رقم 524 التي إتهم صاحبها بأنه حرث ثلاثة هكتارات وحكم عليه حارس الغابات بأن يشتغل لفائدة الدومين مدة ستة وثمانين يوما.

ج ـ الجنحة رقم 525 التي اتهم صاحبها بأنه حرث خمسة هكتارات، وحكم عليه حارس الغابات بأن يشتغل لفائدة الدومين ثلاثة عشر ومائة يوم وثلاثة أرباع اليوم.

في مثل هذه الظروف المتردية ولد محمد البشير الابراهيمي وقضى طفولته الأولى، ولقد ساعده الحظ إذ كانت تنشئته في بيت عرف بالعلم وتعليمه بقرية لاتبعد كثيرا عن مدينة سطيف. يقول هو نفسه : «بدأت حفظ القرآن الكريم في الثالثة من عمري على التقليد المتبع في بيتنا الشائع في بلدنا، وكان الذي يعلمنا الكتابة ويلقننا حفظ القرآن جماعة من أقاربنا ويشرف علينا إشرافا عاليا عالم البيت بل الوطن كله في ذلك الزمان عمي، شقيق والدي الأصغر الشيخ محمد المكي الابراهيمي رحمه الله، وكان حامل لواء الفنون العربية بغير مدافع، من نحوها وصرفها واشتقاقها ولغتها. أخذ كل ذلك عن البقية الصالحة من علماء هذه الفنون بأقليمنا، منهم العلامة المتقن الشيخ ربيع اليعلاوي ومنهم العلامة الشيخ محمد أبو القاسم البوحليلي، ومنهم العلامة

---

(1) هي أملاك الدولة الفرنسية التي إستحوذت عليها بالقوة بعد أن كانت ملك لأصحابها أو وقفا على مساجد وزوايا مختلفة.

الشيخ محمد أبو جمعة القلي خاتمة المتبحرين في العربية والفقه. ولم يكن هؤلاء العلماء رحلوا إلى الامصار الكبرى ذات الجامعات العلمية التاريخية كفاس وتونس والقاهرة، وإنما كانوا يتوارثون العلوم الاسلامية طبقة عن طبقة إلى الاجيال المتخرجة من مدن العلم الموجودة بوطننا كبجاية وقلعة بني حماد وكلتاهما قريبة من موطننا، وكلتاهما كانت منارة للعلم ومهجرا لطلابه، ومطلعا لشموسه».

فلما بلغت سبع سنين استلمني عمي من معلمي القرآن، وتولى تربيتي وتعليمي بنفسه فكنت لا أفارقه لحظة حتى في ساعات النوم، فكان هو الذي يأمرني بالنوم، وهو الذي يوقظني منه، على نظام مضطرد في النوم والأكل والدراسة. وكان لا يخليني من تلقين حتى حين اخرج معه وأماشيه للفسحة. فحفظت فنون العلم المهمة في ذلك السن مع إستمراري في حفظ القرآن، فما بلغت تسع سنين من عمري (1898) حتى كنت احفظ القرآن مع فهم مفرداته وغريبه» (1).

وعندما إلتحق العم بالرفيق الأعلى، كان البشير قد بلغ من العمر أربع عشرة سنة وظف معظمها في التحصيل الجيد والدراسة الهادفة مما جعله وهو في تلك السن المبكرة قادرا على تعليم ما تعلم. وبالفعل شرع في التدريس مكان العم الراحل، واستطاع أن يجمع حوله العديد من الطلبة الوافدين من جهات مختلفة. وقد كتب بقلمه «ودمت على تلك الحال إلى أن جاوزت العشرين من عمري فتاقت نفسي إلى الهجرة إلى الشرق، واخترت المدينة المنورة، لأن والدي سبقني إليها سنة ثمان وتسعمائة وألف فرارا من ظلم فرنسا، فالتحقت به متخفيا أوائل سنة اثنتي عشرة وتسعمائة وألف كما خرج هو متخفيا» (2).

إن الظلم الذي يشير إليه الابراهيمي يتمثل، بالنسبة لتلك الفترة، في آثار الاعتداءات التي كان يتعرض لها الفلاحون الجزائريون من طرف حراس الغابات الذين كانوا ينفذون رغبات الكولون الهادفة إلى تجريدهم بالتدريج من

---

(1) المقالة التي كتبها بمناسبة تعيينه عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة. أنظر الثقافة. العدد 87، ص: 12.

(2) نفس المصدر، ص: 14

كل ما يملكون بما في ذلك الكرامة التي هي أغلى ما عندهم. وفي مستهل القرن الحالي ابتدع الاستعمار أداة جهنمية جديدة هي المحاكم القمعية والمحاكم الجنائية الخاصة بالجزائريين.

أما الأولى فقد أنشئت بمقتضى مرسوم صدر في اليوم الثامن والعشرين من شهر مارس سنة إثنتين وتسعمائة وألف وكمله مرسوم آخر يحمل تاريخ الثامن والعشرين من شهر ماي من نفس السنة ومهمة هذه المحاكم هي النظر في قضايا الجزائريين الجزائية. يرأسها قاضي الصلح وهو فرنسي، بمساعدة عدلين يعينهما الوالي العام (الأول من بين الموظفين أو الأعيان الفرنسيين والثاني من بين الموظفين أو الأعيان الجزائريين) ويتولى التحقيق في هذه المحاكم المتصرف الفرنسي الذي هو عادة من ضباط المخابرات. أما الاحكام الصادرة عنها فهي نهائية وغير قابلة للاستئناف إذا كانت بالحبس لمدة تقل عن سنة أشهر.

فبهذه الكيفية أصبح في استطاعة الكولون على اختلاف أجناسهم أن يسجنوا من أرادوا من الجزائريين. يكفي فقط أن تلفق التهمة وأن يتم الاتفاق مع المحقق.

وإذا كان هناك من الفرنسيين من استنكر إنشاء المحاكم القمعية لما تشكله من مخالفة للقانون فإن الرأي العام الأوربي قد رأى في ذلك وسيلة لحماية المكتسبات وللوقاية مما قد يحدث من انتفاضات وثورات. كتبت لاديباش آلجيريان «أن زمن العطف والرحمة قد ولى، وأقدم عهد الشدة التي لابد منها».

وأما المحاكم الجنائية، فإنها أنشئت بمقتضى قانون صدر في اليوم الثلاثين من شهر مارس سنة إثنتين وتسعمائة وألف، وقد جاء ذلك نتيجة لاحتجاجات الفرنسيين الذين استكبروا أن يخلط بين الأوربيين والجزائريين حتى ولو كانت الجريمة واحدة، ولما ارتفعت بعض الأصوات المتحررة للتنديد بإستحداث المحاكم الجديدة كان الجواب على السنة عدد من النواب العامين (رعاة القانون وحماة الصالح العام) «إنّ المحلفين لا يهتمون بالجرائم التي يرتكبها العرب ضد بعضهم، لكنهم لا يتساهلون مع سارقي أغنام الكولون ومرتكبي الأحداث ضدهم» لأجل كل ذلك صار ضروريا فصل المحاكم التي تنظر في الجرائم التي يرتكبها الاوربيون عن تلك التي تنظر في الجرائم التي يرتكبها الجزائريون، مع

العلم أن جرائم هؤلاء الاخيرين تبدأ من مجرد تفكيرهم في الدفاع عن حقوقهم أو صيانة كرامتهم.

ولئن كان إنشاء هذه المحاكم قد أثلج صدور الأوربيين، فإنه أدخل الرعب على الجزائريين الذين راح عدد كبير منهم يطلب الخلاص في الهجرة إلى بلاد المشرق العربي والحجاز بصفة خاصة.

ونحن نعتقد أن الشيخ البشير عندما هاجر، بدوره، إنما كان يحمل في نفسه الشيء الكثير من ظلم الاستعمار الذي تضاعف عندما ظهرت إلى الوجود المشاريع والمشاريع المضادة الخاصة بفرض التجنيد الاجباري على كل الجزائريين. وضع المشروع الأول سنة سبع وتسعمائة وألف وكان المقصود منه تمكين الدولة الفرنسية من تجنيد أكبر عدد ممكن بأقل التكاليف. فالتعويضات التي كانت تعطي سنويا للمتطوع الواحد تكفي لتسديد المرتبات السنوية التي يتقاضاه أربعة مجندين.

وبعد أخذ ورد نتيجة تأييد ومناهضة الفكرة من طرف مختلف الفيآت الأوربية شرع مع بداية العام الموالي في إحصاء الشباب الذي بلغ سن الجندية.

وقد ترتبت عن مجرد القيام بعملية الاحصاء أحداث خطيرة تمثلت في تنظيم المظاهرات عبر شوراع بعض المدن مثل تلمسان وندرومة وسوق أهراس وخنشلة وبرج بوعريريج والقل، وأدت العملية من جهة أخرى، إلى هجرات جماعية تمت خفية في إتجاه بلاد الشام خاصة (1).

وصل الشيخ إلى المدينة المنورة في أواخر سنة إثنتي عشرة وتسعمائة وألف بعد أن قضى حوالي عام في القاهرة يدرس على إبرز مشايخ الأزهر ويتعرف على مشاهر العلماء والأدباء هناك وكان من تدابير الأقدار الالهية للجزائر، ومن مخبئات الغيوب لها أن يرد الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى المدينة بعد ذلك بسنة واحدة. وتم التعارف بين الشيخين وتدعمت الأواصر بينهما. يقول الشيخ

(1) نذكر على سبيل المثال إن قائد أولاد شولي التابعة لبلدية سبدو غادر البلاد فجأة سنة 1910. ومعه سبعة وعشرون شخصا، وعندما وصل إلى دمشق كتب عدة رسائل يستحث فيها معارفه للالتحاق به مؤكدا لهم بأن الحكومة العثمانية تعطي ثلاثين هكتارا من الأرض الصالحة لكل مهاجر، انظر جرون ص: 1087.

البشير في هذا الصدد «كنا نؤدي فريضة العشاء الأخيرة كل ليلة في المسجد النبوي ونخرج إلى منزلي فنسمر منفردين إلى آخر الليل يفتح المسجد مع أول داخل لصلاة الصبح، إلى نهاية ثلاثة أشهر التي أقامها الشيخ بالمدينة المنورة.

«كانت هذه الأسمار المتواصلة كلها تدبيرا للوسائل التي تنهض بها الجزائر ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضات الشاملة. وشهد الله على أن تلك الليالي هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي لم تبرز للوجود إلا في سنة 1931» (1).

ظل الشيخ البشير في المشرق العربي مدة أطول مما كان يتصور، وذلك مراعاة لرغبة والده ونظرا لتطور الظروف السياسية والعسكرية بطريقة لم تكن متوقعة سنة ثلاث عشرة وتسعمائة وألف عندما وعد صديقه الشيخ إبن باديس باللحاق به في أقرب الآجال.

ويمكن اعتبار العقد الثالث من القرن العشرين هو فترة المخاض الصعب الذي سبق ولادة جمعية العلماء. لقد كان كل من الشيخين ينشط في مدينته ويلتقيان بانتظام في كل شهر مرة أو مرتين يقيمان أعمالهما ويخططان للمستقبل آخذين في الاعتبار الطوارىء والمستجدات وكذلك الامكانيات التي كانت تتزايد باضطراد ويبشر نموها السريع بحتمية الوصول إلى عهد النهضة الذي يهيء عادة للتغيير الجذري ويعبد الطريق للرقي والازدهار.

وبعد تأسيس الجمعية توزع أقطابها على المدن الكبرى في البلاد. وكان حظ البشير تلمسان ليجعل منها مركز إشعاع بالنسبة للغرب الجزائري كله (2) ومنطلقا للحركة الاصلاحية والعلمية في المقاطعة.

وفي وقت قصير نسبيا انتشرت الفكرة الاصلاحية وانشئت مدرسة دار الحديث التي تعتبر انجازا علميا جديرا بالتقدير والاحترام.

وإلى جانب الدروس التي كانت تهدف إلى تعليم أكبر عدد ممكن من أبناء الجزائر وتنشئتهم على حب الاسلام والوطن، كان الشيخ ينظم سنويا، زيارات

---

(1) انظر الثقافة. العدد 87، ص: 19

(2) ينص التقسيم على أن الامام إبن باديس، يحتفظ بمقاطعة قسنطينة في حين يتولى الشيخ الطيب العقبي مقاطعة الجزائر العاصمة.

إلى «الاقليم الوهراني مدينة وقرية» (1) للوغظ والارشاد وللاتصال بالجماهير قصد التنبيه والتوعية.

ولم يكن ذلك النشاط ليرضي السلطات الاستعمارية التي اغتنمت فرصة نشوب الحرب الامبريالية الثانية فاصدرت قرارا يقضي بنفي الشيخ إلى الصحراء. وفي منفاه الذي نقل إليه في عاشر مارس سنة أربعين وتسعمائة وألف تلقى نبأ وفاة الرئيس الأمام عبد الحميد بن باديس واجتمع المجلس الاداري، وبالاجماع انتخبه ليبقى رئيسا للجمعية إلى غاية سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف.

لم تكن أعباء الرئاسة سهلة خاصة إذا كان القيام بها من المنفى، ومع ذلك، فإن البشير ظل يدير الجمعية ويوجه أعمالها بواسطة الرسل والمراسلات حتى أطلق سراحة بعد ثلاث سنوات من الابعاد.

وبعد الخلاص من المنفى، استأنف الشيخ تحركاته عبر مختلف أنحاء البلاد يدعو إلى المدارس ومحاربة الشعوذة إلى جانب إلقاء المحاضرات والدروس في المساجد والنوادي. ويقول بهذا الصدد أنه أنشأ في سنة واحدة ثلاثا وسبعين مدرسة في مدن وقرى القطر كله، بأموال الأمة وأيديها (2).

وعلى إثر إنتهاء الحرب الامبريالية الثانية، قررت الجمعية بعث جريدة البصائر من جديد، وتولى الشيخ بنفسه إدارتها ورئاسة تحريرها. ومن خلال أعمدة تلك الجريدة راح يعالج، بقلم سيال وفكر نير موضوعات إجتماعية وثقافية وسياسية نورد فيمايلي بعضا منها على سبيل المثال وحتى يأخد القارىء فكرة عن طريقة الرجل في تربية النشىء وتوجيهه الوجهة التي تمكنه من استعادة عناصر شخصيته الوطنية ومن الاستعداد لليوم الذي ينادي فيه منادي الجهاد في سبيل الخلاص من السيطرة الاجنبية :

1 ـ موضوع الأمة.

لقد اختط إبن باديس الطريق في معالجة هذا الموضوع عندما صرخ في وجه دعاة الاندماج والفرنسة والتجنيس :

---

(1) انظر الثقافة العدد 87، ص : 26

(2) انظر الثقافة العدد 87، ص : 28

وعندما كتب في رده على السيد فرحات عباس (1) «إننا نحن فتشنا في صحف التـاريخ وفتشنـا في الحـالـة الحاضرة فوجدنا الامة الجزائرية المسلمة متكونة موجودة، كما تكونت ووجدت كل الأمم. ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال؟ ولها وحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها واخلاقها بما فيها من حسن وقبيح شأن كل أمة في الدنيا، ثم أن هذه الأمة الجزائرية الاسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عناصرها وفي دينها.

أمـا الشيخ البشـير الابراهيمي فإنه يريد أن تكون الأمة الجزائرية عربية مسلمـة كما هو قسمهـا في القـدر، وحـظها في التاريخ، وحقها في الارث، وحقيقتها في الواقع والمصطلح، ويرفض لها أن تكون كما يريد لها الاستعمار «هيكلا لا تترابط أجزاؤه، ولا تتماسك اعضاؤه (2) ويرى أن من اختصاصات جمعية العلماء تحرير الجـــ من الأوهام والضلالات في الدين والدنيا، وتحرير النفـوس من تأليه الأهواء والرجال. . . فبذلك التحرير يكون توحيد الميول المختلفة والمشارب المتباينة والنزاعات المتضاربة وتوقظ في الأمة قوة التمييز بين الصالح من الرجال والصحيح من المبادىء وبين الطالح والزائف منها، وتزرع البذرة الأولى لما يسمى الرأي العام في الجزائر.

ولا توجـد الأمـة إلا بتثبيت مقـومـاتها من جنس، ولغة، ودين، وتقاليد صحيحـة، وعـادات صالحـة، وفضائل جنسية أصيلة، وبتصحيح عقيدتها وإيمانها بالحياة، وبـتربيتهـا على الاعتداد بنفسها، والاعتزاز بقوتها المعنوية، والمغـالات بقيمتها وبميراثها، وبالامعان في ذلك كله حتى يكون لها عقيدة راخسة تناضل عنها، وتستميت في سبيلها، وترى أن وجود تلك المقومات شرط

---

(1) كان السيد فرحات عباس قد كتب «ولو أنني اكتشفت الأمة الجزائرية لغدوت إنسانا وطنيا. لقد سألت التاريخ وسألت الأحياء والأموات، وزرت المقابر ولم يحدثني أحد عن هذا الوطن».

(2) نفس المصدر.

لوجودها فإذا إنعدم الشرط إنعدم المشروط، ثم يفيض عليها من مجموع تلك الحالات الهام لا يغالب ولا يرد بأن تلك المقومات متى اجتمعت تلاحقت، ومتى تلاحقت ولدت وطنا.

2) الشباب :

لقد كان الشيخ البشير الابراهيمي يقدر قيمة الشباب حق قدرها ويدرك أنه الطاقة الخلاقة التي سيكون عليها الاعتماد للنهوض بالمجتمع الجزائري والخروج به من حالة الركود والتبعية إلى حالة اليقظة والوعي الذي يسبق التغيير.

فالشباب الذي يستطيع القيام بهذا الدور يجب أن تتوفر فيه شروط معينة جمعها الشيخ في مجموعة من المقالات، نعتقد أنه أعدها ونشرها في صيغة افتتاحيات بجريدة البصائر سنة سبع وأربعين وتسعمائة وألف لتكون دليلا يرتكز عليه المعلمون الاحرار في تربية النشىء وإعداده للمهمة المنتظر منه القيام بها.

ونظرا إلى أنه ليس ممكنا، في هذه المناسبة، تحليل هذه المقالات أو تلخيصها، فإننا نوردها كما جاءت حتى يأخذ القارىء فكرة عن الأسلوب المستعمل.والطريقة المتبعة في معالجة موضوع هو من أخطر ما تعرفه الأمم النامية.

يقول الشيخ في تصوره لشباب المستقبل :

أتمثله متساميا إلى معالي الحياة، عربيد الشباب في طلبها، طاغيا عن القيود العائقة دونها، جامحا عن الاعنة الكابحة في ميدانها، متقد العزمات، تكاد تحتدم جوانبه من ذكاء القلب، وشهامة الفؤاد، ونشاط الجوارح.

أتمثله مقداما على العظائم في غير تهور، محجاما عن الصغائر في غير جبن، مقدرا موقع الرجل قبل الخطو، جاعلا أول الفكر آخر العمل.

أتمثله واسع الوجود، لا تقف أمامه الحدود، يرى كل عربي أخا له أخورة الدم، وكل مسلم أخا له، أخوة الدين، وكل بشر أخا له، أخوة الانسانية، ثم يعطي لكل أخوة حقها فضلا أو عدلا.

أتمثله حلف عمل، لا حليف بطالة. وحلس معمل، لا حلس مقهى، وبطل أعمال، لا ماضغ أقوال، ومرتاد حقيقة، لا رائد خيال.

أتمثله برا بالبداوة التي أخرجت من أجداده أبطالا، مزورا عن الحضارة التي (رمته بقشورها)، فأخرجت أعصابه، وأنثت شمائله، وخنثت طباعه، وقيدته بخيوط الوهم، ومجت في نبعه الطاهر السموم، وأذهبت منه ما يذهب القفص من الأسد من بأس وصولة.

أتمثله مقبلا على العلم والمعرفة ليعمل الخير والنفع، إقبال النحل على الأزهار والثمار لتصنع الشهد والشمع، مقبلا على الارتزاق، إقبال النمل تجد لتجد، وتدخر لتفتخر، ولا تبالي مادامت دائبة، أن ترجع مرة منجحة ومرة خائبة.

أتمثله محمدى الشمائل، غير صخاب ولا عياب، ولا مغتاب ولا سباب، عفا عن محارم الخلق ومحارم الخلق، مقصور اللسان إلا عن دعوة إلى الحق، أو صرخة في وجه الباطل، متجاوزا عما يكره من اخوانه، لا تنطوي أحناؤه على بغض ولا ضغينة.

أتمثله متقلبا في الطاهرين والطاهرات، ارتضع أفاويق الاصلاح صبيا، وزرت غلائله عليه يافعا، فنبتت في حجرة، ونبتت قوادمه في وكره، ورفرفت أجنحته في جوه، لم يمسسه زيغ العقيدة، ولا غشيت عقله سحب الخرافات، بل وجد المنهج واضحا فمشى على سوائه، والاعلام منصوبة، فسار على هداها، واللواء معقودا، فأوى إلى ظله، والطريق معبدا، فخطا آمنا من العثار: فما بلغ مبلغ الرجال إلا وهو صحيح العقد في الدين، متين الاتصال بالله، مملوء القلب بالخوف منه، خاوى الجوانح من الخوف من المخلوق، قوى الايمان بالحياة، صحيح النظر في حقائقها، ثابت العزيمة في المزاحمة عليها، ذلق اللسان في المطالبة بها، ناهض الحجة في الخصومة لأجلها، يأبى أن يكون حظه منها الأخص الاوكس، أمن بعقله وفكره أن يضلل في الحياة كما أمن بهما أن يضلل في الدين.

«وفي الحياة كما في الدين تضليل»

يا شباب الجزائر!

ما قيمة الشباب؟ وإن رقت أنداؤة، وتجاوبت أصداؤه، وقضيت أوطاره

وغلا من بين أطوار العمر مقداره، وتناغت على أفنان الأيام والليالي أطياره، وتنفست عن روح الربيع أزهاره، وطابت بين انتهاب اللذات واقتطاف المسرات أصائله وأسحاره.

بل ما قيمة الكهولة؟ وإن استمسك بنيانها، واعتدل ميزانها، وفرت عن التجربة والمراس أسنانها، ووضعت على قواعد الحكمة والأناة أركانها.

بل ما قيمة المشيب؟ وإن جلله الوقار بملأته، وطواه الاختيار في عباءته، وامتلأت من حكمة الدهور، وغرائب العصور، حقائبه، ووصلت بخيوط الشمس، لا بفتائل البرس، جماته وذوائبه.

ما قيمة ذلك كله؟ إذا لم تتفق دقائقه في تحصيل علم، ونصر حقيقة ونشر لغة، ونفع أمة، وخدمة وطن.

ياشباب الجزائر هكذا كونوا . . . أو لا تكونوا . . .

أتمثله كالغصن المروح، مطلولا بأنداء العروبة، مخضوضر اللحا والورق مما امتص منها، أخضر الجلدة والأثار مما رشح له من أنشابها وأحسابها، كأنها أنبتته رمال الجزيرة، ولوحته شمسها، وسقاه سلسالها العذب، وغذاه نبتها الزكي. فيه مشابه من عدنان تقول أنه من سرها لكم أو سرة مخزوم، ومخايل من قحطان تقول كأنه ذو سكن، في السكن، أو ذو رضاعة، في قضاعة متقلبا فن المنجبين والمنجبات، كأنما ولدته خندف، أو نهضعت عدع أم الكملة، أو حضنته أخت بنى سهم، أو حنكته تماضر الخنساء لعوبا بأطراف الكلام المشقق، كأنما ولد في مكة، واسترضع في اياد، وربا في مسلنطح البطاح.

أتمثله مجتمع الأشد على طراوة العود، بعيد المستمر على مبيعة الشباب، يحمل ما حمل من خير لأن يد الاسلام طبعته على الخير ولا يحمل ما حمل من شر لأن طبيعة الاسلام تأبى عليه الشر ـ فتح عينيه على نور الدين، فإذا الدين والكون دال ومدلول عليه، وإذا هو يفتح بدلالة ذاك مغالق هذا وفتح فكره على عظمة الكون فاهتدى بها إلى عظمة المكون، فإذا كل شيء في الكون جليل، لأنه من أثر يد الله، وإذا كل شيء فيه قليل، لأنه خاضع لجلال الله، ومن هذه النقطة يبدأ سمو النفوس السامية وتعاليمها، وتهيوها للسعادة في الكون، والسيادة على الكون.

أتمثله مجتلى للخلال العربية التي هي بواكير ثمار الفطرة في سلاستها وسلامتها كأنما هو منحدر لانصابها وقرارة لانسكابها وكأنما خيط على وفاء السموأل وحاجب، وأشرح على إيثار كعب وحاتم، وختم على حفاظ جساس والحارث، وأغلق على عزة عوف وعروة.

أتمثله مترقرق البشر إذا حدث، متهلل الأسرة إذا حدث، مقصور اللسان عن اللغو، قصير الخطأ عن المحارم، حتى إذا امتدت الأيدي إلى وطنه بالتخون،

واستطالت الألسنة على دينه بالزاوية والتنقص، وتهافتت الأفهام على تاريخه بالقلب والتزوير، وتسابق الغرباء إلى كرائمه باللص والتدمير ثار وفار، وجاء بالبرق والرعد والعاصفة والصاعقة، وملأ الدنيا فعالا، وكان منه ما يكون من الليث إذا ديس عرنيه، أو وسم بالهون عرنينه.

أتمثله شديد الغيرة، حديد الطيرة، يغار لبنت جنسه أن تبور، وهو يملك القدرة على احصانها، ويغار لماء شبابها أن يغور، وهو يستطيع جعله فياضا بالقوة دافقا بالحياة، ويغار على هواه وعواطفه أن تستأثر بها السلع الجلبية، والسحن السابية، ويغار لعينيه أن تسترقهما الوجوه المطراة، والأجسام المعراة.

يا شباب الجزائر هكذا كونوا! . . . أو لا تكونوا.

أتمثله حنيفا فيه بقايا جاهلية . . . يدخرها لميقاتها، ويوزعها على أوقاتها، يرد بها جهل الجاهلين، في زمن تفتقت علومه عن جاهلية ثانية شر من الجاهلية الأولى ـ وتمخضت عقول أبناءه بوحشية مقتبسة من غرائز للوحش اقتباسا علميا ألبس الانسان غير لبوسه، ونقله من قيادة الحيوان إلى الانقياد للحيوانية ـ وأسفرت مدنيته عن جفاف في العقول، وانتكاس في الاذواق، قوانينه عن نصر للرذيلة وانتهاك للحرمات، وانتهت الحال ببنيه إلى وثنية جديدة في المال وعادة للمال، واستعباد لئيم بالمال.

أتمثله معتدل المزاج الخلقي بين الميوعة والجمود، وبين النسك والفتك تتسع نفسه للعقيق، وعمر وابن أبي عتيق، فيصبو، ولا يكبو؛ كما تتسع للحرم مناسكيه فيصفو، ولا يهفو، وتهزه مفاخرات الفرزدق في المربد، كما تهزه مواعظ الحسن في المبعد.

أتمثله كالدينار يروق منظرا، وكالسيف يروع مخبرا، وكالرمح أمدح ما يوصف به أن يقال ذابل، ولكن ذاك ذبول الاهتزاز، وهذا ذبول الاعتزاز ـ وكالماء يمرؤ فيكون هناء يروي، ويزعف فيكون عناء يردي ـ وكالراية بين الجيشين تتساقط حولها المهج وهي قائمة.

أتمثله عف السرائر، عف الظواهر، لوعرضت له الرذيلة في الماء ما شربه، وآثر الموت ظمأ على أن يرد أكدارها، ولو عرضت له في الهواء ماستنشقه، وآثر الموت اختناقا على أن ينتسم أقدارها.

أتمثله جديدا على الدنيا، يرى من شرطها عليه أن يزيد فيها شيئا جديدا مستفادا فيها يرى من الوفاء لها أن يكون ذلك الجديد مفيدا.

أتمثله مقدما لدينه قبل وطنه، ولوطنه قبل شخصه، يرى الدين جوهرا، والوطن صدفا، وهو غواص عليهما، يصطادهما معا، ولكنه يعرف الفرق بين القيمتين، فإن اخطأ في التقدير خسر مرتين.

أتمثله واسع الأمال، إلى حد الخيال، ولكنه يزجيها بالأعمال، إلى حد الكمال، فإن شغف بحب وطنه، شغف المشرك بحب وثنه، عذره الناس في التخيل لاذكاء الحب، ولم يعذر فيه لتغطية الحقيقة.

أتمثله مصاولا لخصومه الحجاج والاقناع، لا باللجاج والاقذاع، مرهبا لاعدائه بالاعمال، لا بلأقوال.

أتمثله بانيا للوطنية على خمس، كما بنى الدين قبلها على خمس : السباب آفة الشباب، واليأس مفسد للبأس، والآمال، لا تدرك بغير الاعمال، والخيال أوله لذة وآخره خبال، والأوطان، لا تخدم بإتباع خطوات الشيطان.

ياشباب الجزائر . . . هكذا كونوا . . . أو لا تكونوا.

3 ـ الوضع العربي

شعب الجزائر مسلم — والى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله — أو قال مات فقد كذب
أورام ادماجا له — رام المحال من الطلب

هكذا حدد الامام عبد الحميد بن باديس أهوية الشعب الجزائري وضبط الخطوط العريضة للحيز الذي يجب أن تتحرك فيه الحركة الاصلاحية لتوفير الشروط التي لابد منها للخروج بالجزائر من الليل الاستعماري والعودة بها سالمة إلى جسم الأمة العربية الاسلامية الذي اقتطعت منه في زمن الضعف والانحطاط.

ولقد كان العرب، غداة اقتسام فلسطين وظهور الكيان الصهيوني بمساعدة الدول المتقدمة في ذلك الحين، يعيشون حالة تخلف رهيب تتسم بالجهل والتجزئة من ناحية وبانتشار السيطرة الاستعمارية مختلفة الاشكال من جهة ثانية. ورغم اكتشاف الذهب الأسود في بطون مساحات كبيرة من الأرض المكونة للوطن العربي، إلا أن مردود الزيت كان يذهب إلى جيوب غير الجيوب العربية وينفق لترقية غير الانسان العربي ولتدعيم القوى المناهضة للأمة العربية والعاملة على إبقائها بكل الوسائل في حالة التبعية الدائمة.

ومن المؤسف أن القادة العرب، في الأربعينات، لم يكونوا قد بلغوا من الوعي ما يمكنهم من الارتقاء إلى مستوى المؤامرات التي كانت تحاك ضد الوجود العربي، لأجل ذلك، فإنهم ظلوا، في سنداجتهم، يضعون كل الثقة في حماة المغتصبين وينتضرون الحل لمشاكلهم الأساسية من الذين كانوا سببا فيها؛ وكان الاجدى بهم أن يلتحموا بجماهيرهم الشعبية يستمدون منها قوتهم ويستلهمون الرأي الذي يجب اعتماده في مثل تلك الحالات.

كان الابراهيمي من المتتبعين عن كتب لتطورات الوضع في الوطن العربي، وكان في نظرته إلى ذلك الوضع ينطلق من التجربة الجزائرية التي جعلته يعرف حق المعرفة نوايا المستعمرين وخفاياهم، ولتنوير المواطنين، ومساعدتهم على فهم الواقع وتمكينهم من مسايرة الأحداث، كان ينشر آراءه على أعمدة البصائر، ومن المدهش حقا، أن ما قدم للقراء قبل حوالي أربعين سنة ما يزال صالحا ليكون اليوم مادة أعلامية وتوجيهية حية، وعلى سبيل المثال نورد ما يلي :

ويل للعرب، من حبل قد اضطرب، وشر قد حل ولا أقول قد اقترب، قسم الويل، على العميم والخويل، فويل للعرب من ملوكهم، وويل للعجم

من سلوكهم. وويل للروم من صعلوكهم، جنت على الأصفر ناره، وعلى الأبيض ديناره، وعلى الأسود قدامته واغتراره، وعلى العربي ركبه البطى، ولسانه النبطى.

ما أكثر الملوك وأهون العنا، وما أكثر السيوف وأقل الغنا، سيوف، كالدراهم الزيوف، هذه لاتقنى، وتلك لاتغنى، ونعيذ العروبة بالله من ملك لا يدفع، وسيف لا ينقطع.

أحاجيكم، ولا أناجيكم، مملكة في أفحوص، وعاصمة ليس لها (فحوص) ودولة، بلا صولة. وخزينة من اصفار، وخزانة بلا أسفار وكرسي بلا قوائم، وعرش بلا دعائم . . . عرش كعرش الحمامة، عود من غرب وعود من تهامة.

قد لصه قعيدة في هيعه   ونـالـه بالبيع لا بالبيعة

وسيوف مجربة، تخيرن من يوم (تربة). وجيش دربه الغير وجربه إلا في الخير وبطانه مد بها الشيطان أشطانه، وحاشية، كالماشية، وأسماء بلا مسميات، ومجازات لا حقائق لها، و(مجازات) كلها حقائق. وملك يأتمر، ولا يحج ولا يعتمر، يحسن فيه التمثيل، بملك (التمثيل).

بكت الجلالة منه كما بكى الخز من روح، وضاق صدرها بسره وشره ومن لها بالبوح؟ عشقها يافعا، والتمس لوصلها شافعا، فكان الشافع عدو وطنه وقومه، وظالم أمسه ويومه؛ فأين يقع هذا من أرض الله؟

فإن عرفتموه فسلوه من ملكه، بعد مالاكه وعلكه، وفي خرت الابرع سلكه؟ ومن صيره غراب بين، وجالب حين؟ ومن أعجم تعربه، وأحكم على الشر تدريبه؟

أيها العربي : الحق سافر، والعدو كافر والقوى ظافر، فعلام نتافر، خصمك إلى خنافر؟ ويلك أن المنافرة لا تكون إلا في المشكوك، وأن الحق تحميه السيوف لا الصكوك؛ مجلس إلا من مخيف، والراضي بحكمه ورضعه ذو عقل سخيف؛ أنهم ليسوا من شكلك، وانهم متفقون على آكلك.

أيهــا الاعــارب، هل فيكم بقــايا من حرب أو من محارب دبت بينكم العقارب، وأنتم أقارب، فتكدرت المشارب وتقوضت المضارب، وغاب المدد في الرأي والمقارب، ولم تغن النذر والمثلات والتجارب، إن لدهاة المغارب، يدا خفية المسارب، قرأوكم سطورا لا رجالا، وعرفوكم بطأ عن الجلى لا عجالا، وحفظوكم شعرا بلا روى، وفكرا بلا روية فأخذوكم ارتجالا، وخالوكم على البعد أعمالا. فوجدوكم على القرب أقوالا، وحسبوكم عمدا في التركيب الأممي فألقـوكم مفـاعيل وأحوالا، فأعربوكم أعراب الفضلات، وعاملوكم معاملة المهمـلات، وراضـواكم على المهـانة حتى ذل جانبكم، ووطئت مناكبكم، فأصبحوا لا يبالون برضاكم لأنه لا ينفع، ولا يأبهون لسخطكم لأنه لا يضر، إن الغضبة، لا تعقبها وثبة، هي غضبة الذليل العاجز؛ ولو افترت كل بارقة منكم عن صاعقة، لما حمد شائموها القطر؛ أن غضبة العاجز لاتبكي وتنكي. تشتغل في الحنايا، ولا تهدم الحنايا، تحرق صاحبها ولا تحرق الناس، وتلك هي غضبتكم حين تغضبون.

إن للغـرب فيكم مطايا ذلك، ولرائده منكم أدلة أذلة. هم أصل البلاء والعلة، قادكم بسلوك، من الامـراء والملوك، فقـادوكم إلى الهاوية، فانزعوا المقـادة، من هؤلاء القادة، تفلحوا، وإن تفلحوا ولن تصلحوا مادام يلقاكم بوسيط واحـد، فتلقـونه بسبعة سفراء، ويلقاكم برأي جميع، فتلقونه بسبعة أراء، ويلقـاكم بكتيبـة ململمة، فتلقونه بشراذم شتى . . . ويتحداكم نذيره بانجيل واحد، فتعارضونه بيوحنا ولوقا ومتى . . .

لن تفلحوا ولن تصلحوا إلا إذا رجع أمركم إلى الشعب. وأجمع الشعب على رأي واحـد، واتفق الرأي على نظام واحد، وتمخض النظام بدستور واحد، وملك واحد؛ فإن قلتم : إن هذا عسير، فعيشوا عيشة الأسير، أو موتوا ميتة الحسير، شبر في الحياة، وقبر في الممات.

جاءتكم النذر تترى، والمعجزات شفعا ووترا، وقامت عليكم الحجة، من ثلاثين حجة، فتغافلتم أولا، وتخاذلتم أخيرا، وضاعت العروبة بين التغافل والتخاذل.

ان الفارق بين لفظى العرب والغرب نقطة، وفيها كل السر، وفيها كل الشر.

وقف الغرب بالباب، فلم تتحركوا، ثم أنشب الظفر والناب، فلم تستدركوا، ثم دس أنفه في التراب، فوجد رائحة الزيت، ثم طلب الوقوف بالاعتاب، فوطأتم له أكناف البيت.

إن الزيب ادام، ازدحمت عليه الاقدام، فحرمه الجبان وحازه المقدام، وكان حظكم منه حظ الطباخ الصائم : زهما في اليد، ورائحة في الأنف؛ فيا أرض ابلعى زيتك، وأحيي ميتك، وإلا خرب (أبرهة) الغرب بيت الله وبيتك.

ألا أن الغرب جاهد في أن يلحق بلفظ السبع منكم حرفين فإذا هو (سبعون)، وأن يزيد في عدد السبع من ملوككم فإذا هو سبعون.

أيها العرب : ماأضيع حكمة الاسلاف عندكم، لقد أبقوا لكم من وحي السماء، وحكمة الحكماء، ما لا يليه التراب، ولا تنسيه الأحقاب، وما لو علمتم به لسدتم الكون أئمة، وقدتم الكائنات بالأزمة، ولفللتم السيوف؛ بالأراء، ودحضتم الأراء بالسيوف ولكنكم أضعتم التراث، بتشاكس الوراث، وإذا كان الوارث، غير همام ولا حارث، غارت العين الفوارة، وقحلت الأرض الغوارة :

ورثنا المجد عن آباء صدق	أسأنا في ديارهم الصنيعا
إذا المجد الرفيع تعاورته	بناة السوء أوشك أن يضيعا
أيها العرب، أطعتم الكبراء فأضلوكم	وخضعتم للأمراء فأذلوكم

حتى لنتم للعاجم، ودنتم للاعاجم، وحتى القيتم بالمقاود، لمن سماهم أجدادكم رقاب المزاود، أغنى ويقترض، ومحجوج ويعترض؟ عز الداء وغاب الأسى . . . لم يأس جراحكم ألف «دكتور» فهل يأسوها «ديكتاتور» . .

وضع الاجداد العقال للرجال فنقلته الاحفاد إلى الرأس، وعد لوابه من الاباعر إلى الناس، وما بين النقل و النقل، ضاع العقل . . . والتصريف للالفاظ كالتصرف في الأموال فيه القصد والسرف (1).

---

(1) عيون البصائر، ص : 591 وما بعدها.

4 ـ الاستعمار

عجيب، . . . وهل الاستعمار مظلوم؟ إنما يقول هذا (كولون الشمال) أصحاب الكيمياء التي أحالت السيد عبدا، والدخيل أصيلا أما أنت فتويتك أنت تحشر كلمة (مظلوم) هذه في الكلمات المظلومة.

هو عليك فإن المظلوم هنا هو هذه الكلمة العربية الجليلة التي ترجموا بها المعنى خسيس.

مادة هذه الكلمة هي (العمارة) ومن مشتقاتها التعمير، والعمران، وفي القرآن : (هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) فأصل هذه الكلمة في لغتنا طيب، وفروعها طيبة، ومعناها القرآني أطيب وأطيب، ولا ننكر من استعمالاتها في السنة خاصتنا وعامتنا إلا «العمارة» الدرقاوية.

ولكن اخراجها من المعنى العربي الطيب إلى المعنى الغربي الخبيث، ظلم لها، فاستحقت الدخول من هذا الباب، والادراج تحت هذا العنوان.

فالذي صير هذه الكلمة بغيضة إلى النفوس ثقيلة على الاسماع مستوخمة في الأذواق هو معناها الخارجي ـ كما يقول المنطق ـ وهو معنى مرادف للأثم، والبغى، والخراب، والظلم، والتعدي، والفساد، والنهب، والسرقة، والشره، والقسوة، والانتهاك، والقتل، والحيوانية. . . إلى عشرات من مئات من هذه الرذائل تفسرها آثاره، وتنجلي عنها وقائعه.

وواجبا، تضيق الأوطان على رحبها بهذه المجموعة، وتحملها كلمة لا تمت إلى واحد منها بنسب، وإذا كنا نسمي من يجلب هذه المجموعة من كبائر الاثم والفواحش إلى وطن ـ ظالما، فأظلم منه من يحشرها في كلمة شريفة من لغتنا : ليخدع بها ويغر، وليهون بها على الفرائس شراسة المفترس، وفظاعة الافتراس.

أما والله لو أن هذا الهيكل المسمى بالاستعمار كان خيوانا لكان من حيوانات الأساطير بألف فم للالتهام، وألف معدة للهضم، وألف يد للخنق، وألف ظلف للدروس، وألف مخلب للفرس، وألف ناب للتمزيق، وألف ألسان للكذب وتزيين هذه الأعمال ـ ولكان مع ذلك هائجا بادىء السوأت والمقابح على أسوأ ما نعرفه من الغرائز الحيوانية.

سموا الاستعمار تخريبا ـ إذ لا تصح كلمة استخراب في الاستعمال ـ لأنه

يخرب الأوطان، والأديان، والعقول، والافكار، ويهدم القيم، والمقاومات، والقوميات.

وخـذوا العهد على المجامع اللغوية أن تمنع استعمال هذه الكلمة في هذا المعنى الذي لا تقوم بحمله عربة مزابل.

5 ـ الاستعمار

الاستعمار كله رجس من عمل الشيطان، يلتقي القائمون به على سجايا خبيثة، وغرائز شرهة، ونظرات عميقة إلى وسائل الافتراس واخضاع الفرائس، وأهم تلك الوسائل قتل المعنويات وتخدير الاحساسات الروحية، ولكن هناك تفاوتا بين استعمار واستعمار، فاستعمار يباشر وسائله بالحقد ويشربها معاني من الانتقام، وآخر يباشر بنوع من التسامح واللين، والاستعمار الفرنسي من النوع الأول، وبـين النـوعـين فرق، وإن كانا ـ بغيضين ممقوتين، لأنهما استغلال للأموال، واستعباد للاجسناد، ويزيد أحدهما بأن فيه ترويحا على الارواح، ولو لا مابلوناه من شر الاستعمار الفرنسي على ديننا ولغتنا، وما تجرعناه في سبيل إحيائها من غصص، وما كابدنا في انقاذهما منه من بلاء ـ لما ذكرنا الاستعمار بخير، ولما أجريناه على ألسنتنا إلا مقرونا باللغة مصحوبا بالسخط، ولكن في الشر خيارا لا يقدره قدره إلا المبتلى بالأشد من أنواعه.

إن عقلية هذا الاستعـمار الـذي بلينـابه ـ حين تتصل بالاسلام ـ عقلية «لاتينية» أولا، صليبية ثانيا، فهي تتخبط بين لجتين، لا تنسحر أحداهما حتى تجلل الأخرى وترين، وتتغذى من عنصرين، لا ينصب أحدهما حتى يثر الأخر ويفور، وهو بهذين الدافعين احتل الجزائر، ولهذين الباعثين عامل الاسلام فيها هذه المعاملة الشنيعة، ولعمر الحق انهما لوسمان في الاستعمار الفرنسي للاسلام، متأصلان فيه، مؤثران في أعماله، سائقان إلى جميع تصرفاته، يظهرهما لحاجة، أو يظهر أحدهما لمصلحة، وقد يخفيهما لكيد، فتعرب عنهما هذه البوادر التي تبدر حينـا بعد حين من ساسته وقساوسته فيصرحون بأن الجزائر كانت لاتينية في القديم، ومفهومه الموافق أن تكون لاتينية في الحديث، وأنها كانت مسيحية في الغابرين، وفحواه أنها مسيحية في الأخرين، وعلى هذه القوالب صبت القوانين التي تساس بها الجزائر، وبهذه الروح نفدت، ولهذه الغاية يعمل العاملون من

رجال الاستعمار في أي مظهر ظهورا، وبأي إسم تكلموا، ولا عبرة بهذه الأغشية التي يموهون بها أعمالهم من العلم والفن والمدنية والديمقراطية والانسانية، فتلك ألوان غير ألوان غير قارة وإلا ثابتة، تخدع العين والأذن، ولكنها لا تخدع الحقيقة.

يا هؤلاء، إن الاستعمار شيطان، وإن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا، وإن الاستعمار شر، ومحال أن يأتي الشر بالخير، ومحال أن يجني من الشوك العنب.

إن فرنسا نبية في الاستعمار، وأنها ترى أنه شرع لا ينسخ وعقد لا يفسخ، فدعوها وشرعها لله وسنن الله، وللزمان وتصاريف الزمان، إن الالحاح في المسألة ذلة وأن اليأس إحدى الراحتين.

والله والله، ألية المسلم البر، لا يرجو الخير من الاستعمار إلا من خولط في عقله فرجا من الصخر أن يبض بالقطر، وما كنا نرجو منه أن يسترجع ما غضب من دنيانا، والدنيا مادة يملكها الغاصب، بعد تسلطه على ديننا، والدين روحاني لا يسلبه إلا من يسلب الروح، ولكننا كنا نظن أن تلك القلوب القاسية ترققها الشدائد، وأن تلك النفوس العاتية تلطفها المصائب وأن تلك الاحساسات الغليظة ترهفها مناظر البؤس الذي نزل بها، وتوقظها أصوات القوارع التي حلت بدارها، من اكتساح «الألمان» لها واجتياحها لديارها في يوم وبعض يوم، فقطع علينا هذا الظن يوم حجر الحقد تلك القلوب على مسلمي الجزائر حتى أبت عليهم أن يشاركوها في فرحة فنغصتها عليها بمناظر الدماء والاشلاء.

واضيعتاه، أفي الوقت الذي تطمح فيه أنظار الأمم الضعيفة إلى الاستقلال التام، يرسلها رئيس وزراء فرنسا صيحة انذار، بأن لاحق لنا حتى في استقلال ديننا؟

واخيبتاه، أبعد مداورات دامت سنوات يفرض على الأمة الجزائرية دستور أعرج أبتر، لا يسمع ولا يبصر، لم يؤخذ رأيها في وضعه، ولم يسمع صوتها في دفعه؟.

واذلاه . . . أبعد البراهين اللائحة كفلق الصبح على حق هذه الأمة في السياسة وفي الحياة، وعلى استحقاقها لجميع الحقوق في السياسية وفي الحياة ـ تعامل بالدون، وتحمل على خطة الهون؟ .

أيها المترددون على قصر البوربون، أنه لا طارد كاليأس، وقد أيأسوكم فكأنهم طردوكم، فارجعوا ارجعوا وتداعوا إلى الاتحاد على الحق الواضح بالمنطق المعقول، فإن القوم قد اتحدوا على هضمكم بالمنطق المسلح، ارجعوا واجتمعوا واجمعوا الأمة في مؤتمر، واشرحوا لها الحقيقة، ودعوا لها الكلمة الأخيرة في تجديد الموقف وتقرير المستقبل.

لاندماج إلا لبعضكم في بعضكم، ولا إتحاد إلا لاجزائكم الطبيعية بعضها مع بعضها.



النمــوذج الخــامس



محمــد الــذيب

عنـدمـا بدأ نشاط نجم شمال افريقيا السياسي ينتشر ليعم مختلف انحاء البلاد، كان محمد الذيب طفلا صغيرا. لكن ذلك لم يمنعه من تتبع الأحداث التي كانت مدينة تلمسان مسرحا لها.

لقـد جاءت الحـركة الوطنية وبعدها الحركة الاصلاحية بمفاهيم جديدة للحياة بالنسبـة للسكان الذين عملت السيطرة الأجنبية على النزول بهم إلى الدرك الأسفل من الوجود.

فالحـركتان كانتا تعبيرا عن رفض الاستعمار، وإذا كانت الأولى ترمي إلى خلق الظروف الموضوعية اللازمة لتوعية الجماهير الشعبية الواسعة قصد الالقاء بها في خضم المعركة المسلحة كوسيلة وحيدة لاسترجاع السيادة المغتصبة، فإن الثـانية كانت تؤمن بأن التعليم والتربية ومحاربة الخرافات تكفي للارتقاء إلى مستوى الاستقلال.

إن هذا الرفض بنوعيه قد ساعد، خاصة في الثلاثينات، على ظهور مثقفين ملتزمين يستعملون كل فنون الكتابة باللغة العربية ويعالجون مختلف ميادين الحياة الشعبية داعين إلى الخروج من النوم العميق والعمل على تغيير الأوضاع المأساوية المفروضة بتخطيط محكم من قبل الكولون.

وظهـرت باللغـة الفرنسية، أيضا، محاولات محتشمة ترتكز حول محورين أساسيين هما : الدعوة إلى الاندماج والدعوة إلى تحقيق نوع من المساواة.

هكذا نشر فرحات عباس «الشاب الجزائري» سنة 1931. وسعيد فاسي «الجزائر تحت حكم فرنسا» سنة 1936، ومحمد عزيز كسوس «الحقيقة حول التأزم الجزائري» سنة 1935، ورشيد زناتي «المشكل الجزائري كما يراه واحد من الأهـالي «سنة 1938، وجان عمروش «الرماد» سنة 1934، و«النجمة السرية» سنة 1937.

هذا الأدب الجديد هو الذي نهل منه محمد ديب يافعا، لكنه سرعان ما بدأ يتحفظ منه، لأن واقع الجماهير والصراع السياسي الذي كان سائدا يومها فرضا عليه مجموعة من الأسئلة ستكون هي المنطلق في بحثه عن الذات المتمايزة وعن الوسيلة الناجعة للوصول إلى تلك الذات.

هل يمكن أن ينـدمـج الشعب الجزائري في شعب لا تربطه به أية صلة حضارية أو تاريخية أو ثقافية ؟ هل من المعقول أن تندمج الجزائر المغلوبة أو المستعبدة (بفتح البدال) في فرنسا الغالية أو المستعبدة (بكسر الدال) ؟ أليس من الجنون الطمع في أن يصبح الانسان الجزائري المقهور المهمش الذي يتخبط في الأمية الجهـالـة متسـاويا مع الانسـان الفـرنسي الحـاكم المستبد والمتعلم المستغـل ؟ اضغـات احلام ! وذات يوم سيقول محمد ذيب ردا عن كل هذه الأسئلة : «لقد انزلنا اسفل سافلين، ولا يمكن أن نعود أناسا بالطرق العادية. سنكون مضطرين لقلب الدنيا سافلها على عاليها «ان واجبنا هو أن نغير الوضع والانسان معا. لكن للوصول إلى ذلك ينبغي أن نحطم كل شيء».

كان العقد الرابع من القرن الحالي حاسما بالنسبة لبلورة الكفاح الوطني في الجزائر.

لقـد احتفلت فرنسـا بمـرور قرن على الاحتـلال. واعتقدت السلطات الاستعمارية انها استطاعت ان تروض الشعب الجزائري. انها لم تكن تولي أي اهتمام لمطالب الجماهير التي لم تعد حياتها تختلف عن حياة البهائم : فالأمية ضاربة اطنابها، والجهل يكاد يكون عاما، والاستغلال عملة سائدة في جميع الميادين.

إن الأوربي الذي اتخذ الجنسية الفرنسية تقية لم يعد يكتفي بما تدره عليه الأرض التي يخدمهـا الانسان الجزائري فصار يعمل على سن نظام الاقطاع الذي يحول المواطن في الجزائر إلى قطعة من الأرض تستغل إلى أقصى الحدود أو إلى بطال معدم يقضي كل وقته في البحث عن لقمة العيش.

هذا هو الوضع الرديء الذي عرفه محمد ذيب في سن المراهقة ولقد كان يرى سواء في البيت أو في الشارع كيف كانت الأغلبية الساحقة من أبناء وطنه تحاول التصدي والمقاومة من أجل البقاء على قيد الحياة، وفي ذات الوقت كان يشهد

محاولات التشكيلات السياسية الوطنية في نشر الوعي وفي السعي بكل الوسائل من أجل تعبئة الجماهير وجعلها تشعر بأخطار الفناء والذوبان لعلها تنهض وترفع التحدي .

إن هذا الوعي الذي عملت الحركة الوطنية على ترسيخه لدى كثير من الأسر بأكملها هو الذي جعل محمد ذيب يحسن، في سن مبكرة، بضرورة الاسهام في عملية النضال من أجل استرجاع السيادة المغتصبة. ولقد اختار العلم كسلاح والكتابة كميدان : حتى أمكن القراء من المشاركة في آلام وطني وآماله .

فتصوير تلك الآلام بدقة والتعبير عن تلك الآمال بصدق سيجعلان القارىء، ان كان جزائريا، يتأمل فيما آل إليه وما ينبغي أن يكون عليه. أما إذا كان أجنبيا فإنه يطلع على مساوىء الاستعمار في الجزائر ويتضامن، بأية صورة كانت، مع مطلب الحرية والاستقلال الذي رفع شعاره حزب الشعب الجزائري في نهاية ذلك العقد الرابع من هذا القرن.

ولم يبدأ محمد ذيب الكتابة إلا في الأربعينات في شكل مقالات وتحقيقات نشرت خاصة في «الجزائر الجمهورية». ولقد كان يؤمن أن الكتابة لا تجدي نفعا إذا لم يكن واقع الجماهير هو مبعثها، ومصيرها هو الغاية المنشودة من خلالها.

وكانت السنوات الممتدة من 1938 إلى 1942 هي الفترة الحاسمة التي ستترك بصماتها واضحة في حياة الكاتب الفنية. فاحداثها هي التي ستشكل نسيج الرواية الثلاثية التي تعتبر أهم ما أنتج محمد ذيب والتي لم يخرج جزؤها الأول إلى السوق إلا في سنة 1952 .

هكذا، اذن، تبدأ مساهمة محمد ذيب في الاعداد للثورة عندما يكون الوعي الجماهيري قد خطا خطوات عملاقة بفعل الجهود الجبارة التي بذلها مناضلو حركة الانتصار للحريات الديمقراطية.

ومما لا ريب فيه أن كتاباته كان لها مفعول ايجابي في أوساط الشباب الذي تعلم في المدارس الفرنسية. لقد كانت تعبيرا حيا عن واقع قريب كله اضطهاد واستبداد وظلم وطغيان.

فالدار الكبيرة عبارة عن تصوير دقيق للحياة اليومية في الأحياء الشعبية

بتلمسان خلال سنتي 1938 ، 1939 . ومن خلال ذلك التصوير غسوة غير مباشرة إلى الثورة على الأوضاع المزرية . وعلى سبيل المثال نسوق هذه الفقرة على لسان احد شخصيات الدار الكبيرة وهو يتحدث عن القضاء في عهد الاستعمار.

«إن ما يسمونه قضاء إنما هو فقط قضاؤهم الذي اوجدوه ليحميهم ويضمن تسلطهم علينا وليحطمنا ويذلنا ، فإنا ، في نظر قضاء كهذا ، مجرم إلى الأبد . . لقد حكم علي قبل أن أولد . إنه يحكم علينا دون أن يكون في حاجة إل تبرير ذلك بما نرتكبه من جنح . . لقد وجد ليحاربنا» .

وعلى لسان أحد شخصيات الحريق يعبر محمد ديب عن رأي المستعمر في الفلاح الجزائري «انه ذو رائحة كريهة ، فظ غليظ كالبهائم . إنه راضي بحاله وبما قسم له . وإذا أردت استبدال حياته بأخرى سعيدة محترمة ، فإنه يرفض ذلك» .

بهذا الأسلوب الواقعي ، كان ديب يدفع القارىء الجزائري إلى إدراك حقيقة الاستعمار ، والمؤسسات التي اوجدها لخدمة مصالح ابنائه وإلى التفطن إلى أن المحتل لا يمكن أن يسويه بنفسه لأنه يرى فيه مخلوقا مليئا بالعيوب والمساوي التي تمنعه من الارتقاء إلى درجة الانسان .

وعندما يصبح المواطن الجزائري واعيا للهوية التي تفصله عن المستعمر ، ومطلعا على سلوكاته وتصرفاته الاستغلالية ومدركا للوضع اللاطبيعي المفروض عليه بكل الطرق والوسائل ، فإنه يكون مستعدا للنضال من أجل التغيير الذي يعيد له حقوقه المشروعة في الحياة والكرامة والسيادة والشرف .

ومما لاشك فيه أن كتابات محمد ديب وخاصة منها ما جاء في «الدار الكبيرة» و«الحريق» قد اثرت كثيرا في اوساط المتعلمين بالفرنسية ، لأنها كانت ، في جوهرها ، لا تختلف عن الخطاب السياسي الذي كان يدعو إليه حزب الشعب الجزائري .

نقول هذا ، لأن مجموعة كبيرة من التعابير التي تنطلق منها بشخصيات محمد ديب لاقناع القراء مأخوذة في مجملها من الخطب التي كان قادة الحزب المذكور

ومناضلوه يلقونها في أوساط الجماهير الشعبية قصد التعبئة والتجنيد. نورد على سبيل المثال، فقرة معبرة للغاية نقتبسها من «الحريق» وتنص على ما يلي :

«تلك الحفنة من التربة السمراء هي ارضكم ووطنكم، انها كلها في أيدي الكولون، الا يجعل ذلك منا أجانب في بلادنا ؟ ألسنا نحن الأجانب، والأجانب هم أهل هذه البلاد ؟ إنهم بعد أن ملكوا كل شيء، يريدون الاستيلاء علينا نحن أيضا دفعة واحدة».

إن الذي يقرأ هذه الجمل التي قدمت للجمهور قبل إندلاع الثورة بأشهر قليلة فقط لا يسعه إلا بتذكير خطاب السيد أحمد مصالي الحاج سنة 1936 عندما توجه إلى جماهير الشعب يحاول اقناعها بضرورة الالتفاف حول برنامج نجم شمال إفريقيا الذي يدعو إلى إستعمال كل الوسائل بما في ذلك العنف، في سبيل الانفصال عن فرنسا واسترجاع الاستقلال الكامل.

لقد انحنى مصالي، يومها، وأخذ حفنة من التراب، قبلها ثم قال : هذه هي أرضكم ما تزال مخضبة بدماء اجدادكم... كيف تسمحون ببقائها في أيدي المستعمر الأجنبي الذي جردكم من كل شيء ؟

إن المعنى واحد. لكن التعبير مختلف قليلا والزمن الفاصل بين المناسبتين يكاد يكون عشرين سنة. نستنتج، اذن، ان مجهودات النجم لم تذهب سدى.

هناك من يزعم أن محمد ديب كان شيوعيا، لكن هذا الزعم لا يجد ما يبرره في كل ما أنتجه الأديب، بل أن القارىء المتمعن الذي يدرس الدار الكبيرة والحريق يجد نفسه بسهولة في صميم ايديولوجية حزب الشعب الجزائري ولا يجد اثرا لايديولوجية الحزب الشيوعي.

لقد كان الحزب الشيوعي يدعو إلى الكفاح لكن في شكل صراع طبقي يهدف إلى تحسين وضع الجماهير الكادحة دون الخروج عن إطار الأمة الفرنسية، أما محمد ديب فيقول : ان القوة التي تخرج من الأرض ثمارا وسنابل هي بين أيدي الفلاح القوى الذي لابد له يوما، أن يحمي، بالسلاح، بيته وحقله. «وفي الدار الكبيرة كتب شعرا على لسان أحدى النساء الجزائريات فيما يلي ترجمة بعض أبياته : أنا التي اتكلم يا جزائر / قد لا أكون سوى اتفه نسائك / ولكن

صوتي لن يتوقف عن النداء في السهول وفي الجبال / إنني هابطة من أوراسي / فافتحن أبوابكن يا أيتها الأخوات / وقدمن لي ماء باردا، وعسلا وخبز شعير» .

من خلال كل ما تقدم نستطيع التأكيد بأن محمد ديب قد وظف كتاباته، بالفعل، لفضح مساوىء الاستعمار ولتوعية الجماهير الشعبية، ومن ثمة ساهم مساهمة كبيرة في الاعداد لثورة نوفمبر العظيمة .

غير أن الاعتراف بهذه المساهمة لا يجب أن يحجب عنا كون الانتاج الأدبي الوطني الثوري لم يظهر باللغة الفرنسية إلا في نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات. ولا يمكن أن نقول ذلك عما انتج باللغة الوطنية .

القسم الثاني
فترة الكفاح المسلح

النموذج الأول



مفـدي زكريـاء

لقد كانت عملية الاعداد للثورة مهمة شاقة بالنسبة للرعيل الأول من المثقفين الجزائريين الذين كان عليهم، في الربع الثاني من هذا القرن، أن يناضلوا على جبهتين واسعتين بإمكانيات جد متواضعة.

أما الجبهة الأولى، وهي الأسهل، فتتمثل في مواجهة الاجراءات الاستعمارية القمعية التي تتخذها سلطات الاحتلال للحيلولة دون التحام النخبة الوطنية الواعية بالجماهير الشعبية الواسعة لأن في ذلك تمهيدا للنهضة التي تفتح الطريق للمطالبة بالحقوق المشروعة في الحرية والاستقلال.

إن معظم المثقفين، في ذلك الوقت، كانوا يدركون عواقب عدم الامتثال لتلك الاجراءات ومع ذلك، فإنهم كانوا يتصدون لها، وفي ذات الوقت يتحدون السجون والنفي والملاحقات المختلفة الأنواع، ويقفون صامدين وشامخي الأنوف تدابير التجويع والترهيب والترغيب ولقد سقنا، في موضعه، بعض الأمثلة التي تصور بإيجاز سلوكاتهم النضالية التي ماحوجنا إليها اليوم لتربية الأجيال الصاعدة.

وأما الجبهة الثانية التي هي أصعب وأكثر تعقيدا فتتمثل في مواجهة نتائج العمل الاستعماري الذي استهدف، منذ اللحظات الأولى للاحتلال، ضرب مصادر الثقافة الوطنية والقضاء على المثقفين الجزائريين واستبدالهم تدريجيا بمثقفين متشبعين بالفكر الاستعماري ومجردين من عناصر الشخصية الوطنية، كما أنه ركز على تشويه الاسلام الثوري الذي يرفض الظلم والقهر والاستبداد واللامساواة، وعلى محاربة اللغة العربية بصفتها وسيلة أساسية للحفاظ على الهوية وللتفقه في الدين.

إن العمل الاستعماري قد حقق، في أقل من مائة عام، جل ماكان يصبوا

إليه، إذا استطاع بشتى الوسائل، ان تصير اللغة العربية غريبة في ديارها، ممنوع تدريسها، ومنظور بعين السخط لكل من يحاول تعليمها أو تعلمها، وتمكن من تحويل أغلبية الزوايا التي كانت منطلقا للثورات الشعبية إلى مأوى للدراويش ومكان للشرك والخرافات. وفي نفس الوقت قام سلك للرهبنة في الاسلام وانقلبت المساجد غير الحرة إلى كنائس تكتفي بفتح أبوابها للمصلين فقط بعيدة كل البعد عن الدور الذي وجدت من أجله.

وكان على الطليعة من المثقفين ان تتسلح بامكانياتها القليلة وارادتها القوية لتصلح كل ذلك الفساد، وان تحترق طواعية، فتنير لأفراد الشعب، طريق الخلاص من كابوس الظلم والظلام. لقد كان عليها، وهي تنشر النور، أن تكون الطلائع المتشبعة بالروح الوطنية، الواعية لواقعها والقادرة على جرد عربة الكفاح من أجل التحرير والتحرر.

وبدأت الشجرة تثمر وتؤتي أكلها عندما بدأ نجم شمال إفريقيا فيما وراء البحار وفي مختلف أرجاء الوطن يدعو إلى العنف الثوري كوسيلة وحيدة لاسترجاع السيادة المغتصبة، وللتحكم في تلك الوسيلة راح يعمل جاهدا لتعليم الأميين ونشر الوعي بالانتماء إلى أمة مغاربية واحدة محكوم عليها بالتوحد إذا أرادت الخلاص من السيطرة الأجنبية والخروج إلى الأبد من دائرة التخلف.

وتدعم نشاط النجم بتلك الحركة الاصلاحية التي قادتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كانت تبذل جهودا كبيرة لجعل النشىء المقبل على مدارسها وبعض المريدين يتعلمون وينالون حظهم من المعرفة الكفيلة باعطائهم القدرة على التمييز بين الآن والآخر.

وعلى الرغم من أن المثقفين المتشبعين بايديولوجية نجم شمال افريقيا والعاملين على تطويرها باستمرارهم الذين يعود لهم الفضل الأول في قولبه المناضلين والاطارات الذين فجروا ثورة نوفمبر وشكلوا جنودها وإطاراتها على جميع الأصعدة في أشهرها الأولى، إلا أن الحقيقة التاريخية تفرض علينا الاشهاد بأن المثقفين المتشبعين بالايديولوجيات الوطنية الأخرى، هم أيضا قد ساهموا كل حسب وعيه وامكانياته، في إعداد الأرضية التي انطلقت منها الثورة لتتخذ

ذلك الطابع الشعبي الذي سيميزها عن غيرها من الثورات العظمى التي عرفها العالم المعاصر.

لقد لجأنا إلى كل هذه التقدمة لندعم قولنا للقارىء بأن النماذج التي قدمناها في القسم الأول من هذه الدراسة، كافية على قلتها للتدليل على ان المثقف الجزائري قد اشترك فعليا في الاعداد لثورة نوفمبر العظيمة. اذ استطاع بفضل ما أوتي من علم وشجاعة، ان يكون قدوة وان ينتج المادة الفكرية الكفيلة بنشر الوعي الوطني في أوساط الجماهير الشعبية وبتكوين طليعة بعضها فاعل ومبادر وبعضها مستعد لتبني الفعل والمبادرة والالتزام بالعمل من أجل انجاحها.

أما في فترة الكفاح المسلح الممتدة من سنة 1954 إلى 1962، فإن المثقفين الجزائريين كانوا ثلاثة أنواع: الذين بقوا من الرواد أوفياء لمبادىء النضال، الذين صنعتهم جبهة التحرير الوطني والذين لازموا الصمت لأسباب متعددة.

إن هذا التصنيف في الواقع ليس خاصا برجال العلم، لكنه قابل التطبيق على كل الفيآت الاجتماعية الأخرى. فهناك المناضلون الذين ظلوا متمسكين بمثلهم وواصلوا المعركة بدون انقطاع، وهناك المناضلون الذين صنعتهم جبهة التحرير الوطني بوسائل مختلفة ثم يأتي الصامتون المحايدون ويليهم المنضوون تحت لواء الاستعمار.

ومما لا شك فيه أن أحسن من يمثل الصنف الأول من المثقفين إنما هو مفدي زكريا الذي انتزع عن جدارة لقب شاعر الثورة بفضل ماكان له من تفاعل مع الأحداث وما كان لشعره من جودة فنية وقدرة فائقة على التعبير الصادق عن البطولات الرائعة، وعلى النفاذ إلى نفوس الجماهير الشعبية عامة ونفوس المجاهدين والمناضلين بصفة خاصة.

ولم يكن استمرار مفدي في الانتاج النضالي بالأمر الغريب نظرا لكونه جبل على ذلك، بل أنه لا يعرف غير ذلك، ولو حاول بعضهم منعه من ذلك لما استطاع، ان هذا لا يعني أبدا ان الاتصاف بالنضال يقلل من قيمة الانتاج الفنية، بل من المختصين يجمعون على أن شاعر الثورة يرتب على استحقاق في مصاف فحول الشعراء الذين عرفتهم اللغة العربية.

وهناك ميزة أخرى لابد من الاشارة إليها والتوقف عندها، وتتمثل في كون الشيخ زكريا لم يكن شاعرا وكفى بل واحدا من جنود القلم الذين تقتصر مساهمتهم في الكفاح على الكتابة والالقاء فقط، لكنه كان ومنذ اللحظات الأولى لاندلاع الثورة شريكا في اتخاذ القرار، ومسؤولا يؤخذ رأيه بعين الاعتبار في المستوى القيادي. وقد ظل كذلك إلى أن ألقي عليه القبض وزج به في سجن بربروس سنة ست وخمسين وتسعمائة ألف.

والذي أهل مفدي للقيام بمثل هذا الدور دون غيره من الشعراء هو ماكان له من سابق اتصال بالقادة الذين فجروا الثورة والذين جاؤوا كلهم من حزب الشعب الجزائري الذي كان هو أحد اقطابه المميزين كما سبقت الاشارة إلى ذلك. ومن هنا فإن الموقع الذي كان يحتله في صفوف الحزب، وما عرف عنه يومها من التزام بالايديولوجية التي دخلت طور التجسيد ابتداء من ليلة الفاتح من نوفمبر، ومن حماس فياض في العمل بشتى الوسائل من أجل تحقيق الاستقلال الوطني، كل ذلك هو الذي سهل مهمته ومكنه من اكتساب ثقة المسؤولين في المستوى الأعلى بدون أي تردد أو تحفظ.

ان ما ورد إلينا من شعر مفدي قبل دخوله السجن قليل جدا، قد لايتعدى ثلاث أو أربع قصائد من جملتها تلك التي أصبحت هي النشيد الوطني.

قد يقال أن هذا الانتاج الضئيل لا يتناسب مع حجم الشاعر الفني والسياسي في آن واحد، خاصة إذا عرفنا أن السنة الأولى من الثورة، وهي المعنية، كانت مليئة بالأحداث الهامة وفي مقدمتها انتفاضة العشرين من شهر أوت. فالاجابة على هذا القول نجدها، حسب مانرى في كون الشاعر لم يكن متفرغا للكتابة لكنه كان يساهم فعليا في عملية التجنيد والتوعية، أي أنه كان مقيدا بحياة الخوف والسرية.

ومهما يكن من أمر، فإن الانتاج على قلته كان في تلك السنة جيدا من كل النواحي ومعبرا بصدق لا مثيل له عن واقع الثورة وطموحات الثوار، وعن شعورهم وشعور كافة المناضلين الذين زهدوا في كل شيء ليقدموا أنفسهم وكل ما يملكون فداء لتحرير الجزائر.

وكان أول قصيد له في الثورة هو ذلك الذي نسميه اليوم «قسما» والذي كان

عنوانه في البداية «فاشهدوا» ولقد اختلفت الأراء حول الظروف التي كتب فيها هذا النشيد الرسمي. أما من حيث الزمن فالكل يتفق على أن ذلك كان في شهر أفريل سنة 1955، ويذهب مفدي في التدقيق إلى تحديد اليوم الخامس والعشرين من الشهر المذكور. لكن الشاعر أخطأ عندما ذكر في «اللهب المقدس» ان النشيد تم نظمه بسجن بربروس في الزنزانة رقم 69. فالصواب الذي تجمع عليه كل المصادر هو أن زكرياء كان ما يزال طليقا عندما طلب منه الشهيد عبان القيام بتلك المهمة.

وإذا كان الاختلاف حول زمان الكتابة ومكانها أمرا مقبولا، لأن النسيان من صفات الانسان اللصيقة به، فإن العقل السليم يرفض مطلقا ما زعمه بعضهم من أن مفدي نظم القصيد مكرها، وان عبان استعمل معه العنف لارغامه على ذلك.

إن هذا الزعم لا يمكن إلا أن يكون باطلا أولا، لأن الصدق هو أساس جودة الشعر وهو لا يلقى مع الترهيب أيا كان مصدره «قسما» من الشعر القوي الذي لا يمكن أن يصدر إلا عن رجل مؤمن بالثورة ومتشبع بايديولوجيتها. فنحن حتى الآن وبعد أكثر من ثلاثين سنة مازلنا عاجزين في الاتيان بالنشيد البديل، لأن مفدي يومها كتب بجوارحه معبرا عن واقع انفق شبابه كله نضالا من أجل الوصول إليه، وثانيا لأن مفدي كان صديقا شخصيا لعبان ورفيقا له في النضال، كما أنه كان يحظى باحترامه وباحترام معظم كبار المسؤولين في الحزب يومها، لأجل ذلك فإن ممارسة العنف تجاهه غير واردة خاصة إذا كانت لارغامه على قول ما تعود الجهر به يوم لم يكن هناك جيش ولا جبهة تحميه.

القصيدتان الثانية والثالثة انشدهما الشاعر في المغرب الأقصى أمام جلالة الملك محمد الخامس بمناسبة الاستقلال. الأولى منهما يوم 17 نوفمبر 1955 وهي عبارة عن مدح للعامل المغربي وتهنئة للشعب الشقيق على خلاصه من السيطرة المباشرة. وضمن القصيدة جاءت رسالة جبهة التحرير كالآتي :

إن الجزائر أمة عربية ... تسعى إلى استقلالها وتجارى
ارك - فديتك - يا محمد سعيها ... وجهادها، واخلد مع الأنصار
كفر الأولى قالوا الشمال ثلاثة ... ودعوا إلى اذلاله بالنار

نصبوا العصي على الحدود سفاهة وسعـوا إلـى توزيعـه لضـرار
والمغـرب العـربي شعب واحـد ملء العروق، دم العروبة جاري
للشـرق لا للغـرب ولي وجـهه فغـدا له سنـدا لخوض غمـار
مابـالهم يتصدقـون ؟ كاننـا نرضي، من الأسلاب بالأشطـار
لا نقبل الصدقـات، كلا أننـا طلاب حق، لا سـما سرعـار
لا شـيء إلا وحـدة عربيـة جبـارة في المغـرب الجبـار

وأما ثانية القصيدتين، فإن مفدي قد ارتجلها كما قال بين اقداح الشاي في الحفل الذي أقيم بالدار البيضاء لتكريم وفود الدول العربية التي امت المغرب للتهنئة بعيد الاستقلال. وكان ذلك بعد القائه القصيدة الأولى بعشرة أيام.

وإذا كان الشاعر قد خصص نصف القصيدة، وهي مكونة من ستة وعشرين بيتا، للاشادة باستقلال المغرب وتحية الوافدين من الوطن العربي، فإنه افرد للجزائر نصفها الأخير وهو عبارة عن وصف لموقف الشعب الذي قام يبذل النفس والنفيس، ويتحدى أنواع الترهيب والترغيب في سبيل استرجاع الاستقلال الوطني.

وثبنـا كالكـواسر واتخـذنا إلى استقـلالنـا الأرواح طرقـا
فلا نخشى العـذاب ولا نبـالي إذا وجب الفـدا، سجنا وشنقـا
إذا ما الـرزق صـار حليـف ذل مضينـا نبتغي، في الموت رزقـا
رسول الشرق، قل للشرق أنـا نسـام الخسف، الـوانا ونسقى
وان الشـامتـين بنـا، ابـادوا أعـز ديـارنـا نسفـا ومحقـا
وقد زعموا الجـزائر من فرنسـا ورامـوا (مـزجها) سفها وحمقهـا
سيعـترف الـزمان غدا بأنـا سبقنـا وثبـة الأقـدار سبقـا
وانـا في الجـزائـر خير شعـب عروبتـه مدى، الأجيـال وثقى
وإن الـوحـدة الكـبرى إذا ما تحررت الجـزائـر سـوف تبـقى

واضح من هذه الأبيات المنتقلة من انتاج نهاية السنة الأولى للثورة أن مفدي كان داعية يوظف الشعر الجيد ليس للتعريف بتطور الكفاح المسلح فحسب، لكن وفي المقام الأول، لتعبئة المثقفين الأشقاء وتوعيتهم بما يجري في الجزائر حتى يتولوا نشره والدفاع عنه عندما يعودون إلى ديارهم :

وواضح كذلك ان الشاعر كان ملما ببرنامج الثورة، عارفا لمنطلقاتها ومطلعا كل الاطلاع على مراحل التطور النضالية، وهو ما يجعلنا نكرر أنه ظل دائما قريبا من القيادة التي رضع مع أعضائها نفس اللبن وعاش معهم داخل نفس التشكيلة السياسية.

لقد كان من المفروض أن يلقي القبض على مفدي قبل نهاية السنة الأولى من الثورة، لأنه من قدامي مسؤولي حزب الشعب ومن الاطارات السامية في حركة الانتصار للحريات الديمقراطية ومعلوم أن السلطات الاستعمارية بادرت غداة اندلاع الكفاح المسلح، إلى سجن الأغلبية الساحقة من المناضلين المعروفين في تلك التشكلية السياسية. لكنه خرج إلى المغرب باذن من عبان، لينقل صوت جبهة التحرير الوطني إلى أوساط السياسيين والمثقفين. ولا نستبعد أن يكون ذهب في مهمة محددة، كأن يكون حمل رسالة خاصة إلى المرحوم محمد الخامس. فلو أنه لم يكن خرج في مهمة لما رجع، وهو يعرف ان البلاد في حرب شاملة وأنه مهدد بالموت أو بالسجن بين عشية وضحاها.

ومن الممكن ان الاستعمار كان يراقب نشاط مفدي وحركاته داخل الوطن وخارجه، لأجل ذلك قرر في الثامن والعشرين من شهر أفريل سنة 1956، ان يودعه سجن برباروس، ومنه سينقل إلى سجن البرواقية. وبين السجنين قضى شاعر الثورة سبعة وثلاثين شهرا بالتمام، نظم اثناءها اثنتي عشرة قصيدة تعتبر من أجود وأقوى ماقاله على الاطلاق.

ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يزور فيها مفدي سجون الاستعمار، بل كانت هي الرابعة وعليه فإنه لم يضعف ولم يهن ويقول الذين رافقوه في تلك الأيام العسيرة أنه كان مثالا للشجاعة والصبر والاحتمال والمقاومة.

وبمجرد ان زج بالشاعر في زنزانة العذاب حتى عاودته ذكريات المرات السابقة التي عرف فيها سجون الاستعمار. وامتزج في داخله شعور بالانتصار لأن سنوات النضال الشدائد قد اثمرت واينع ثمارها وشعر بارتياح الضمير لأنه رغم الصعوبات وطول المسار، لم ينثن ولم ينحرف وهاهو مرة أخرى يدفع ما عليه لتسديد ثمن الحرية والاستقلال. فهذا الشعور المزدوج مضاف إلى صفات التحدي والمقاومة هو الذي املى عليه في ظلمة الزنزانة وظلمة الليل، أولى

قصـائـده في السجن أثناء فترة الكفاح المسلح . ولقد كانت بالفعل عملاقة وللقارىء ان يحكم بنفسه .

سيـان عنـــدي ، مفتوح ومنغلـق　　　يا سجن، بابك، أم شدت به الحلق
أم السيـاط، بها الجـلاد يلـهبني　　　أم خازن النار، يكويني فاصطفق
والحوض حوض، وان شتى منابعه　　　ألقي إلى القعر، أو اسقي فانشرق
سـرى عظيم، فـلا التعـذيب يسمـح لـي نطقـا، ورب ضعـاف دون ذا نطقــوا
يا سجـن، ما انـت لا اخشـاك، تعـرفني من يحـذق البحـر لا يحدق به الغـرق
إني بلوتـك فـي ضيق وفي سعـة　　　وذقت كأسك، لا حقد ولا حنق

أرض الجـزائـر في إفـريقيا قدس رحـابهـا، من رحاب الخلـد، ان صدقـوا
قلب العـروبـة، لم يعصف بنخـوتـها عسـف، ولا نال مـن ايمانهـا رهــق
نـادى المنـادي إلى التحـرير يدفعهـا فاستصـرخت من قيـود الحجـر تنعتـق
ثـارت على الـظلـم، مثل السيل جارفة فـلا الفيالـق، تثنيهـا ولا الفـــرق
جيش إلى النصر تحدوه ملائكـــة　　　مسومـون، بمـوج المـوت يندفق
وجبهـة بسـديد الـرأي تسنــده　　　كل المعاميــد فيهـا، مـدره لبـق
والشعب، يسبح للعليا على دمـه　　　وللتبـــرع بـالأرواح يستبـــق
لم يثنــه دون ادراك المنـى رهـق ان هـم، احــرقـوا بالنـار، أو شنقـــوا
هذا الـذي يا فـرنسـا، تهدفـين له جهـلا، أمـا في فرنسـا حـازم حـذق ؟
وضـع السـلاح أحـاديث ملفقـة　　　خــرافة صاغهـا للكيـد مختلـق
لا تشغلينـا بأثـواب وارغفـة أهـدافنـا المجـد، ليس الخبـز والخـــــرق

وانـت يـا سجـــن، لو أفـلت ناصيـتي رأيتني، لخطـــوط النـار أخـتـرق
لا أبـتـغـي العــز إلا فـي مغـامـــرة ان السـماوات، للمقـــدام تنفتـق
روحـــي، وهبتـك يا روحي فـدا وطني زلـفي الـــى الله، لا من ولا ملـق

إن الذي يقرأ بتمعن هذه القصيدة التي تتكون من تسعة وخمسين بيتا يتعلم أشياء كثيرة عن الثورة الجزائرية وفي البداية يتعرف على عدد من أنواع التعذيب التي كان الاستعمار يلجأ إليها لانتزاع المعلومات من المناضلين فهي تتمثل تارة

في الجلد بالسياط، وحينـا في الخيوط الكهربائية تشد إلى الأطراف ثم يطلق التيار العـالي وتـارة أخرى بالقاء المستنطق (بفتح الطاء) في البئر أو الحوض المملوء خصيصا لذلك. وفي كل الحالات يقول الشاعر، الذي جربها فعلا، فإن قوة الارادة النضالية تتغلب على الأسى والألم الجسماني.

وفي مكان آخر، تساق إلى القارىء حقائق عن المكانة الاستراتيجية التي تحتلها الجزائر سواء في إفريقيا أو في الوطن العربي، وعن المسار الثوري الذي انتهجته من أجل استرجاع سيادتها المغتصبة وكذلك عن الأدوات الأساسية المتمثلة في جبهـة وجيش التحرير الوطني ويطلع القارىء أيضا على أساليب الترهيب والترغيب التي تستعملها سلطات الاستعمار لمنع الجماهير الشعبية من الانضمام إلى صفـوف الثورة التي كانت يومها، ما تزال في عامها الثاني، أو للتغرير بها وجعلها تلازم الحياد أو تركن إلى النظام الاستعماري.

وقبـل انهاء القصيدة بذلـك البيت الـرائع المعبر عن التفاني والصدق في التعـامـل مع الجهـاد، فإن الشاعر من خلال تطاوله على السجن وعناده في التمسـك ببقـائـه جنـديا مقاتلا بالقلم أو البندقية قد صور نفسية المعتقلين الوطنيين الذين كانوا يتوقفون إلى التسرب من وراء القضبان للالتحاق بخط النار حيث ما وجد، لأن الهدف الأسمى هو التحرير دون التوقف عند الثمن الذي يجب ان يدفع مقابل ذلك.

وفي اليوم التاسع عشر من شهر جويلية سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف وقبـل طلوع الفجـر اقـدمت سلطات الاستعمار على اعدام الشهيدين زبانا وفرج، وكان ذلك هو أول تنفيذ لحكم بالاعدام يعلن عنه رسميا. وقد كان مفدي من زنزانته المظلمة، يسمع صوت زبانا يتحدى الجلاد، فتصور المشهد ونقله في قصيدته تحت عنوان «الذبيح الصاعد».

ولئن كنا لا نعرف هل كانت هناك سابق علاقة بين الشاعر والشهيد أم لا، لعدم وجود وثائق عليها أو شهادات نرجع إليها، الا ان مقارنة بسيطة بين نص الـرسالة التي كتبها إلى والديه قبل صعوده إلى المقصلة والابيات التي اوردها مفدي على لسانه تدل على أن هذا الأخير كان يعرف نفسية أحمد كأحسن ما يكون.

جاء في الرسالة المذكورة وهي منشورة في الجزء الأول من مجلدات «المجاهد» اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني «إلى والدي العزيزين، أمي الحبيبة، انني أكتب لكم وأنا لا أعرف إذا كانت هذه هي آخر رسالة ام لا فالله وحده يعلم ذلك. لكنني ومهما يكن من أمر أقول لكم بأن كل شيء لم ينته، لأن الموت في سبيل الله هو الخلود، والموت في سبيل الوطن واجب فقط».

أما زكرياء فإنه قال على لسانه :

اشنقوني، فلست اخشى حبالا   واصلبوني، فلست اخشى حديدا
وامتثل سافرا محياك جلا   دى، ولا تلتثم، فلست حقودا
واقضي يا موت ما أنت قاضي   أنا، راض ان عاش شعبي سعيدا
أنا ان مت فالجزائر تحيا   حرة مستقلة لن تبيدا

ان مفدي لم يكتف بتصوير المشهد في تلك القصيدة التي اشتملت على ثمانية وستين بيتا، لكنه اغتنم فرصة التأبين ليتحدث عن التركيبة البشرية لجيش التحرير الوطني حيث قال :

وجيوش مضت، يد الله تز   جيها، وتحمي لواءها المعقودا
من كهول، يقودها الموت للنصر   فتفتك نصرها الموعودا
وشباب، مثل النسور، ترامي   لا يبالي بروحه أن يجودا
وشيوخ محنكين، كرام   ملئت حكمة وأريا سديدا
وصبايا، مخدرات تبارى   كاللبوءات، تستفز الجنودا
شاركت في الجهاد آدم حوا   ء ومدت معاصما وزنودا
أعملت في الجراح، انملها اللدن   وفي الحرب غصنها الاملودا
فمضى الشعب، بالجماجم يبني   أمة حرة، وعزا وطيدا

وقدم عرضا دقيقا وموجزا عن الوضع الذي كان يعيشه الشعب الجزائري والذي قاد إلى الانفجار.

ليس في الأرض سادة وعبيد   كيف نرضى بأن نعيش عبيدا
أمن العدل، صاحب الدار يشقى   ودخيل بها، يعيش سعيدا
أمن العدل، صاحب الدار يعرى   وغريب يحتل قصرا مشيدا

ويجوع ابنها فيعدم قوتا ... وينال الدخيل عيشا رغيدا
ويبيح المستعمرون حماها ... ويظل ابنها طريدا شريدا
يا ضلال المستضعفين اذا هم ... ألفوا الذل، واستطابوا القعودا
ليس في الأرض بقعة لذليل ... لعنته السما فعاش طريدا

ثم يتوجه إلى فرنسا ليؤكد لها بأن الثورة التي اشعل فتيلها لن تتوقف إلا بعد تحقيق الاستقلال الوطني الكامل، أما قمعها وما تقوم به أعمال ردعية تتمثل في الهدم والحرق وفي السجن والنفي، فإنه لن يفيدها في شيء، لأن مصيرها في الجزائر لا يمكن أن يكون سوى الانهيار والطرد مهما طال الزمن ومهما كانت التضحية.

ومما لا ريب فيه أن خطاب مفدي لفرنسا، كان موجها، في ذات الوقت، إلى مختلف الفيآت الاجتماعية الجزائرية التي كانت ما تزال مترددة، ولم تتخذ موقفا واضحا من الثورة. يقول لتلك الشرائح بأن العدو سيهزم لا محالة، ومن ثمة فإنه لم يعد هناك مايدعو إلى خشيته بل ان الواجب الوطني يملي على كل الجزائريين تجاوز مرحلة الخوف والانتقال إلى طور التحدي الذي هو سر الانتصار:

يا فرنسا امطري حديدا ونارا ... واملئي الأرض والسماء جنودا
واضرميها عرض البلاد شعاليل، ... فتغدوا لها الضعاف وقودا
واحشري في غياهب السجن شعبا ... سيم خسفا، فعاد شعبا عنيدا
واجعلي بربروس مثوى الضحايا ... ان في بربروس مجدا تليدا

وفي نهاية القصيدة يعود مفدي إلى زبانا وإلى رفاق زبانا يودعهم ويعدهم بأن الشعب الجزائري سيظل يذكرهم ويهتدي بخطاهم إلى أن تتحقق أهدافه المنشودة.

يا زبانا ويا رفاق زبانا ... عشتم كالوجود، دهرا مديدا
كل من في البلاد أضحى زبانا ... وتمنى بأن يموت شهيدا
أنتم يا رفاق، قربان شعب ... كنتم البعث فيه والتجديدا
فاقبلوها ابتهالة صنع الرشاش ... اوزانها فصارت قصيدا
واستريحوا إلى جوار كريم ... واطمئنوا، فإننا لن نحيدا

وقبل انتهاء تلك السنة الثانية من حياة الثورة الجزائرية، يكون مفدي زكريا قد نظم الأناشيد الرسمية للعمال الجزائريين والطلبة المسلمين الجزائريين والبنت الجزائرية، وهي أناشيد يعرفها الجميع ولسنا في حاجة إلى العودة إليها هنا. كما أنه نظم قصيدة قصيرة من عشرة أبيات يوم الاعتداء الثلاثي على مصر جاء فيها خاصة:

مابين كـاف ونـون قالها رجـــل — فكان، وانهار ماخطوا ومارسمـوا
فلا السهـام سهـــام في كنانتهـــا — ولا الادارة في محـــاربهـــا صنـــم
ولا ابن صهيون يسعى في قداستها — بالرجس، لا رجس فيها انها حـرم

لم يكن من السهل بالنسبة لمفدي ان يواصل الكتابة بغزارة وهو سجين وذلك لعدم توفر الشروط المادية من جهة ولقلة المعلومات التي تصل إلى المعتقلين وكثرة التفتيش واشتداد الحراسة من جهة ثانية. ويقول مفدي نفسه في تقديمه لاحدى قصائده بأنه كان مضطرا لحفظها بيتا بيتا، ولبذل جهد خارق حتى لا يأتي عليها النسيان ورغم كل ذلك فإنه استطاع أن ينظم أربعة قصائد في ظرف أربعين شهر تقريبا، أي بمعدل حوالي ستة أبيات في الشهر الواحد. ومن جملة هذه القصائد خصص الشاعر اثنين لتخليد ذكرى نوفمبر من سنتي سبع وخمسين وثمان وخمسين وتسعمائة وألف.

ان من الصعب جدا اختيار النموذج الذي ندلل به على جودة شعر مفدي، لأن أبياته كلها تقريبا في نفس القوة ونفس الجمال. لكننا مع ذلك نورد فيما يلي مقطعا من القصيدة التي القيت نيابة عنه في المهرجان الشعبي الذي تم تنظيمه بتونس يوم الفاتح من نوفمبر سنة سبع وخمسين وتسعمائة وألف.

دعـا التاريـخ ليلك فاستجـابـــا — نوفمبر هل وفيت لنـا النصابـــا ؟
وقال الله، كن يـا شعب حربـــا — على من ظـل لا يـرعى جنـابـــا
وقـال الشعب، كن يا رب عونـــا — على مـن بـات لا يخش عقـابـــا
فكـان وكـــان من شعـــب ورب — قرار احـدث العجب العجـابـــا

وقبل نوفمبر، وفي مستهل شهر فيفري سنة سبع وخمسين وتسعمائة وألف، عنـدمـا طرحت القضية الجـزائرية أمام الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة

بمناسبة، دورتها الثالثة عشرة التي كانت نظرتها سلبية للثورة الجزائرية في ذلك الحين نتيجة نشاط الديبلوماسية الفرنسية وضعف المجتمع الدول المناصر للحق والحرية والاستقلال، قال مفدي على الخصوص :

لغة القنابل في البيان فصيحة — وضعت لمن في مسمعيه صمام
ولوائح النيران خير لوائح — رفعت لمن في ناظريه ركام
وروائح البارود مسك نوافح — سجرت لمن في منخريه زكام
والحق والرشاش ان نطقا معا — عنت الوجوه، وخرت الأصنام
فلتعلم الأقطاب أنا للفدا — ثرنا. . . وأن الانعتاق لزام
وحقوقنا اعترفوا بها أم انكروا — فطريقنا لبلوغها الارغام
وبلادنا بيد الخلاص خلاصها — هيهات يجري مجلس وخصام
وجهادنا ماكان قط لندوة — بصوابها تتحكم الأرقام

هكذا يبدو جليا، من خلال ما أوردنا، ان مساهمة مفدي في العمل الثوري كانت ايجابية للغاية رغم مضايقات السجن وملاحقات السجانين. وان الدارس المتمعن في ما انتجه من مادة شعرية لا يجد مناصا من الاعتراف له بالقدرة على التفاعل مع الأحداث السياسية والعسكرية التي كانت اخبارها تصل إليه بطرق مختلفة شأنه في ذلك شأن باقي المعتقلين المتشبعين فعلا، بايديولوجية الثورة.

وعندما يحاول المرء تحليل ما يقرأ له من شعر، فإنه يحس بأن زكريا كان يتلذذ عندما يخضع القافية للتعبير عن مشاعره، لأنه كان يعتبر أن اندلاع الثورة وتواصل الكفاح المسلح من أجل استرجاع الاستقلال انما يشكلان انتصارا باهرا للمشروع النضالي الذي طالما عانى لتمريره في وساط المثقفين خاصة.

ومن جهة أخرى، فإن القصائد التي نظمها مفدي في السجن تدل بها لا يدع مجالا للشك، على ان صاحبها كان مثقفا فعلا، يحتل الصدارة في معركة التحرير، ويعرف كيف ينفذ إلى اوساط الجماهير يدغدع أحاسيسها ويستقطب اهتمامها ليجعلها، في النهاية تلتف عن وعي وقناعة حول جبهة التحرير الوطني التي رفعت لواء الجهاد تشق به طريق الخالدين نحو النصر المبين.

وبعد الأشهر الأربعين التي قضاها شاعر الثورة بين سجني بربروس والبرواقية، تحققت أمنيته الغالية التي عبر عنها بقوله :

وانت ياسجن، لو افلت ناصيتي رأيتني، لخطوط النار اخترق :

لقد استطاعت شبكات جبهة التحرير الوطني المسؤولة عن المعتقلين من وضع خطة محكمة مكنت مفدي من الفرار إلى المغرب الأقصى حيث وضع نفسه وقلمه تحت تصرف قيادة الثورة، حيث بقي أشهر قليلة قبل الالتحاق بتونس التي ستكون مقره الرئيسي الذي ينطلق منه كلما كلف بتمثيل الجزائر في مختلف التظاهرات الثقافية التي تنظم في مختلف انحاء الوطن العربي، أو عندما يزور تلك الأنحاء يشرح القضية ويشحذ الهمم :

ولم تكن تونس بالبلد الغريب عن مفدي، لكن ذهابه إليها هذه المرة كان مختلفا تماما عن رحلاته السابقة. لقد كان يزورها أما طلبا للعلم أو للقاء الأحبة. أما في مستهل السنة الستين من هذا القرن، فإنه دخلها شامخ الأنف رافع الرأس مجاهدا كما كان دائما يتمنى.

ونعتقد أن أولى قصائده بتونس كانت تلك التي ألقاها بمناسبة الذكرى التاسعة والعشرين بعد المائة لاحتلال الجزائر والتي جاء فيها على الخصوص :

هل جئت يا يوليو تذكرنا الأسى عهدي بنا طول المدى نتذكر
في كل حي بالجزائر صورة وبكل شبر في الجزائر منظر
وبكل خافقة رهيب خيالها وبكل زاوية حديث ينشر
هي وصمة التاريخ في اطوارها للعالمين عن المتمدن مظهر
هي لعنة الأجيال في اوحالها ابدا فرنسا، لم تزل تتعثر

والجرح لا يطوي على علاته والدهر يقبل كالحظوظ ويدبر
ويح القوى من الضعاف إذا هم يوم القصاص، على الطغاة تنمروا
وإذا الجزائر بالسلاح استعبدت فمصيرها، بسلاحها بتقرر
أو كان يوليو في الشهور بناكبا فشفيع «يوليو» في الشهور نوفمبر

عندما نظم الشاعر هذه القصيدة كان الجنرال ديغول قد أمضى أكثر من عام في الحكم المطلق لفرنسا. وفي أثناء تلك الفترة أعد استراتيجية اجمالية تهدف إلى تأخير ساعة استرجاع الاستقلال الوطني بقدر الامكان حتى يوفر لنفسه الشروط التي تسمح له بارساء قواعد الاستعمار الجديد وضمان استمرار السيطرة

الفرنسية على الجزائر بعد وقف اطلاق النار لمدة خمسين سنة على الأقل كما قال ذلك لجاك سوستال الذي راح يعاتبه عن مناورات التفاوض التي شرع فيها مع مستهل عام تسعة وخمسين وتسعمائة وألف.

فبمقتضى تلك الاستراتيجية قام الجنرال بجولة استطلاعية إلى الجزائر يشجع جنده ويرسم الخطط العسكرية مع قواعده، كما أنه أمر بدعم الجيوش العاملة في مختلف أنحاء بلادنا مركزا على الولايات الأولى والثانية والثالثة التي جعلها ميادين لتلك العمليات التنشيطية المشهورة التي شارك فيها عشرات آلاف العساكر من جميع الأسلحة. وإذا كان لانسان اليوم قد نسي أو يتناسى ماتسببت فيه تلك العمليات من خسائر مادية وبشرية، فإن جبال الولايات المذكورة ووديانها وشعابها ما تزال تحمل علامات النابالم وآثار القنابل بكافة أنواعها.

وفي نفس الوقت الذي كانت تجري فيه المعارك ضارية، وقوات الاستعمار تضاعف هجماتها المدعومة بسلاح الحلف الأطلسي، كان الجنرال يتحدث عن ما اسماه بسلم الشجعان. وقال بالضبط في خطاب القاه في الثلاثين من شهر جانفي «ان الحرب لن تقود سوى إلى المأساة التي لسنا في حاجة إليها. لأجل ذلك يجب أن نتخلص منها «ومادام الأمر هكذا فلماذا لانفعل ذلك حينا في ظروف مشرفة مثل التي اقترحتها على المقاتلين الشجعان ؟

فالسلم التي يعنيها الجنرال هي الحرب المبيدة ما يسمى بمخطط «شال» وعمليات «جـومـال» وبواسطة المحتشدات المبثوثة هنا وهناك. ان ديغول لم يختلف عن سابقيه إلا بكونها فصح منهم وأكثر عداء للشعب الجزائري.

وإذا كانت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في ذلك الحين قد علقت على مناورات ديغول بقولها «ان الحكومة الفرنسية لا سياسة لها في الجزائر سوى الحرب. وان مانعرفه منذ أن جاء الجنرال إلى الحكم، هو أنه صعد القمع أكثر من سابقيه وفي عهده بدأت سياسة المحتشدات التي تميز ما تقوم به فرنسا من مذابح وأعمال لا إنسانية في الجزائر»، فإن مفدي زكريا قد صرخ من اعماقه قائلا :

ديغـول يعلم مـا نـريد ويفـهـم — ما بـالـه، حيـران لا يتكلـم ؟
فقـد الصراحة أم أضاع فصاحـة — أم أن تقريـر المصـير توهـم ؟
وقـف القتـال خرافـة ان لم يكـن — للشعب في أمـر المصـير تحكـم

السلـم، نحن رجالهـا، لكننـا — شجعان ـ يا ديغول ـ لا نستسلم
إن كان في طي السـلام مذلـة — فالموت اشـرف للكـرام واسلـم
أو كان تقـرير المصـير خديعـة — فلنعـم تقـريـر المصـير جهنـم

لقد كان رئيس الجمهورية الخامسة مناورا ماهرا يعرف كيف يزرع الغموض لالهاء الرأي العام العالمي. فبعد الحديث مدة عن سلم الشجعان، واتصاله المباشر ببعض القادة من المقاتلين الجزائريين للايهام بأنه يسير جديا في طريق انجازه، وبعد استنفاذ كل ما يمكن استثماره من ذلك الاختراع الذي لم يمكنه من الوصول إلى ماكان يرغب فيه من تقسيم الثورة الجزائرية وتنويم اصدقائها وانصـارها، راح يستعمل مبدأ تقرير المصير لخلق جو التردد والتفاؤل المفرط الذين يضعفان الحماس الثوري.

ولتنفيذ هذه الخطة الجديدة اختار مناسبة الاحتفال بالذكرى الأولى لتأسيس الحكـومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، اذ أعلن عن استعداد فرنسا لتمكين الشعب الجـزائـري من ممارسـة حقـه في تقـرير المصير، ثم انطلقت اجهزته الـديبلوماسية تنشر الدعايات التي مفادها ان الاتفاق بين الطرفين بات أمرا مؤكدا. وإذا كانت بعض المعارك ماتزال مستمرة هنا وهناك، فإن الحرب قد انتهت عمليا، ولم تبق منها سوى الأنفاس الأخيرة.

ولئن كان الخطاب الذي القاه الجنرال ديغول في اليوم السادس عشر من شهر سبتمبر قد استقبل بتفاؤل كبيرا في الأوساط السياسية المختلفة لأنه تضمن الاعلان صراحة عن حق الشعب في تقرير مصيره بنفسه ودعوة جبهة التحرير الـوطني إلى فرنسا لمناقشة الشروط اللازمة لتطبيق ذلك، فإن الحكومة المؤقتة كانت تدرك جيدا ان الجنرال لم يكن صادقا لأجل ذلك وحتى لا تبقى الكرة عندها، فإنها اختارت اليوم العشرين من شهر نوفمبر، واصدرت بيانا تعلن فيه عن قبـولهـا للعـرض الفرنسي، وعينت لتمثيلها القادة الخمسة الذين كانت السلطات الاستعمارية تعتقلهم في سجونها.

أما مفدي زكريا، فإنه خلد تلك المناورات السياسية بقوله :

فإن سلما فنحن دعاة سلم ... وان حربا، فحرب لا نجاري
فلا نخشى مفاوضة . . سنجري ... عليكم في المفاوضة اختبارا
ولا نخشى سياستكم، فإنا ... ألفنا، في موائدها القمارا
فهاتوا «الخمسة الأحرار» تلعب ففي الشطرنج لا تخشى العثارا
فإن سجنوا فقرصنة وبغيا ... جنيتم منه في الدنيا احتقارا

وأما غلاة المستعمرين، فإنهم رأوا في اعتراف الجنرال ديغول بحق الشعب الجزائري في تقرير المصير خيانة يجب أن تحارب، لذلك شرعوا في الاتصالات السرية فيما بينهم وراحوا يقنعون بعض الضباط السامين بضرورة التمرد على السلطة التي لم تعد في نظرهم اهلا لتمثيل الكرامة الفرنسية والدفاع عنها.

وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر جانفي سنة ستين وتسعمائة وألف أعلن الغلاة أنهم يشقون عصا الطاعة بقيادة المغامرين أورتيز ولافايارد، وفي الحين انضم إلى المتمردين عدد من الضباط النظاميين بجيوشهم.

وإذا كانت الحكومة الفرنسية قد رأت في ذلك خطر يهدد الجمهورية الخامسة في كيانها وسابقة سلبية ينبغي القضاء عليها بجميع الوسائل، فإن الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية قد تصدت لتلك الأحداث بتجنيد الرأي العام العالمي الذي طالبته بالوقوف إلى جانب الشعب الجزائري الذي قد يتعرض للمذابح الجماعية من جهة، ومن جهة ثانية وجهت تعليمات واضحة ومدققة في سبع نقاط إلى الجماهير الشعبية وإلى كافة المناضلين والمجاهدين في المدن والأرياف حتى يتجنبوا كل الاستفزازات التي قد تغرق البلاد في بحر من دم بلا فائدة.

وقبل أن تتغلب فرنسا الديغولية على متمرديها الذين أقاموا الحواجز في الطرقات وملؤوا الدنيا ضجيجا، كتب مفدي «إلى الذين تمردوا».

ما للعصابة في الجزائر مالها ؟ ... ما للجبار ساجدين حيالها
ما للعصاة على العتاة تمردت ... فغدت تصب على الرؤوس نكالها
ما بالها، بعد الدلال تنكرت ... لبلادها ؟ ومن الذي أوحى لها ؟
فهل الجزائر افرغت فضلاتها ... وهل الجزائر اخرجت أثقالها

أم هل فرنسا أسرفت في عسفهـــا فأذاقها عدل السمـــاء وبالهـــا ؟
فقـدت فرنسا رشـدها وصوابهـــا وغدت تسجل في الانام ضلالهـا

هـذي الجزائر بعد خمس لم تــزل فوق الجماجم تصنع استقلالهـــا
هـذي العـوالم تستقــل وهـــذه افـريقيـا قد حطمت اغلالهـــا
ان كنت تـرجف للذين تمــردوا ان الجزائر، تـرجف الدنيـا لهـــا

ومما يمتـاز به مفـدي أنـه كان يتتبع باهتمام بالغ كل ماله علاقة بالثورة الجزائرية وكان يتفاعل مع الأحداث ويسعى دائما ليكون صوت جبهة التحرير الـوطني ولسـانها المعبر. ومن الجدير بالذكر أنه يغتنم كل المناسبات ليقرض الشعـر الجيد يخلق به الـظروف المـلائمـة لربح الأنصار والمؤازرين للمعركة التحريرية ضد الامبرالية الفرنسية ومن يقف وراءها من قوات الحلف الأطلسي.

ولقد كان التضامن العربي فعليا وفاعلا ليس في مختلف أنحاء الوطن العربي فحسب ولكن كذلك في بلدان أمريكا اللاتينية التي كانت تأوي جاليات لا يستهان بها من المصريين واللبنانيين خاصة. ومن جملة هذه الجاليات تلك التي استوطنت البرازيل واتخذت لها لسانا مركزيا، يتمثل في صحيفة عربية أصدرت عددها الأول في شهر ماي سنة عشر وتسعمائة وألف.

كان عنوان الجريدة هو «البيان» وفي سنة ستين وتسعمائة وألف احتفل أبناء الجـالية العـربية في الـبرازيل بعيدها الخمسين. وقرر شاعر الثورة الجزائرية مشاركتهم فرحتهم فارسل لهم قصيدة مكونة من ثلاثة وثلاثين بيتا نورد منها مايلي :

يا رجال «البيان» هذي التحيات تنــاجيكم بهــا شهـدانــــا
والتهاني، عن الجزائــر، تتلوهـا عليكـم مـن الـــوغى قتلانــا
مــن حنـايـا بنـاتنـا وبـنينـــا وضحايـا رجالنـا ونسـانـــا
فـاقبــلوها زكيـــة طاهـــرات طيبـات تعطـــر المهـرجـانـــا

وفي شهـر سبتمبر من نفس السنة استشهد مصطفى فروخي وكافة أفراد أسرته بينما كان في طريقه إلى بيكين حيث عين سفيرا للجمهورية الجزائرية.

وكان الشهيد من أصدقاء مفدي الذين تربطهم به ذكريات النضال داخل صفوف ماكان يسمى قبل الثورة بالحركة الوطنية الجزائرية.

وحينما نقلت رفاة الشهداء إلى تونس حيث اقيمت جنازة رهيبة كان مفدي في مقدمة الحاضرين والقى مرثية يمكن اعتبارها من اروع شعره :

أي صقر في السموات اختفى ؟ اي نجم في النهايات انطفى ؟
اسفيرا نحو املاك السما أم لبيكين بعثتم مصطفى ؟
أم رأى في الأفق ماقدراته في بلاد الصين نبلا .. فهفا ؟
أم هما في ناظرية اشتبها ظن ان الأفق صينا فاكتفى ؟
أم رأى الخلد قريبا فدنا ورأى أمثاله فانعطفا ؟
مصطفى ، اشرق على الشعب سنى واغمر الأرواح عطرا ومنى

كن سفيرا حيثما شئت .. تجد في السما .. أو في الثرى .. انصارنا
وارو للأفلاك عناقصة كنت من ابطالها في حربنا
واحك عن ثورة شعب مارد عبقري يتحدى الزمنا

ودائما في نفس السنة وفي السادس والعشرين من شهر جويلية انعقد بمدينة تونس المؤتمر الرابع للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين الذي ضم حوالي ستين مشاركا جاؤوا يمثلون كل الطلبة الثوريين الذين يدرسون في مختلف أنحاء العالم.

وقد شارك في المؤتمر كملاحظين عدد من الممثلين لاتحادات الطلبة في العالم، قدموا إلى تونس يعبرون لزملائهم الجزائريين عن تأييد دنيا الطلاب للكفاح العادل الذي يخوضه الشعب الجزائري منذ ما يقرب من ست سنوات.

ومن جملة الاتحادات التي كانت حاضرة بقوة اتحاد الطلبة الفرنسيين والطلبة في ألمانيا الغربية وأمريكا، معنى ذلك أن شعوب البلدان الأعضاء في الحلف الأطلسي لم تكن كلها متفقة مع أنظمتها الحاكمة التي كانت تساهم ماديا في المعركة إلى جانب القوات الاستعمارية.

وكان المؤتمر فرصة ثمينة استغلها المسؤولون عن الاتحاد لتقديم العروض الوافية عن تطور الكفاح بالمناطق التي يعيشون فيها ولتمتين العلاقة النضالية

مع طلاب العـالم وبصفة خاصة مع طلاب المعسكر الغربي الذين يشكلون النواة الفاعلة للقوى المساندة لمطالب الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال. وقد كانت الحاجة ماسة إلى تحريك الرأي العالمي في ذلك الحين خاصة بعد رفض الحكومة الفرنسية التفاوض مع القادة المعتقلين وبعد فشل مفاوضات «مولان».

أيهـا المهـرجان والأرض حيـري — والليـالي مـن الزمـان حبـالـي
يا أساة الزمان يا معشر الطـلاب — يشكـو الزمـان داء عضـالا
يا شمـوع البلاد في ظلمة الليل — وعهد الظلام في الشعب طـالا
خلـدوا في جزائر الغد للطـلاب — فكـر وشـرفـوه فعـالا

وعندما يتتبع الدارس انتاج مفدي المنشور ـ لأن هناك الشيء الكثير الذي ضاع أو ما يزال مخطوط، فإنه يجد أن الشاعر كان ملتزما بقضيته الوطنية لا يدع منـاسبة تمر دون الاشارة إليها مذكرا بالبطولات التي يصنعها جيش التحرير الوطني بالنور والنار على أرض المعركة، أو منددا بمواقف فرنسا الاستعمارية الـرافضـة لنـداء الـرأي العام العالمي الداعي إلى احلال السلام على أرض الجزائر، أو بمواقف الشجاعة التي يتخذها محبو العدل والحرية في مختلف أنحاء المعمـورة، أو طالبـا المزيد من المساعدة يقدمها الأشقاء والأصدقاء لتحقيق النصر الذي لا ريب فيه.

هكـذا خلد مفـدي الـذكرى الخامسة لعيد استقلال تونس. وفي صلب القصيدة وجدناه يصرخ قائلا :

فمتى تدرك الصـواب فرنسـا ؟ — وإلى (مـا) رجالهـا تتعـامـى ؟
ومتـى تسمـع الضميـر فرنسـا — وتكـف الشـرور والآثـامـا
نحـن قـوم اهدافنـا ـ شهـد الله — ـ سـلام فبادلـونـا السلامـا
واحقنـوا هـذه الـدمـاء الغـوالي على هـذى الجـراح تلقـي التئـامـا
واتركونـا نفـرح بعيـد سعيـد — مـلا الكـون بهجـة وابتسـامـا

وفي الحفل التأبيني الأربعين الذي أقيم في اليوم السابع من شهر أفريل سنة واحد وستين وتسعمائة وألف لتخليد روح المغفور له محمد الخامس، أنشد شاعر الثورة قصيدة من الروائع ورغم المناسبة فإنه لم ينس وطنه ومراحل الكفاح التي

مر بها والمعركة التحريرية التي تخوضها بكل بسالة من أجل استرجاع استقلاله الكامل الذي يندرج في إطار وحدة المغرب العربي الاسلامي. قال مفدي في تلك القصيدة.

حبست شعري والهامي، على وطني فانساب ينشر في الدنيا معالينا
وهمت بالثورة الكبرى أساوقها أهز ـ في الثورة الكبرى ـ رواسينا
حلقت كالنسر في آفاق حاضرنا وغصت كالسحر في أعماق ماضينا
كم صفقت لأناشيدي مدافعنا وأطرقت لتسابيحي فوادينا
فكان شعري والرشاش في مرح هذا يغني. . وذا يزجي التلاحينا
وكان للجيش تنزيلا، يرتله وقد تنزل يفتك الميادينا
وللجزائر تباينا تلقنه من ليس يفهم في الدنيا معانينا
وكان للمغرب الجبار ملحمة تهز أفراحنا فيها مآسينا
وللعروبة في الأجبال، مكتبة اعجازها يتحدى من يبارينا

وفي مهرجان الشعر العربي الذي انعقد بدمشق في شهر سبتمبر عام 1961، توجه مفدي في قصيدة مطولة إلى أبناء الوطن العربي على اختلاف مواقعهم ومستوياتهم يدعوهم إلى الالتفاتة الجدية لما يقوم به اشقاؤهم في الجزائر وإلى التضامن الفعلي الذي لا يقف عند ذرف الدموع وحبر الاعلانات ووقع الكلمات :

يامسعدينا (بدمع) في رزيتنا ومسعفينا بعطف في بلايانا
ذروا العواطف. . فالرشاش يجهلها وحدة السهو لا تحي ضحايانا
وصالح الدعوات. . النار تنكرها مالم تقدم لها الأعمال برهانا
وليس تجري قرارات على ورق ان لم يك الفعل ايضاحا وتبيانا

وكان مفدي يرى أن المؤازرة الحقيقية انما تكمن قبل كل شيء في مقاطعة العدو سياسيا ومحاربته اقتصاديا. ويعطي نماذج لتلك المحاربة فيقول :

متى تلح من ذوي القربى (مقاطعة) يسعد بها ثمن الفستان جرحانا
ويكفنا ثمن القرفيل أرغفة نطعم شيوخا بها ـ جوعى ـ وصبيانا
هل بالمساحيق نذرو جند غاصبنا ؟ أم بالعطور نفدي ثغر مرسانا

أم بالعشيقـات نغـزو حلـف اطلسهـا فيكبـر الأطلس الجبـار مسعـانـا
صبغ الشفـائف تغني عنـه قانيـة دماؤنـا يـوم نهـديها عذارانـا
وفي المدامـع عطـر لا يضارعـه ما جـريف أيان تذريهـا صباياـنا
وفي الأنـين رنـين الجـاز متـزنـا تجيـد عـزف موسيقـاه يتامـانـا
وعن دمـالـج باريس لنا عـوض نعم الدمالج من أوصـال قتلانـا
يـا نـاعس الطـرف هـل راعتـك محنتنـا أم عن كـوارثـنـا لازلـت نعسـانـا
ان تعـط مالـك. . فاذكـر يـوم تنـفقـه انـا مـن المهـج الحـرى عطـايانـا
وابـذل مـع الحـب حبـا نستعـين بـه فـالحب ينقـذنـا والحـب يرعـانـا

وبمنـاسبـة الـذكرى الخامسة للاعتداء الثلاثي على مصر كان مفدي في بيروت التي وصلهـا بدعـوة من الـدوائـر الثقافية هناك. وتذكر أنه كان يوم الاعتداء، وهو بالسجن قد نظم عشرة أبيات كلفته بعد ان اكتشفها الحرس عشرين يومـا في زنزانة العذاب فراح يستحضرها وبنى عليها قصيدة عنوانها «يا جمال» استعرض فيها أوضاع الوطن العربي ومناورات العرب الذي يهدف بالدرجة الأولى إلى مواصلة السيطرة والاستبداد ولم ينس الشاعر جائره الثائرة سيعى أبناؤها بدمائهم للقضاء على عهد الذل فقال مخاطبا أبناء الأمة العربية :

وهـل نصـرنا كفـاحـا في جـزائـرنـا يشـق (سبعـا شـدادا) ملؤها شمـم ؟
بالمـال والنـار لا بالعـطف ننجـدهـا فـلا الأنـاشيد تغنيهـا ولا النغـم
ولا الصـلاة على الأمـوات تكسبهـا نصـرا ولا الخـطب الجـوفـاء والكـلـم
لـن يطمئـن عـلـى استقـلالهم عرب وفي الجـزائـر نار الحـرب تضـطـرم

وعندما احتفل المغرب الأقصى بالذكرى السادسة لعيد استرجاع استقلاله في اليوم الثامن عشر من شهر نوفمبر سنة واحدة وستين وتسعمائة وألف، هنأه شاعر الثورة الجزائرية بقصيدة مطولة كان حظ الجزائر فيها ثمانية عشر بيتا نورد منها مايلي :

وانجـدت فـي الويـلات شعبـا مجاهـدا يضـحي فـداء في مذابـح عـدوان
ويعلن بالرشـاش حـق وجـوده ويدفع للتحـرير مليـون قربـان
تصـوم بـة الآلاف عن أكـل لقمـة يقـدمها ـ مسمـومة ـ كـف سجـان ؟
وكيـف يطيب الأكـل من كـف جـائع يقـابل معـروف القمـوح بنكـران ؟

وينســى مـا تنسى الجزائــر قصـة يـرددهــا عن غدرهــم كــل انســان
وتسمننـا الأحجـار نقضـم صخـرها ونبلـغ ـ ان جعنـا ـ شعـاليـل نيــران

كانت هذه بعض الأمثلة ودونها كثير للتدليل على أن مفدي لا يدع مناسبة دون الاستفادة منها لخدمة الثورة. وكما كان رائدا في عملية الاعداد للثورة فإن دوره كمقاوم أثناء فترة الكفاح المسلح، كان أساسيا، ولا يمكن مقارنته بأي من المثقفين الذين سنتحدث عنهم في هذا الفصل الثاني، لأنه يمتاز عنهم بالاسهام الفعلي المسؤول إلى جانب الرواد الأوائل في تهيئة جيل التحرير وبالالتزام الواعي مع جبهة التحرير الوطني التي بدأ النضال في صفوفها إلى جانب مجموعة من ابرز قادتها منذ اللحظات الأولى.

أما الآخرون فإنهم صنيعة التطور الثوري الذي أسهم مفدي في انجازه.

النمـوذج الثـاني



فرانتــز فانــون

هناك لحظات في تاريخ الانسان من الصعب جدا نسيانها، لأنها تطبع حياته بختم البقـاء والخلود، وتصير منعطفا حاسما تتغير بمقتضاه كثير من المفاهيم وتطرح القضايا عارية بعيدة عن تأثير الآخر، وتعالج المشاكل بشجاعة الانا المتحرر من عقد النقص والعنصرية والاستغلال.

هذه اللحظات قد عاشها فرانتز فانون سنة 1956 عندما قدم إلى الوزير المقيم في الجـزائـر استقالته كتابيا من منصب رئيس مصلحة طب الأمراض العقلية بالبليدة فمما ورد في الرسالة (منذ شهور طويلة وضميري مقر لمداولات لا ترحم. خلاصتها هي التصميم على عدم اليأس من نفسي. وقررت ألا أتحمل مسؤولية موقف سلبي بحجة أن ذلك هو المخرج الوحيد...)

واقـترنت هذه العبـارات المسؤولية الصادقة بالانضمام الرسمي إلى جبهة التحرير الوطني. على أن الاتصال بواقع الشعب الجزائري وكفاحه المسلح انما كان قبل ذلك بسنوات، في فرنسا عندما كان طالبا، وفي البليدة عندما قدم اليها سنة 1953، ويطلب منه يمارس مهنته الشريفة خدمة للانسان في الجزائر الذي كان يرى فيه على حد تعبيره صورة ناطقة لكل مغرب في الأرض ونموذجا حيا لكل واحد من أبناء المارتنيك الذين ضاعوا في متاهات المسخ والتشويه.

ومنذ ذلك الحين، راح فانون يناضل ويستميت على جبهات متعددة لا من أجل تحرير الجزائر فحسب، ولكن وبالدرجة الأولى في سبيل ايجاد الأرضية السياسية الصلبة التي يمكن أن تؤدي إلى اصلاح أحوال العالم الثالث حتى يكون بحق تلك القوة الأصيلة الجبارة التي تغير وجه العالم، وتعيد للانسان حقوقه الشرعية في الكرامة والشرف والسيادة والحرية.

لقد كان فانون قبل ذلك التاريخ مرتنيكي المولد، فرنسي الجنسية حسب منطق الاستعمار الفرنسي الذي قرر ذات يوم، ودون استشارة احد، أن جزيرة المارتنيك واحدة من العمالات الفرنسية فيما وراء البحار. . . وامثال هذا القرار لم تعد تدهش أحدا لكثرتها في تاريخ الامبرالية الفرنسية خاصة. ونحن في الجزائر تعرف ذلك أكثر من غيرنا لأننا مررنا بنفس التجربة، ولم نتخلص من خرافة العمالات الثلاث، إلا حينما دفعنا ثمنا باهضا يتمثل في مليون ونصف مليون من الشهداء زيادة على ما أصاب البلاد من تخريب في جميع الميادين وعلى القمع الوحشي الذي تعرض له المجتمع والذي مازلنا نعاني الويل من عواقبه، هذا إذا سكتنا على آلاف الأرامل والأيتام والمعطوبين والمسلوبين إلى غير ذلك.

ويقول المؤرخون «السادة» ان كريستوف كولمب هو الذي اكتشف المارتنيك سنة 1493، أما قبل ذلك التاريخ فإنها لم تكن على وجه المعمورة. . . ما أتعس البلدان المتخلفة. . . انها تشبه أشخاص الرواية : يصنعها المؤلف حسب الدور الذي يعدها له، دون أن يكون لها حول ولا قوة في التعديل أو التغيير.

والغريب أن القلم رفع بعد التاريخ الاكتشاف لاختفاء نشاطات الانسان الأوربي، ولم تعد الكتابة غزيرة عن تلك الجزيرة الا عندما تولى بيار بيلان داستامبوك استعمارها سنة 1635 لحساب فرنسا، وأسس فيها مدينة سان بيار. التي ستظل هي العاصمة إلى أن يأتي عليها طائف من ربك وهي نائمة. وذلك الطائف هو بركان الجبل الأجرد الذي تفجر نارا ودخانا قاتلا سنة 1902. فنقلت العاصمة الى فوردو فرانسا التي تأوي اليوم حوالي ثلث سكان الجزيرة.

وحينما توفي المستعمر المؤسس ترك الخلافة لابن أخته جاك دياركي الذي جاء بتجديد حضاري كبير، يتمثل على الخصوص في ادخال زراعة قصب السكر وجلب البيكي وهم بمثابة من كنا نسميهم الأرجل السوداء، وأخيرا تجارة العبيد المستوردين من مختلف أنحاء إفريقيا لخدمة المغارس، وتوفير شروط الراحة والأمن والاستقرار للأبيض المستغل. كان ذلك كله إبتداء من سنة 1650.

ومنذ ذلك الحين، صار البيكي يشكلون طبقة أصحاب السلطة والنفوذ

والقرار بالنسبة لكل شيء، وفي جميع الميادين ويذكر أنهم اليوم حوالي أربعين أسرة تملك معظم أراضي الجزيرة وتسيطر على كافة أنواع النشاط الاقتصادي والسياسي. أما العبيد فإنهم امتزجوا بالأهالي وأصبح الجميع جزءا من تلك الأرض يستغلون مثلها بلا شفقة ولا رحمة ويدون مقابل.

لقد كادت هذه التفاصيل أن تنسينا الاشارة إلى أن الجزيرة تقع في ارخبيل الانتيل. يحدها غربا بحر الكرائب، وشرقا المحيط الأطلسي وفي الشمال تطل على قنال عرضه حوالي ثلاثين كيلومترا يفصلها عن جزيرة دومينيك، كما أنها تطل في الجنوب على قنال آخر مماثل، يفصلها عن جزيرة سان لوسي.

مساحة الجزيرة تقدر بحوالي ألف ومائة كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها ثلاثمائة وخمسين ألف نسمة حسب الاحصاء الرسمي الفرنسي. وتبعد عن الوطن الأم بمسافة قصيرة جدا لا تقل عن سبعة آلاف كيلومتر، تقطعها طائرة البوينغ من نوع 747 في ظرف ثماني ساعات ونصف... ما أوسع الامبراطورية الفرنسية واعظمها : عندما يكون منتصف الليل في أحد أجزائها تكون السادسة صباحا في بعضها الآخر.

من حيث المناخ، تمتاز البلاد بفصل معتدل وجاف يمتد من شهر ديسمبر إلى شهر ماي، ولا ينبغي أن يفهم من كلمتي معتدل وجاف ان الحرارة تقل عن خمس وعشرين درجة الا نادرا، معنى ذلك أن الزائر يجب أن يذهب إليها دائما بثياب الصيف الخفيفة جدا أما الفصل الثاني فيمتد من شهر جوان إلى شهر نوفمبر، وهو حار جدا ورطب للغاية وفي بعض الأحيان تتخلله الأعاصير التي تحدث كثيرا من الأضرار في مجال الزراعة خاصة. وهنا تجدر الاشارة إلى نكتة مشتركة بين الكوبيين والمارتنيكيين تقول ان الاعصار نوعان : ذكر إذا كان هادئا نسبيا لا يتلف كل شيء، وانثى إذا كان صاخبا يضرب بقوة لا تعرف الرأفة. وهناك أسماء متداولة تطلق على كل نوع.

وعلى الرغم من تلك الأعاصير الأمطار الغزيرة التي تميز الفصل الثاني خاصة، فإن السواح لا ينقطعون طيلة السنة، يأتون من كل الأنحاء الباردة يتزودون بما يحتاجون إليه من شمس ويداعبون أمواج البحر في غير أوقات الاعصار طبعا.

ومن الناحية الادارية سبق إن ذكرنا بأن المارتنيك عمالة فرنسية لذلك فهي تسير من قبل عامل فرنسي يعين على غرار العمال الآخرين شريطة الا يكون من أبناء البلد. وتشتمل العمالة على ثلاث دوائر وأربع وثلاثين بلدية ينتخب رؤساؤها من الأهالي.

أما المسؤولون عن الأمن بأنواعه والادارة بمختلف فروعها فكلهم من الوطن الأم لتكون الحضارة في مأمن وليتحقق التطور والازدهار والرقي.

وأما سياسيا، فعلى الرغم من كون الجزيرة جزء لا يتجزأ من فرنسا تخضع للسياسة الفرنسية في الداخل وفي الخارج الا أن هناك تشكيلات محلية مثل حزب الشعب المرتينيكي والحزب الشيوعي المرتينيكي والفدرالية الاشتراكية ومجموعة من الفروع النقابية التابعة لهذه التشكيلات أو المرتبطة رأسا بالمركزيات في الوطن الأم. سنعود مرة أخرى إلى الحديث عن هذا التنظيم الغريب أما الآن فهيا نرجع إلى فرانتس فانون.

لقد كان القرار الذي اتخذه سنة 1956 حاسما وتاريخيا في آن واحد. اننا لا نقصد الاستقالة في حد ذاتها، لأن كثيرا من الاطارات في جميع المستويات يستقلون يوميا من مناصبهم، وأكثر من ذلك الأطباء الذين يعملون القطاع العمومي فيغادرونه بطريقة أو بأخرى إلى القطاع الخاص الأكثر مردودية والأفضل من جميع الأوجه بالنسبة للمصلحة الشخصية لكن فرانتس لم يستقل من أجل نفسه وانما أراد أن يجعل من فعله موقفا نضاليا في إطار الكفاح التحريري الذي تخوضه الجزائر ومن خلالها سائر البلدان المستعبدة ضد الاستعمار والاستغلال والامبريالية.

لأجل ذلك ارتفع صوت قانون «الفرنسي» مدويا يعلن للملأ أنه اختار الجزائر وطنا، وجبهة التحرير الوطني اطارا للدخول في معركة الانسان ضد الظلم والطغيان ضد الاستبداد والاستغلال، ضد الاستعمار والتمييز العنصري بقطع النظر عن المكان والزمان وبصرف النظر عما يمكن أن يترتب عن ذلك من عواقب وما يمكن أن يتطلبه من تضحيات.

ووصل صوت الثائر الى فرنسا والمارتنيك، فعد ذلك خيانة للأمة الفرنسية، وعز على المرتنيكيين ان يكون الخائن من أبناء الجزيرة، فتنكروا له واستنكروا

فعلته تلك . . انهم لم يكونوا قد قرؤوا بعد كتابته الأول : (بشرة سوداء وأقنعة بيضـاء) . لكنهم أدانوه فقط ارضاء للنظام الاستعماري الذي تمكن في تلك الفترة من اقناعهم بأنهم فرنسيون كاملو الحقوق .

فمنذ ذلك التاريخ نسي المارتينيكيون فانون، ونبذوه إلى درجة أن الشباب صار قبل سنة 1982 ، لا يعرف عنه شيئا رغم ما حدثته مؤلفاته من ثورة في عالم النضال السياسي وفي الميدان النظري بصفة خاصة .

لك الله والجزائر يا فانون :

نبذتك المارتنيك واتهمتك بالخيانة العظمى وهي تعلم أن سنوات الطفولة والشباب التي قضيتها في فورد وفرانس مليئة بما يفند كل اتهام . يعرف الجميع انك كنت طفلا مهذبا تلميذا مجتهدا ورياضيا بارعا، كما أن كل أبناء الجزيرة يعرفون انك تحديت سلطات الامرال روبار لتلتحق بصفوف ديغول تدافع عن فرنسا الحرة ضد القوات النازية .

ونبذتك الشيوعية رغم مواقفك الثورية ضد الاستعمار والامبرالية ، وذوبانك في الكفـاح الدائم الذي يخوضه المعذبون في الأرض، لأن نظريتك الخاصة بالثورة تتعارض مع نظرية الماركسية .

وشنت عليك الامبرالية حملة الاعلامية أدت إلى محاصرة أفكارك ، وتضييق الخناق عليها إلى درجة أنك كدت تنسى نهائيا في هذين العقدين الأخيرين .

ولئن كانت الأغلبية الساحقة من سكان المارتنيك راضية بوضعها ، تعتقد فعلا بأنها فرنسية بأتم ما في الكلمة من معنى إلى درجة انك تجد المرء منهم يحتج بشدة عندما تحاول أن تنكر عنه ذلك ، فإن بعض الاطارات من النخبة تدرك أن الذي يربطها بفرنسا انما هو الاستعمار فقط ، ورباط الاستعمار نعرفه جميعا : لا يخرج عن دائرة الاستغلال في أجواء الاضطهاد والاستبداد .

ففي هذا السياق أوردت مجلة «انتيـلا» في عددها الخامس عشر، الصادر بتاريخ اليوم الأخير من شهر مارس سنة 1982 ، خبرا كتبه السيد ب / ب «ربـما تعمـد الكاتب اختصار اسمه نظرا لخطورة تصريحه» مفاده أن الرئيس ميتران أكـد لنـواب عمالات ما وراء البحـار (ان الانتيل فرنسية وستبقى كذلك . . . وإنني احفظ سلامة بلدي فرنسا) ويضيف صاحب المقال أنه يؤيد

كلام ميتران في موقفه ولكنه يختلف معه في تحديد فرنسا الجغرافي، حيث يقول مستنـدا إلى لاروس، صفحة 1344 الطبعة الثانية «ان فرنسا دولة في غربي أوربا، يحدها في الشمال الغربي بحر المانش وبحر الشمال، وفي الشمال الشرقي بلجيكـا واللوكسامبورغ وألمانيا، وفي الشرق سويسرا، وفي الجنوب الشرقي إيطاليا وأخـيرا في الجنــوب وفي الغــرب البحـر الأبيض المتـوسط والمحيط الأطلسي»، أمـا ماعـدا ذلـك فليس بفـرنسا ولكنه اغتصاب أو اعتداء وفي الحالتين يجب أن يصلح، وأفضل طريق لذلك هو السماح لمختلف الشعوب التي مازالت تدور في فلك الامبراطورية الفرنسية الاشتراكية ان تقرر مصيرها بكل حرية وديمقراطية وفقا لنصوص الأمم المتحدة المتعلقة بإزالة الاستعمار.

ودائـما في نفس المجال، وبمناسبة افتتاح ملتقى تخليد الذكرى العشرين لوفاة فانون ألقى السيد تيسوروس رئيس جامعة الانتيل خطابا ملهبا وملهما في آن واحد جاء فيه :

«لقـد بعث فانـون اليوم من جديد. وإني أراه يجر الانتينيين من أرجلهم لعلهم يعودون إلى واقع معركة التحرير الوطني. . . وإنه لمن الاحتيال ان نمجد فانون ونسير في ركاب السلطة الاستعمارية حتى ولو كانت مرتدية لباس اليسار».

وإذا كانت هذه النخبة مقتنعة كل الاقتناع بأن المارتنيك ليست فرنسية، ولا يمكن أن تكـون كذلـك لأسباب عديدة مثل التي ذكرنا، واختلاف الأصل والبشرة والعادات والتقاليد والسلوك، أي اختلاف الثقافة والجنس بقطع النظر عن اختـلاف الماضي وتباين الحاضر واستحالة المصير الواحد، فإنا (النخبة) مازالت متذبذبة فيما يتعلق بطريقة الوصول إلى الخلاص النهائي من السيطرة الأجنبية.

إن الاطارات السياسية في هذه الجزيرة خاصة تعتقد بأن تحقيق الاستقلال يجب أن يمر حتما بيقظة الجماهير الشعبية التي مازالت في معظمها لا تميز بين هويتها والهوية الفرنسية، كما أنها لا تؤمن بإمكانية الاستمرار في الحياة بدون فرنسا. فالسلطات الاستعمارية التي استفادت من تجربتها في الجزائر قد بذلت مجهودات جبارة لخلق الأجواء الخانقة لبوادر الثورة. ومن جملة ما قامت به انها

وفرت شروط الدراسة لكل أطفال المارتنيك وسمحت بممارسة كثيرا من الحريات التي لا تعكر صفو الوجود الاستعماري، كما أنها عملت على ارساء قواعد معيشية مصطنعة تجعل المواطن يفكر بأن خروج الاستعمار سيقضي عليها لأنها ناتجة في أغلبيتها عن المساعدات المالية المتأتية من الوطن الأم.

ان كثيرا من المواطنين اليوم يقولون بكل صراحة نحن لا نريد الاستقلال لأن الجزيرة ليس لها من الموارد ما يكفينا للحفاظ على المستوى الذي وصلنا إليه... إن السلطات الفرنسية توفر لنا كل ما نحتاج إليه من غذاء ولباس وتعليم، وإذا تعطل احدنا عن العمل فإنه يتقاضى منحة البطالة التي تعطى كذلك للمرأة الوحيدة التي تربي طفلا أو أكثر.

هذا الطرح الساذج لموضوع الاستقلال هو السائد خاصة في أوساط الجماهير الشعبية ودعاة الاستمرار في عملية الدمج الكلي. ذلك الدمج المستحيل، لأن المرتنيكي الذي يذهب إلى فرنسا، زائر كان أم عاملا، يشعر بكل سهولة أنه لا يمكن أن يصبح فرنسيا حتى ولو بذلك كل ما في وسعه من جهد واستعمال مالديه من إرادة حسنة.

ان المرتنيكي أسمر البشرة أو أسودها أما البيض من الأهالي فعددهم قليل. وأغلبية الفرنسيين لهم حساسية خاصة إزاء الأجانب بصفة عامة والملونين بصفة خاصة.

إن للمرتنيكي ثقافة وطنية أساسها تجارة العبيد التي مارستها أوربا الاستعمارية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر من أجل جلب ملايين السواعد القوية من إفريقيا جنوب الصحراء للاعتناء بمغارس قصب السكر والموز والبن والتبغ إلى غير ذلك مما ستتخصص في انتاجه أمريكا اللاتينية.

وهناك نقاط تمايز أخرى كثيرة تفصل بين معظم أفراد الشعبين، ويعترف بوجودها تلقائيا حتى أكثر المارتنيكيين والفرنسيين تحمسا للمزج والذوبان الكلي. ولقد سمحت لي الظروف أن أشاهد قبل أيام طاولة مستديرة متلفزة حول فرانتس فانون، شارك فيها مجموعة من المثقفين الذين درسوا مؤلفاته أو رافقوا صباه وشبابه. وابرز الوجوه المشاركة في تلك الطاولة شخصيتان معروفتان عالميا هما : السيد ماندوز والأستاذ مارسال مانفيل عضو المكتب السياسي

للحزب الشيوعي المارتنيكي. سأورد فيما يلي الملاحظتين التاليتين تدعيما لكل ما ذكرت.

الملاحظة الأولى هي أن كثيرا من المشاركين والمشاركات في الندوة عن طريق الهاتف سألوا مانفيل عن السبب الذي جعله شخصيا وجعل فانون يتزوجان من امرأتين فرنسيتين ويتركان بنات البلد. وكان الالحاح على هذه النقطة كثيرا حتى اضطر الأستاذ مانفيل ان يجيب بعنف قائلا : ان الفرنسيات، في الستينات والسبعينات كن يتفهمن قضايانا النضالية أكثر من المارتنيكيات وهذا وحده دليل كاف على أن المواطنين البسطاء والنخبة في المارتنيك يشعرون، ونحن في سنة 1982 ، بأن هناك فرقا بين الفرنسية والمارتنيكية على الرغم من أن بطاقات التعريف وجوازات السفر التي يحملها كل سكان فرنسا وجزر الانتيل تثير إلى أن جنسية الجميع واحدة وهي فرنسية.

والملاحظة الثانية هي أن السيد ماندوز كان يركز في حديثه عن خاصيات الشعب المارتنيكي. ومكانة ماندوز بين المثقفين الفرنسيين معروفة، لذلك نستطيع القول بأن النخبة الفرنسية المتنورة مدركة بأن للمارتنيكي كيانا مستقلا، وان الأوضاع الحالية غير طبيعية وزوالها محتوم ان آجلا أو عاجلا.

ان هذا المشكل لم يكن مطروحا بالنسبة لفانون الذي رفض الهروب من الواقع الجزائري الذي عبر عنه في رسالة إلى أحد أصدقائه قائلا :

«من بين ثلاثمائة عربي، هناك واحد فقط يجيد التوقيع. وانه لأمر محزن يجب أن ينتهي. ولقد سمعت بنفسي مديرة مدرسة تشتكي من انها مجبرة، وفي كل سنة على قبول بعض الأطفال العرب في مدرستها».

وعندما ابدى لها استنكاره، أجابته بأن اخراج العرب من حالة الأمية من شأنه أن يعقد حياة الأوربيين وان العرب كلما ابقوا في الجهالة كلما كان افيد للفرنسيين.

ويستمر فانون في تعبيره عن الواقع الذي اوجده الانسان الأوربي متعمدا ويعمل الانسان الجزائري بشتى الوسائل إبتداء من ليلة الفاتح نوفمبر على تغييره، فيقول : ان المشهد يشتمل على : ملايين الصغار يمسحون الأحذية ويحملون مشتريات السيدات الأوربيات. . . ملايين الناس من الذين يتسولون

رغيف خبز. . . ملايين لا يقرأون ولا يكتبون. . . ملايين بصمات الأصابع على المحاضر التي تقود إلى السجون، وعلى العقود التي تلحق بفيالق القناصة الجزائريين. . . ملايين الفلاحين المستغلين المخدوعين المسروقين المستعبدين من الرابعة صباحا إلى الثامنة مساء، أي من طلوع الفجر إلى طلوع البدر. . . الفلاحين الذين تملأ بطونهم بالماء والحشائش والخبز اليابس. . . الفلاحين بلا أراضي. . . الفلاحين الأحياء الأموات.

ولم يكتف فرانتس فانون بالبقاء في ذلك الواقع، بل أنه لم يتردد في الانضمام مبكرا وطواعية إلى الطليعة الواعية التي هبت تقدم نفسها ثمنا التغيير. والتحق بصفوف جبهة التحرير الوطني في المغرب الأقصى ثم في تونس يحرر إلى جانب اخوانه المجاهدين صفحات اللسان المركزي للثورة.

وكان فانون في مقالاته يعبر عن رأي المجموعة التي كانت مكلفة بالاشراف على إعداد المجاهد واخراجه. وعلى عكس ما يزعم بعض الكتاب الغربيين، فإنه لم يكن منظرا للثورة، ولكن واحدا من الأقلام الجيدة التي كانت لها القدرة على التخليص والتحليل انطلاقا من الأفكار التي تصدرها القيادة السياسية ومن التجربة الميدانية السياسية والعسكرية على حد سواء.

ومن خلال قراءة تلك المقالات، يشعر المرء بأن الطبيب الكاتب كان يوظف ثقافته الواسعة ومعرفته الدقيقة للاستعمار الفرنسي في معالجته للقضايا التي تحددها هيئة التحرير بعد أن تتلقى التوجيهات من المسؤولين عن الاعلام.

هكذا استطاع في دراسة نشرها على أعمدة العدد العاشر من المجاهد ان يكشف للرأي العام الدولي خاصة عن المحاولات اليائسة التي قامت بها سلطات الاحتلال قصد اخماد صوت الثورة.

ان عجز فرنسا عن فهم المد التحرري والتكيف معه قد جعلها في الشهرين الأخيرين من عام 1954 والأشهر الأولى من سنة 1955، تحاول حصر أسباب الكفاح المسلح في استفحال المشكل الاقتصادي والاجتماعي مما حدا بها إلى الاعلان عن عزمها على خوض معركة حاسمة ضد البؤس والفاقة والأزمة السكينة التي تثقل كواهل السكان الأصيليين.

ولقد جندت لخوص تلك المعركة بنجاح كل ما بقي لها من أعوان وعملاء،

انتشروا عبر مختلف أنحاء البلاد يعدون ويتوعدون باسم «الأم الحنون». واستعملت الاذاعة وأعمدة الصحافة لنقل تصريحاتهم ونشر بيناتهم الموجهة إلى المواطنين من أجل حملهم على الابتعاد عن جبهة التحرير الوطني ووضع كل الثقة في السلطات الاستعمارية التي بامكانها أن تعيد الأمن والاستقرار إلى البلاد وتعمم الخير والرفاهية على الناس.

وإلى جانب هذا العمل التكتيكي المفضوح لجأت سلطات الاحتلال إلى تدبير مجموعة من العمليات الدنيئة التي من شأنها لو نجحت أن تزرع الشقاق في أوساط المجتمع الجزائري وتحول الثورة إلى حرب أهلية يكون لها فيها دور الحكم والمهدىء أو حتى دور المنقذ من الهلاك والفناء.

ومن جملة هذه العمليات تلك التي استهدفت ضرب بعض المحلات التجارية التابعة للمزابيين في عدد من المدن والقرى وتوزيع بيانات باسم جبهة التحرير الوطني تتبنى ذلك وتدعو كافة الشعب الجزائري لمقاطعة أبناء وادي ميزاب باعتبارهم رافضين للانضمام إلى صفوف الثورة.

وواضح أن هذه العملية ترمي إلى عزل الأقلية الاباضية عن المجتمع وخلق بذور الفتنة في أوساط الجماهير، لأن المزابيين كانوا منتشرين عبر سائر أنحاء الوطن : يتعاطون التجارة التي حذقوا فنونها، والاشراف على جزء من مرافق الخدمات العمومية مثل الحمامات والفنادق.

غير أن هذه المحاولة قد باءت بالفشل نتيجة يقظة القيادة العليا لجبهة التحرير الوطني التي سرعان ما اصدرت منشورات تكذب مانسب إلى الثورة من مزاعم وتدعو إلى التآخي والتضامن وتعيد إلى الأذهان بأن الشعب الجزائري واحد في السراء وفي الضراء، وان الانقسامات لا يمكن أن تفيد سوى العدو الذي هو أيضا واحد.

أما العملية الثانية فإنها تتعلق بما وقع في ملوزة، وهي تهدف إلى تقديم جبهة التحرير الوطني في زي التنظيم المتحيز لبعض القبائل المجاورة لها. ولقد استطاعت المناورات الفرنسية أن تجعل من ملوزة قضية احاطتها بكثير من الغموض ووظفت بشاعتها داخليا وخارجيا. بل أنها لم تتردد في تقديمها كورقة مضللة لهيأة الأمم المتحدة.

وهناك عمليات أخرى خططت لها السلطات الاستعمارية بمساعدة الأعوان والعمـلاء ترمي في مجملها إلى ايهام الرأي العام الوطني في الجزائر بأن هناك فوارق ثقـافية يجب احـترامهـا، وكيانـات عرقية يجب صيانتهـا، وبسعيهـا التوحيدي ومسعاها الثوري، فإن جبهة التحرير الوطني تعاكس التاريخ وتدمر كل ذلك.

وفي المقال المذكور أعلاه، كتب فانون بأن هذه العمليات كلها قد اشتملت على خطأ مشترك يتمثل في كون السلطات الفرنسية نسيت بأن جبهة التحرير الـوطني هي الشعب الجـزائـري بأكمله والضمير الوطني الذي لا يمكن أن يخادع. لأجل ذلك فإن مفعول كل هذه العمليات كان عبارة عن سحابة صيف طلت وبسرعة اختفت. ثم ختم يقول:

«نعم، ان الشعب الجزائري صفوفه موحدة ومتراصة، لأن شعاره واضح وبسيط بكيفية لا مثيل لها وهو: تحقيق لاستقلال الوطني بواسطة الكفاح المسلح».

«ان جبهة التحرير الوطني ليست حركة نقابية وهي ترفض كل المساومات، كما أن المجلس الوطني للثورة الجزائرية لا يمثل مجموعة مصالح، ولكنه قيادة أركان سياسية وعسكرية لأمة تكافح من أجل استرجاع استقلالها».

وفي مقال ثان نشر بنفس العدد من اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني تعـرض فانـون لأسـاليب التعـذيب التي تمارسها السلطات الفرنسية بشقيها السياسي والعسكري فقال:

«إن الممارسات المتأصلة في الفظاعة والتي ظهرت مع الفاتح من نوفمبر سنة 1954 تدهش خاصة بانتشارها السريع... وفي الواقع فإن موقف الجيوش الفرنسية بالجزائر انها يندرج في إطار الاستعمار البوليسي، والتمييز العنصري المطلق واللاانسانية المطبقة بانتظام. ان التعذيب لصيق بالواقع الاستعماري».

«والثـورة الجـزائرية، إذ تعمل على تحرير التراب الوطني، فإنها ترمي إلى القضاء على هذا الواقع، وإلى إقامة مجتمع جديد. ان استقلال الجزائر لا يعني فقط نهاية الاستعمار ولكن استئصال بذور الغنغرانية وإزالة أحد مصادر الوباء من هذا الجزء من العالم».

«إن الحديث يدور منذ مدة حول التعذيب الذي يمارسه الاجناد الفرنسيون ضد الوطنيين الجزائريين وقد نشرت بهذا الصدد نصوص كثيرة دقيقة ومرعبة. ووقعت مقارنات تاريخية. وقامت شخصيات أجنبية من بينها من يحمل جنسية فرنسية بإدانة تلك الممارسات».

«إن التعذيب في الجزائر ليس مجرد حادث ولا مجرد خطأ أو غلطة. إن الاستعمار لايعقل بدون إمكانية التعذيب والهتك والتقتيل. . إن التعذيب أساس في العلاقات بين المحتل والواقع عليه الاحتلال. . ورجال الشرطة الفرنسيون الذين ظلوا لمدة طويلة الممارسين الوحيدين لأنواع التعذيب، لا يجهلون ذلك».

«إن الشرطي الذي يعذب لا يخرق أي قانون في الجزائر. ان أعماله تتم في إطار المؤسسة الاستعمارية. وإذ يعذب، فإنه يبدي وفاء حقيقيا للنظام، وعليه فإن الاجناد الفرنسيين لا يستطيعون معارضة ذلك، وإلا فإنهم يدينون الاحتلال الفرنسي. فواجب كل فرنسي في الجزائر هو أن يتصرف كمعذب. وبما أن فرنسا تريد البقاء في الجزائر، فإنه لم يبق أمامها غير الحل الذي يكرس الاحتلال العسكري الدائم ويحافظ على منظمة بوليسية قوية».

وعندما نشر جورج آرنو وجاك فارجاس كتابهما «دفاعا عن جميلة بوحيرد» كتب فانون على أعمدة العدد الثاني عشر من المجاهد الصادر بتاريخ 15 نوفمبر سنة 1957 «إن دفاعكما عن جميلة بوحيرد يشرفكما، لكنه يهمل القضية الأساسية. . . إن الشعب الجزائري يعرف أن هناك جميلات أخريات، ويعرف كذلك أن الاستعمار يأمل أن يزعزع الارادة الوطنية. بمضاعفة الاعدامات».

إن الاعدام في حد ذاته لم يكن مزعجا بالنسبة للمناضلين الجزائريين الذين كانوا يدركون عندما اختاروا طريق الكفاح المسلح، ان الشهادة هي الوسيلة الوحيدة التي تجبر الاستعمار على التقهقر. وعلى الاعتراف بحق تقرير المصير. لكن الذي يعيبه فانون على مؤلفي الكتاب المذكور هو أنهما حاولا من خلال دفاعهما أن يقدما للشعب الفرنسي مناضلة جزائرية، مؤمنة بقضية، وقعت أسيرة في قبضة العدو، كفتاة مسكينة غرر بها، وهي في حاجة إلى تعاطف الجمهور الفرنسي لانقاذها من الموت.

هذه طريقـة المحـاماة في الدفاع وليست طريقة النضال من أجل مناصرة القضايا العادلة. ويرى فانون أن أسلوب فارجيس وآرنو دليل قاطع على شلل الضمير الفرنسي وتخلفه التاريخي. بل أنه لا يختلف عن الأسلوب الاستعماري الذي يهدف إلى الهاء الرأي العام بالقشور على حساب الجوهر. وفي حالة الثورة الجزائرية، فإن الجوهر ليس هو «بوحيرد أو زدور أو مجازر سكيكدة» ولكنه يكهن في جعل الشعب الفرنسي يقتنع بأن هناك شعبا يريد الحرية والاستقلال، وهو مستعد لدفع الثمن مهما ارتفع لتحقيق ذلك.

وفي الاعداد الثلاثة التي صدرت من المجاهد في شهر ديسمبر سنة 1957، نشر فانون دراسة خص بها المثقفين والديمقراطيين الفرنسيين الذين كان ينتظر منهم أن تكون مساندتهم مطلقة للشعوب المكافحة ضد الاستعمار وذلك لأنهم يعـرفون قيمة الانسان ويرفضون المساهمة في كل ما من شأنه أن يقضي على القيم، ولأنهم يدركـون تشابك المصالح لدى الطبقات الكادحة في البلدان المسيطرة ومجموع السكان في البلدان المسيطر عليها.

وإذا كانت المساندة التي يتحدث عنها فانون تقتصر بالنسبة للجزائر فيما قبل الثورة على تنظيم مهرجانات سنوية أو دورية للاعلان عن تضامن تلك النخبة مع الجماهير المحرومة والمستبد بها، فإنها بعد اندلاع الثورة قد أصبحت تعني شيئا آخر يمكن أن نعبر عنه بالضغوط المستمرة على الحكومة الفرنسية قصد اجبارها على احترام مبدأ حق تقرير المصير.

ولا يمكن لكل المثقفين والديمقراطيين الفرنسيين القيام بدورهم كاملا إلا إذا كانت لهم اتصالات حميمة بجماهيرهم وتأثير فعال عليها، وذلك يستحيل إلا إذا كانت لهم القدرة على الذهاب إلى تلك الجماهير بشتى أنواعها وحيثما وجدت يشرحون لها واقع النظام الذي يسيرها وحقيقة المأساة التي يعيشها أبناء الشعب الجزائري. أما فانون فإنه من خلال كتاباته قد قطع الأمل من تلك النخبة التي يرى أنها أصبحت أسيرة العاطفة والشوفينية. يقول في هذا الصدد :

«لقـد أصبحت حرب الجـزائـر منذ عام 1956، مقبولة من طرف الأمة الفـرنسية. وسيقـول السيدان قي مولي وبورجاس مونورى. إن فرنسا تريد

الحرب، وفي 14 جويلية سنة 1957 ، فإن الشعب الباريسي قد عبر عن عرفان الوطن لسفاحي ماسي من المضليين. وعند هذا الحد تخلى المتحرون عن الكفاح. وأصبحت تهمة الخيانة التي تترصد مناهضي حرب الجزائر سلاحا فتاكا في حوزة الحكومة الفرنسية».

«هكذا رأينا مع مستهل عام 1957 ، عددا كبير من الديمقراطيين يلتزمون الصمت أو تنالهم حمى الانتقام فينضوون تحت لواء وطنية بدائية».

«ولقد وجدت الحكومة الفرنسية حجتها الثانية فيما يسمى بالارهاب. واستغلت مصالح الدعاية القنابل التي تم تفجيرها في مدينة الجزائر. لقد جرح أطفال أبرياء لا تتوفر فيهم الصفات التقليدية «للمستعمر الشرس، وشكل ذلك مشاكل غير متوقعة للديمقراطيين الفرنسيين. فتزعزع اليسار وجاءت عملية صكا مودى فزادت الطين بلة. ان مقتل عشرة مدنيين فرنسيين في كمين كان كافيا ليجعل اليسار الفرنسي يصرخ بالاجماع : إننا لن نتبعكم بعد الآن».

«وانهار جزء كبير من المثقفين وأغلبية اليسار الديمقراطي ووضعت الشروط للشعب الجزائري، أدينو صكا مودى والقنابل وسنحتفظ لكم بمساندتنا الودية».

«لقد لجأ بعضهم إلى الصمت، واختار آخرون بعض الأطروحات التي تظهر وتختفي من حين لآخر. يجب أن تنتهي حرب الجزائر لأنها مكلفة للغاية ولأنها تعزل فرنسا أو تسمح باستبدالها بالانكلوساكسون أو بالروس أو بناصر الخ . . .».

«وصار الشعب الفرنسي لا يعرف لماذا يجب أن تتوقف حرب الجزائر. ونسي ان فرنسا في الجزائر تهتك السيادة الشعبية وتستهين بحق اشعوب في تقرير مصيرها بنفسها وتذبح آلاف الرجال والنساء».

ودائما في هذه السلسلة من المقالات فإن فانون قد عرض للتحليل الدقيق مفهوم الاستعمار الذي يحاول الديمقراطيون الفرنسيون تبسيطه إلى درجة انهم صاروا يعتقدون بأن إزالته مرهونة بالتخفيف من سلوكات الأفراد العنصرية وجعلهم يتفتحون ويتحررون أكثر في تعاملهم مع سكان البلاد المستعمرة. ويرى الأكثر يسارا أن مصالح الشعوب المستعمرة مشتركة مع مصالح الطبقة

العاملة في البلد المستعمر (بكسر الميم) ومن ثمة فإن الاستعمار يجب أن يشخص في كبار المستغلين والحكام والمضطهدين المستبدين.

فنتيجة لهذا التعريف المبسط تحدد موقف المثقفين الفرنسيين الذي يخضع المساندة والتأييد إلى إدانة استعمال العنف ضد المدنيين والمواقع الاقتصادية. لكن فانون أوضح في خطابه لهم بأن الاستعمار هو سيطرة أجنبية واحتلال عسكري وإزالته لا تكون إلا بالاعتراف للشعب المستعمر (بفتح الميم) بحقه في تقرير مصيره بنفسه. وبالنسبة للجزائر، فإن الاستعمار الفرنسي يشكل كل القوى التي تجعل الأض والانسان يعارض وجود الأمة الجزائرية. وعليه فإن كل الفرنسيين المتواجدين في كل شبر من التراب الجزائري هم جنود فرنسيون يجب محاربتهم إلى أن يتم استرجاع السيادة الوطنية.

وإذا كان المثقفون من اليسار اللاشيوعي، فإنهم يشترطون عدم قبول النفوذ السوفياتي. وإذا كانوا ماركسيين فإنهم يقرنون تأييدهم لجبهة التحرير الوطني بضرورة محاربة الامبريالية الأمريكية.

إن هؤلاء المثقفين لا يختلفون كثيرا عن المواطنين الفرنسيين العاديين. لقد تشبعوا بواقع استعماري يجعل الجزائر قطعة من فرنسا ومن ثمة فإن مجرد التفكير في إمكانية فصل تلك القطعة عن الوطن تكون خيانة لا تغتفر.

لقد كان عليهم حسب رأي فانون ان يتعمقوا في تحليل المعطيات التي تمكن الشعب الفرنسي من ادراك حقيقة الأمور والتسليم بها، خاصة وانها واقع تاريخي يستحيل التمادي في التنكر له. إن الجزائر ليست فرنسا ولا يمكن ان تكون فرنسا، يمنعها من ذلك التاريخ والجغرافيا والثقافة والحضارة والدين. والأوربيون ليسوا جزائريين حتى ولو ادعوا ذلك، لأن الموانع كثيرة ولا يمكن تخطيها بسهولة. وإذا كانت هناك بعض الحالات، فإنها مجرد استثناءات لا يقاس عليها.

ولقد كان عليهم، أيضا ان يشرحوا لمواطنيهم بأن ما يجري في الجزائر منذ الفاتح من نوفمبر سنة أربعة وخمسين وتسعمائة وألف، انما هي ثورة تهدف إلى استرجاع السيادة المغتصبة وتحرير الأرض والانسان معا. أما مسألة الانتماء أو التبعية فإنها غير واردة، ذلك أن الشعب الذي يقدم على التضحية بأغلى ما

يملك لتخليص نفسه من السيطرة الأجنبية لا يرضى بتبعية جديدة مهما كان نوعها أو لونها. . إن الأمر يتعلق بوطن محتل منذ أكثر من قرن وهو اليوم يسعى للخروج من دائرة الهيمنة، واجب كل الديمقراطيين في العالم وفي فرنسا خاصة أن يقفوا إلى جانبه، وأن يبذلوا قصارى جهدهم للضغط على الحكام الفرنسيين وارغامهم على ايقاف الحرب والتفاوض مع جبهة التحرير الوطني.

إن التوجه بكل هذا الالحاح إلى الطليعة التقدمية في فرنسا لم يكن ناتجا عن رغبة في الاستنجاد يمليها شعور بالضعف وخوف من الانكسار أمام القوات المادية والبشرية الهائلة المتوفرة لدى العدو، لكنه جاء نتيجة ايمان فانون بأن الواجب الأول لكل مثقف ديمقراطي هو أن يقف بدون أدنى تردد في صفوف القوى الحية العاملة على التغير نحو الأفضل في بلاده، وإلى جانب كفاح الشعوب العادل من أجل ممارسة حقها في الحرية والاستقلال.

ولقد توقف فانون طويلا عند مختلف مراحل التطور التي مر بها الشعب الجزائري، وغاص في أعماق الثورة الجزائرية ليستلهم معانيها ويستنطق انتصاراتها، ووجد في توجهاتها الأساسية كل ما يمكن أن يطمح اليه مناضل واعي خبر الاستعمار ومساويه وواكب احلام الجماهير المحرومة وهي تصارع من أجل مجرد البقاء على قيد الحياة. وقد جعلته هذه النتيجة التي توصل إليها يتحمس في خطابه، ويعطي للمثقفين الفرنسيين الذين عاش معهم في مدرجات الجامعة أو في معترك الحياة فرصة للتخلص من العاطفة التي تمنعهم من محاربة المصلحة الاستعمارية التي كان من الصعب جدا فصلها عن المصلحة الفرنسية العامة.

فالاستعمار الذي يسعى بكل ما أوتي من امكانيات لاضطهاد الشعب الجزائري وحرمانه من التمتع بثرواته الطبيعية ومن التعلم والعلاج والحياة الكريمة لا يمكن ان يعمل على إسعاد الجماهير الكادحة في فرنسا خاصة إذا كان ذلك ينال من المصلحة الذاتية التي يرمي إلى تحقيقها، لأجل ذلك فإن النظرة إلى تصرفاته يجب أن تكون واحدة لأن الاستغلال، وإن اختلفت درجاته، يبقى واحدا ومطلوب من القوات الواعية، حيثما وجدت محاربته والقضاء عليه نهائيا.

من هذا المنطلق، يرى فانون أن الوجود الاستعماري لا مبرر له وأن من حق الشعوب المناضلة على كل الديمقراطيين ان يسلوا ثيابهم من ثيابه وأن يدركوا بأن في ذلك خدمة للشعب الفرنسي الذي ينتظر منهم كثيرا من الشجاعة ومن التضحية لتخليصه من أنواع الاضطهاد والاستبداد والاستغلال وهي كلها صفات لصيقة بالاستعمار.

ان ما ينتظره الشعب الجزائري من المثقفين التقدمين في فرنسا فيتمثل في مراجعة الضمير والمنطق لكي لا يتمادوا في التمسك بتلك النظريات البالية التي تجعل من الاستعمار ظاهرة ايجابية في الجزائر، أو مؤسسة يمكن أن يكون لها جانب حضاري يفيد الجزائريين. . ان ما انجز من طرقات ومطارات وموانىء وما شيد من مدارس ومستوصفات أو مستشفيات إلى غير ذلك من المرافق التي هي حيوية بالفعل، كلها لا تكفي لجعلنا نغض الطرف عن القتل الثقافي والاعدام الحضاري وعن عمليات النهب التي تعرضت لها جماهيرنا الشعبية وعن التشويه والتزييف والتحريف الذي صاب تاريخنا في جميع مراحله، وعقيدتنا في جوهرها وكذلك عاداتنا وتقاليدنا وما إلى ذلك من القيم التي كانت تجعل منا مجتمعا راقيا. .

وأكثر من كل ذلك، فإنها لا تستطيع أن تنسينا تلك المحاولات الدنيئة التي قام بها السياسيون والمثقفون الفرنسيون لمحو الأمة الجزائرية من ذاكرة التاريخ البشرى، عندما ملأوا الوثائق الرسمية والكتب والمجلات والصحف على اختلاف أنواعها بتلك الادعاءات التي تزعم أن الأمة الجزائرية في طريق التكون وإنها لم تكن موجودة قبل الاحتلال.

لقد عالج فانون هذا النوع من التفكير في العدد الثاني والعشرين من «المجاهد» الصادر بتاريخ 16 أفريل سنة 1958 وكتب يقول : إن الاستعمار ليس جزءا من التاريخ الجزائري، بل هو حادث مؤلم وكريه لم يكن له مغز سوى أنه عطل عملية التطور المنسجم للمجتمع والأمة الجزائرية.

ولأنه كان كابحا ومعيقا لكل عمليات التنمية في بلادنا، فإن جبهة التحرير الوطني لم تكتف بمحاربته عسكريا، ولكنها جعلت حربها ضده تشمل كافة الميادين. . لقد كانت مقاتلة الاجناد على اختلاف أنواعهم تتم بالتوازي مع

إعادة تأهيل الأرض وتحرير الانسان ثقافيا لأن التخلص النهائي من السيطرة الأجنبية لا يحصل إلا عندما يسترجع المواطن سائر العناصر المكونة لشخصيته الـوطنية التي تضمن له الاستقلال الحقيقي. وكان لهذا الأسلوب الجديد في الكفاح ضد الاستعمار نتائجه الايجابية الفاعلة التي تتمثل خاصة في هز أركان الكيان الاستعماري ليس في الجزائر فحسب ولكن في إفريقيا وفي العالم الثالث بصفة عامة. وبهذا الصدد كتب فانون على أعمدة العدد المذكور أعلاه :

«إن الشعب الجزائري يعرف بأن الشعوب الافريقية تتابع بتعاطف وحماس كفاحه ضد الاستعمار الفرنسي. إنه لا يجهل ان كل ضربة توجه للاضطهاد الفـرنسي في الجـزائر تساعد على تفكيك القوى الاستعمارية. وان كل كمين ينصب وكل حامية تؤخذ أو يقضى عليها، وكل طائرة تسقط كل ذلك يزرع الهلع في صفوف الاستعمار الفرنسي ويعزز الضمير الوطني الافريقي أو الملغاشي أو الانتيسي».

«إن الشعـوب المضـطهدة تعرف اليوم أن التحرير الوطني يندرج في اطار التطور التاريخي، ولكنها تدرك أيضا ان ذلك التحرير يجب أن يكون بالضرورة من صنـع الشعب المغلوب على أمـره، وان التحـرير الحقيقي لا يكمن في الاستقلال المزعوم الذي يتعايش فيه وزراء محدودو المسؤولية مع الاقتصاد الذي يغلب عليه الطابع الاستعماري».

«إن التحرير يتمثل في الاجهاز على النظام الاستعماري بدءا من القضاء على سيطرة لغـة المحتل وأنواع التجزئة وانتهاء إلى الوحدة الجمركية التي تبقى في الواقع المستعمر (بفتح الميم) السابق في اسر ثقافة المستعمر (بكسر الميم) وانماط حياته. إن الشعب الجزائري قد شرع في عملية الاجهاز هذه بكل عزم وحزم».

«إننا لا ننتظر من الاستعمار ان ينتحر. لقد عودنا على انه يدافع عن نفسه بكل ما أوتي من قوة.. ولا يمكن للشعب المستعمر (بكسر الميم) ان يشفي من التمييز العنصري وباقي عاهاته الا اذا قبل، باالفعل، اعتبار الممتلكة القديمة أمة كاملة الاستقلال. أما اثارة» الروابط القديمة «أو المجموعات» الوهمية،

فإنها مجرد كذب مفضوح وتحايل مازال الشعب الجزائري منذ أربع سنوات، يبرهن على أنها لا تستطيع مواجهة الحقيقة العارية والارادة القوية».

ومثلما توجه فانون إلى المثقفين الديمقراطيين في فرنسا، فإنه خاطب الشبيبة الافريقية يحيطها علما بما يجري في الجزائر ويذكرها بأن أوضاع بلدانها لا تختلف عن وضع الجزائر قبل اندلاع الثورة، ويدعوها إلى مراجعة التاريخ واستفساره عن حملات الاسترقاق التي استنزفت ثروات القارة السمراء البشرية منها والطبيعية على حد سواء.

وفي مقال نشرته المجاهد في عددها الرابع والعشرين استعمل فرانتس كل بلاغته ليصل إلى ضمير أولائك الشباب قصد ايقاظه وتوعيته من أجل مطالبة الكهول من القادة والسياسيين والمثقفين منهم على وجه الخصوص بالتوقف عن تقديم خدماتهم بالمجان للاستعمار الذي يستعبد شعوبهم وتوظفهم بجميع الطرق لمحاربة اشقائهم في الجزائر المكافحة.

إن لغة الواقع يقول فانون تدعونا إلى مصارحتكم بأن كل ممثليكم تقريبا يقفون بدافع الشلل الذهني ضد نضال الشعب الجزائري الذي تربطه بشعوبكم أواصر الاخوة والتاريخ المشترك ووحدة المصير.

فالشعب الجزائري مثل شعوبكم قد خضع للسيطرة الاستعمارية التي استغلته اقتصاديا وشوهته ثقافيا، ومثله يجب على شعوبكم اليوم أن تنهض من نومها العميق لتكسر الاغلال وتشق بعزم الطريق الموصل إلى استرجاع الاستقلال الوطني. لكن هذا الهدف لن يتحقق إلا إذا أفاق من غفلتهم كل الأفارقة الذين أوهمهم النظام الاستعماري بأنهم يمثلون مواطنيهم في المجالس الفرنسية المختلفة.

«إن المستقبل سيكون بلا رحمة بالنسبة لهؤلاء الرجال الذين أعطيت لهم إمكانية قول الحقيقة لمضطهديهم ولم يفعلوا.. ان هو فوات بواني يدعم سياسة مافنتت تغرق الأمة الجزائرية في بحر من الدم.. وبصفته وزيرا للصحة في حكومة كايار، فإنه لم يحتج على ضرب ساقية سيدي يوسف حيث دمرت سيارات الاسعاف وقتل عشرات الأطفال والنساء والشيوخ العزل. بل على

العكس من ذلـك، فإنه تبنى العملية الوحشية وراح يهنىء الجيش الفرنسي البطل ويدعم الاجراءات الفرنسية الضاغطة على الحكومة التونسية».

«أيها الشباب الافريقي، ان جبهة التحرير الوطني التي تقود معركةالشعب الجزائري تتوجه إليكم وتطلب منكم أن تضغطوا على نوابكم لكي يستقيلوا من المجالس الفرنسية. . لقد حان الوقت ليساهم كل المستعمرين (بفتح الميم) بفعالية في عملية انتهاك المستعمرين الفرنسيين».

إن قانون بحكم تكوينه ووعيه بأصوله وبحكم احتكاكه الطويل بالتجربة الجـزائـرية لم يكن يفصـل بين الحـركـات النضـالية في مختلف أجزاء القارة الافريقية. ولقد كان يسعى دائما من خلال كتاباته إلى الربط بين ما يجري في شمال افريقيا وبين ما يجب أن تكون عليه شعوب القارة بأكملها.

إن الامبريالية الانجليزية أو الامبريالية البلجيكية أو الامبريالية الفرنسية كلها تهدف إلى استعباد الانسان الافريقي وحرمانه من التمتع بالحرية وممارسة الديمقراطية ومن الاستفادة من ثروات بلاده الطبيعية، كما أنها تمارس استغلال الأرض سطحيا وباطنيا وتوظف كافة الامكانات المادية في البلدان المستعمرة (بفتح الميم) لخدمة الاقتصادات في ماكان يمسى بالوطن الأم.

وانطلاقا من هذه الحقيقة فإن أية ضربة إلى جسم الامبرالية تؤدي حتما إلى تخفيف الضغط عن الشعوب المضطهدة، ونظرا إلى أن ثورة نوفمبر تشكل قلعة متقـدمـة للاطـاحـة الفعلية باعتى الامـبرياليات الآنفـة الذكر، فإن طلائع الشعوب الافريقية كلها مطالبة بمؤازرتها ومساندتها بجميع الوسائل لأن كل انتصار سياسي أو عسكري تحققه لا يعود بالنفع على الجزائريين وحدهم ولكنه يفتـح واسعـة باب الاستقلال الوطني لباقي بلدان القارة الافريقية الخاضعة للاستعمار الفرنسي خاصة. ولقد وقع ذلك فعلا بالنسبة لبعضها الذي استرجع سيادته سنة ثمان وخمسين وتسعمائة وألف وماكان ليتمكن من ذلك لو لم يكن هناك كفاح الشعب الجزائري. لأجل ذلك يقول فانون :

«إن جبهة التحرير الوطني ترى أن شعوب القارة السمراء الخاضعة لسيطرة الاستعمار الفرنسي يجب ألا تتراجع، بل على العكس، ينبغي أن تبدي كثيرا من الحزم والشدة وأن تعلم بأن زمن الحلول الغامضة قد ولى بلا رجعة. . إن

فرنسا مضايقة ويجب تطبيق الخناق عليها وغلق كل المخارج في وجهها وقتل روح السيطرة فيها. . إن فرنسا في عام 1958 ، غير قادرة ماديا وبشريا واقتصاديا وسياسيا على اشعال فتيل الحرب في إفريقيا السمراء. لأجل ذلك فإن الشعوب الافريقية مطالبة بمواصلة السير إلى الامام، ومضاعفة الضغط من أجل نيل الاستقلال في التو. . . ان على الجماهير الافريقية وطلائعها ان تتخذ من الآن كل الترتيبات اللازمة للانتقال الى العمل المباشر وحمل السلاح ونشر الرعب في صفوف المستعمرين (بكسر الميم)».

«إن جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير مستعدان، فيما يخصهما بمساعدة الشعوب الافريقية في كفاحها التحريري. . إلى السلاح ايها الأفارقة، والموت للاستعمار الفرنسي».

ليس في هذا الأسلوب حماس زائد، لكنها طريقة فانون الذي يعالج كل الموضوعات بجدية كبيرة ومثالية ثورية تقوده في بعض الأحيان إلى تجاوز حدود اللياقة عندما يقتضي الحال ذلك. ففي هذا الصدد كتب عدة مرات على أعمدة اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني يتهم بالخيانة العظمى عددا من الشخصيات الافريقية التي كانت يومها تشغل مناصب سامية في أجهزة الحكومة الفرنسية.

إنه لم يكن من الذين يحتملون رؤية إطارات وطنية تعمل من أجل ترسيخ الفكر الاستعماري. وكان يخشى وقد اثبت التاريخ أنه كان محقا، أن تستعمل تلك الاطارات لافراغ الانتصارات التي تحققها الشعوب من محتواها الثوري فتحولها إلى مجرد عملية اصلاحية تراعي بالدرجة الأولى مصلحة الأنظمة الاستعمارية المخططة لحالة التبعية الدائمة التي تضمن استمرارية الاستغلال والاضطهاد في كافة المجالات الحيوية بالنسبة للمستعمرات القديمة التي غالبا ما تدفع أثمانا باهظة.

ولقد ظل فرانتس فانون حاملا لمشعل الثورة يعبر عن فكرها الأصيل ويدعو إلى تعميمه كوسيلة أساسية لتكوين الانسان الجديد الذي كان يؤمن بأن ايجاده شرط لابد منه لقطع دابر الاستعمار وضمان الخروج نهائيا من دائرة السيطرة الأجنبية.

وحتى عندما عين سفيرا للثورة الجزائرية في أكرا، فإن كتاباته لم تنقطع، بل أن افقه قد اتسع وصار يحلم بإمكانية اندلاع الثورة الافريقية الشاملة التي تحرر القارة السمراء وتجعل منها رائدة في عملية تحرير الانسانية جمعاء. غير أن ذلك الحلم الجميل لم يطل خاصة بعد اغتيال لوممبا واشتعال نار الفتنة في الكونغو وظهور العملاء المنفذين للسياسة الاستعمارية في كثير من الأقطار التي كان يرجى أن تصبح قواعد صلبة لانطلاق المعركة الحاسمة.

إن فانون لم يعمر بعد لوممبا سوى سنة واحدة قضى جلها في صياغة «المعذبين في الأرض». ومصارعة سرطان الدم الذي قضى عليه وهو ما يزال في ريعان الشباب. كان ذلك يوم الأربعاء سادس نوفمبر سنة واحدة وستين وتسعمائة وألف. وحسب رغبته نقل جثمانه إلى تونس ومنها إلى الحدود الجزائرية التونسية ليحمل على أكتاف مجموعة من المجاهدين توجهوا به إلى مثواه الأخير في إحدى مقابر الشهداء بأرض الجزائر. إن القبر معروف وهو يحظى إلى غاية هذا اليوم، بزيارة الرفاق وبعض الأهل في كل المناسبات.

هكذا كرس فانون حياته لخدمة الحرية والكرامة والعدل والخير. وإلى آخر رمق من تلك الحياة قام بواجبه كمناضل يبذل كل مافي وسعه ويسلك جميع السبل لينقل تجربته الغنية إلى كل اخوانه في الجزائر وإفريقيا وفي العالم الثالث بأكمله.

ويعترف فانون، في كتاباته، بأن تجربته مستلهمة من كفاح الشعب الجزائري الذي استطاع بفضل سنوات اللهب التي تبدأ من عام أربعة وخمسين، أن يثري القاموس السياسي والايديولوجي بمجموعة من المفاهيم بعد أن تحدى كل النظريات السائدة يومها.

إن التفاف الجماهير الشعبية حول جبهة وجيش التحرير الوطني في طريق الكفاح المسلح من أجل استرجاع السيادة المغتصبة هو الذي جعل فرانتس يتوقف طويلا عند الطاقات الحية الكامنة في صفوف الشعب ويتصدى بعنف للذين يزعمون بأن الجماهير قطعان من الأغنام تساق إلى حيث يشاء الراعي، ذلك أن الشعب الجزائري المكون في أغلبيته من الجياع والأميين قد استطاع أن يصمد أمام الدبابات والطائرات والنابالم والمصالح البسيكولوجية، وضد الرشوة وغسيل المخ والخونة بجميع أنواعهم.

لقد برهنت الثورة الجزائرية لفانون على أن المحرومين هم الذين يدعمون الثورة، وعندما يقع تجنيدهم جديا وتتم تعبئتهم بكيفية واعية، فإنهم يصنعون المعجزات وانطلاقا من هذه الحقيقة راح يبحث عن الأسباب الرئيسية التي منعت وتمنع الأحزاب في البلدان المستعمرة (بفتح الميم) من تحقيق عملية التحرير ووجد أن أهم تلك الأسباب يكمن في كون العنف هو اللغة الوحيدة التي يفهمها الاستعمار، لكن معظم مناضلي الأحزاب المذكورة من المدن، أي من الناس الذين يفضلون الجوار، وإن الثورة لتنفجر عندما يسلط القمع على المناضلين في المدن فيلجأون إلى الأرياف يعيشون في أوساط الفلاحين يكونونهم سياسيا ويدفعونهم إلى الصفوف الأمامية يخوضون المعركة الفاصلة.

وإذا كان العنف هو اللغة الوحيدة التي يخاطب بها الاستعمار، فإنه في ذات الوقت هو الوسيلة الناجعة التي يقضي بها نهائيا على الأمراض الاجتماعية مثل الجهوية والقبلية والعشائرية ويطهر بها الانسان من رجس الأنانية وترفع بها الشعوب إلى مستوى الوعي الضروري لانجاح عملية البناء والتشييد بعد استرجاع الاستقلال الوطني.

إن دراسة التجربة التي عرفتها الجزائر قبل سنة أربعة وخمسين وتحليل مختلف المراحل التي قطعتها ثورة التحرير هما اللذان قادا فانون إلى الاقتناع بأن طرد الاستعمار وحده لا يكفي لتحقيق الاستقلال الكامل، بل لابد من بناء حزب طلائعي توكل له مهمة قيادة الجماهير وحماية المكاسب بكل أنواعها والسهر على تحقيق التحرير الثقافي الذي يتوقف عليه التخلص النهائي من السيطرة الأجنبية.

«إن البلد الذي يريد فعلا الاجابة على الأسئلة التي يطرحها التاريخ ويريد تنمية مدنه وتطوير ذهنيات سكانه، يجب أن يتوفر على حزب حقيقي. والحزب ليس أداة بين أيدي الحكومة، بل عكس ذلك، فإنه أداة بين أيدي الشعب. إنه هو الذي يحدد السياسة التي تطبقها الحكومة. . . إن الحزب لا يجب أن يكون مقصورا على المكتب السياسي الذي يجمع أعضاء الحكومة وكبار أعيان النظام. . . إن القيادة السياسية في البلدان النامية يجب أن تفر من العاصمة مثل فرارها من الطاعون. وباستثناء بعض القادة، فإن باقيهم يجب أن يقيموا

في المناطق الريفية. . ويجب تجنب تركيز كل شيء في المدينة الكبيرة. . تلك هي الوسيلة الوحيدة لتنشيط المناطق الميتة التي لم تستقبل لعد أنفاس الحياة. . . فمن الناحية السياسية، ينبغي أن تزود كل منطقة بعضو من المكتب السياسي».

«إن الحـزب في البلد المتخلف يجب أن يكـون منـظما بحيث لا يكتفي بالاتصال بالجماهير وإنما يجب أن يكون المعبر المباشر عنها. . إن الحزب ليس إدارة مكلفـة بنقل أوامر الحكومة. إنه الناطق الفعلي باسم الجماهير والمدافع المستميت عنها. . ولتحقيق هذا المفهوم للحزب، يجب قبل كل شيء التخلص من الفكرة الغربية البورجوازية التحقيرية التي مفادها ان الجماهير عاجزة عن تسيير نفسها. . إن التجربة قد اثبتت بالفعل أن الجماهير تفهم جيدا المشاكل الأكثر تعقيدا. إن من جملة ما قدمته الثورة الجزائرية من خدمات للمثقفين الجزائريين أنها جعلتهم يلتحمون بالشعب ويرون تطرفه وفاقته التي تفوق كل وصف، ويشهدون في ذات الوقت يقظة ذكائه وتطور وعيه».

«أما الموظفون والتقنيون من أبناء الوطن فإن واجبهم الا ينغرزوا في الرسوم البيانية والاحصائيات ولكن في جسم الشعب. . إن عليهم الا يشمئزوا كلما تعلق الأمر بتنقلهم نحو الداخل. . ينبغي الا يبقى أي أثر لتلك النساء اللاتي يهددن أزواجهن بالـطلاق إذا لم يدبـروا أمـرهم لتجنب التعيين في المناصب الريفية. لأجل ذلك فإن المكتب السياسي مطالب بتفضيل المناطق المحرومة».

«إن المسؤولية في أي بلد متخلف هي أن ندرك بأن شيء ترتكز في النهاية على تربية الجماهير، ورفع مستواها الفكري وعلى تكوينها السياسي. . ويتمثل التكوين السياسي في العمل على جعل الجماهير تدرك بأن كل شيء خاضع لها ومقصور عليها. فإذا تأخرنا بسببها، وإذا تقدمنا بفضلها. ليس هناك إنسان فوق الجميع ولا مسؤول عن كل شي. إن الخلق والابداع هو الشعب، ومن ثمة فإن الأيدي الساحرة إنما هي أيدي الشعب».

لقد كان فانون متفاعلا بصفة كلية مع جبهة التحرير الوطني، ونتيجة لذلك التفاعل جاءت كتاباته في معظمها معبرة بصدق عن واقع الثورة الجزائرية وعن

آفاق مستقبل الشعب الجزائري كما تسمح به إمكانيات تلك الثورة التي كان مقتنعا بأنها من أعظم الثورات التي عرفها العالم المعاصر.

وكان فانون انطلاقا من كل ذلك يؤمن بأن الثورة الجزائرية ستقضي على أركان الامبريالية الفرنسية وغيرها من الامبرياليات الغربية في إفريقيا خاصة وفي العالم الثالث بصفة عامة، لأجل ذلك كان متحمسا للتعريف بها كتجربة رائدة ولتقديمها كنموذج ناجح للكفاح الشعبي الذي يرمي إلى أبعد من التحرير السياسي.

وإذا كان فرانتس فانون قد مات مبكرا، فإن فكره الذي هو فكر جبهة التحرير الوطني مازال حيا، وقد اثبت الواقع ان تجسيده الميداني لا يمكن إلا أن يقود إلى النصر وإلى بناء المجتمع الأفضل الذي تصبو إليه قوات التقدم التي هي قوات الخير.

النمـوذج الثـالث



مـــالك حـــداد

عنـدمـا انـدلعت ثورة نوفمبر، كان مالك حداد قد بلغ من العمر سبعة وعشرين عاما انهى خلالها دراسته التي توجها بشهادة الكفاءة للتعليم الابتدائي في مادة اللغة الفرنسية لكنه لم ينخرط في سلك التدريس ربما لأسباب نفسية اذ كان يشعر أن اللغة التي تستحق منه بذل مافي وسعه لنشرها ليست هي لغة الاعتداء الثقافي التي فرضت عليه فرضا وصارت كما سيصرح بذلك فيما بعد حاجزا يحول بينه وبين وطنه ومنفى يبعده عن الجماهير الشعبية التي كان يطمح إلى الارتقاء للتعبير عن همومها باللسان الذي تفهمه.

وعلى غرار أترابه من المثقفين الجزائريين الواعين فإنه عاش انتفاضة الثامن ماي سنة خمسة وأربعين وتسعمائة وألف بكل جوارحه، وسيطرت مأساتها على ذاكرته كما أنه استفاد من نتائجها الايجابية المتمثلة خاصة في تعرية السلطات الاستعمارية وفضح نواياها، وفي هز نفوس الجامدين وتدعيم التيار الوطني الداعي إلى الكفاح المسلح باعتباره الوسيلة الوحيدة لاسترجاع الحقوق المغتصبة.

فعندما وقعت تلك الانتفاضة، كان مالك حداد يدرس الفلسفة والآداب، ومن مقعد الدراسة كان يتخيل المدن والقرى وهي «تداوي، بمشقة، جروحها لما أصابها في فصل الربيع الدامي» (1) وكان يتساءل لماذا يكرع من آثار بركسون وديكارت ولا ينهل من نتاج المفكرين والفلاسفة الجزائريين امثال ابن باديس وغيره. وينتهي به الخيال إلى حملة حالمة تحمل في كل واحدة من كلماتها بذور الأمل «ومن يدري، فلعل الظلمات التي نعيش فيها ستبدد ذات يوم» (2) وكان ذلك قبل اندلاع الثورة بتسع سنوات.

---

(1) مالك حداد، رصيف الأزهار لا يجيب، ترجمة حنفي بن عيسى، المطبوعات الوطنية الجزائرية 1965 ص 9.

(2) نفس المصدر، ص 11.

ويذكر بعض أصدقاء الشاعر ممن فتح لهم قلبه وأطلعهم على سجل حياته، أنه كان ينوي امتهان التدريس بعد الحصول على الباكلوريا لكن ذلك لم يتحقق، ليس لأنه طلب ولم يقبل في سلك التعليم، أو لأنه عين في منطقة نائية لا تتوفر على مرافق الحياة التي كان يحلم بها، بل لرفض قرره بنفسه وجاء نتيجة وعي مبكر بواقعه وواقع قومه وإدراك للحقيقة التي لا يمكن معها أن يكون مدرسا كاملا مهما بذل من جهد ومهما كانت امكانياته العلمية.

لقد أدرك أنه جزائري، أي واحد من المغتصبة حقوقهم بفعل الاحتلال الاستعماري، وأدرك أن ثمة حاجزا قويا يفصل بينه وبين الآخر، ولا يمكن أن تكسره الشهادة، لأنه هو أساس السيطرة الأجنبية. وحتى لو التحق بإحدى المدارس لممارسة المهمة التي طالما تمناها، فإنه ماكان يستطيع البقاء أكثر من اللحظة الوجيزة الكافية للاصطدام بالواقع المر.

واستطاع أن يعي مبكرا، أن السلطات الاستعمارية التي هدمت مصادر الثقافة في الجزائر، قد تمكنت مع مرور السنوات من تجهيل الجماهير الشعبية الواسعة وتكوين نخبة من المثقفين المتشبعين بالفكر الاستعماري المستعدين ليس لقبوله فحسب ولكن كذلك للاستماتة في الدفاع عنه، ويعتبر نشر اللغة الفرنسية نوعا من الاستماتة في الدفاع عن الفكر الاستعماري، ولأن اللغة لا يمكن أن تكون حيادية، فإنه رفض الاسهام في نشرها حتى لا يكون شريكا في تمكين الغزو الثقافي من فعل فعلته في أوساط الجماهير الشعبية العزلاء من سلاح الدفاع عن النفس.

إن هذا الاحساس الذي كان يملأ نفس مالك حداد ينتقل بسهولة إلى القارىء بمجرد شروعه في القراءة. ولقد كان من الممكن أن ينقاد حداد إلى السهولة فيترك جانبا كل التعقيدات وينضم إلى النخبة المتعلمة التي ترضى بالدوران في فلك المستدمر ان صح استعمال هذا المصطلح. لكنه فضل أن يكون الأديب الذي يحترق لينير طريق الجماهير والذي يعيش هموم شعبه فيعبر عنها بكل ما أوتي من إمكانيات ويبذل كل ما في وسعه لنشر الوعي الذي لابد منه للارتقاء إلى مستوى الثورة.

لقد عاش مالك حداد في رصيف الازهار لكنه رغم كل المغريات، ظل

غريبا عن المجتمع الباريسي، لم يتمكن من التكيف مع المحيط الغربي الذي استطاع بالفعل، أن ينفذ إلى أعماقه ويدرك حقيقته الامبريالية. ومما لاريب فيه أن اندلاع ثورة نوفمبر ساعده كثيرا على الفصل في الصراع الداخلي الذي كان يعاني منه.. ان عظمة ذلك الحدث التاريخي قد فجرت في نفسه معنى عبارة الدكتور لمين دباغين الخالدة التي رددها على أحد اقطاب النخبة حينما أراد اقناعه بافضال اللغة الفرنسية. قال الدكتور دباغين يومها: «إنني تعلمت هذه اللغة ليس لاخدمها ولكن لاستعملها واسخرها لخدمة أبناء وطني».

فعلى غرار الزعيم السياسي دباغين جرد حداد قلمه وراح يسخره لخدمة توجهات جبهة التحرير الوطني... وتهاطلت الأفكار: شعرا ونثرا تمهيدا لاطلالة الفجر وعودة السيادة كما عبر عن ذلك بنفسه في الفصل السابع من كتابه «رصيف الأزهار لا يجيب».

كان حداد ينطلق في كتاباته من الواقع الاستعماري وما يميزه من قمع واضطهاد وما تتخلله من أحداث مؤلمة، لأنه كان يدرك بأن طليعة الشعب الجزائري لم تتوقف أبدا عن مقاومة المحتل بجميع الوسائل فإنه كان يغتنم كل الفرص ليعيد إلى الأذهان بأن «الحرب في الجزائر لم تبدأ في أول نوفمبر عام 1954»، وإنها لا تقتصر على القتل والهدم والنفي والتعذيب بكل أنواعه، لكنها تشمل ماهو أخطر، أي مسخ الشخصية الوطنية واستبدالها بأخرى يكون لها كامل الاستعداد لتقبل الواقع الاستعماري بدون أدنى تردد أو رفض.

إن مسخ الشخصية الوطنية في الجزائر هو الذي جعل حداد الشاعر الأديب يولي أهمية بالغة للغة الوطنية ويعتبر أن عدم السيطرة عليها نقص كبير إلى درجة أنه قال أن الفرنسية هي منفاي، لأنها تحرمه من لذة الاتصال بالجماهير الشعبية الواسعة ومن استعمال ما للغة والقرآن من قدرة على المخاطبة والاقناع والتبليغ في أوساط الشعب الجزائري.

أكثر من ذلك، فإن حداد جسد فكرته هذه بالاقرار من حين لآخر خاصة في «رصيف الأزهار لا يجيب» بأنه لم يعد يجيد فن الحديث ولذلك فهو يحبس نفسه في عالم الكتابة الذي يمكنه من التعبير عن آرائه دون الشعور بأنه يرتدي ثياب الغير. والمكسي بلباس غيره عريان كما يقول المثل الشعبي.

ولقد تفاعل مالك حداد مع ثورة نوفمبر منذ الأشهر الأولى، واختار سلاح الكلمة الشجاعة للاسهام في تلك المعركة الفاصلة، فكان الشاعر والكاتب والصحافي في ذات الوقت، كما أنه وضع نفسه تحت تصرف جبهة التحرير الوطني يمثلها في التظاهرات الثقافية الدولية إلى جانب إخوانه من المناضلين.

ورغم ماكان يبذله من جهد، ورغم رضاء المسؤولين على نتائج نشاطه، فإنه لم يكن مقتنعا بما كان يقدمه للوطن، ويعبر عن ذلك بقوله : «إنني أتجول بينما الأخرون يقاومون، بينما الأخرون وضعوا في. . . بينما هذا القي عليه القبض، وذلك عذب وذاك اختطف ولم يعد يسمع عنه خبر».

وعندما يخلو إلى نفسه كان يطلق العنان إلى خياله : يصور المجاهدين في الجبال مكسوة بالثلوج أو جرداء اتلف النابالم خضرتها، ويتقفى أثر الفدائيين في مختلف شوارع قسنطينة وهم يتحدون الاجناد الفرنسيين وما أقاموه من أسلاك شائكة وحواجز متعددة الأنواع ومختلفة الأحجام، وأحيانا يفكر في مشروع المجتمع الذي يجب تشييده بعد استرجاع الاستقلال الوطني. وفي تفكيره كان يركز على الدور الذي ينتظر جنود العلم باعتبارهم مقدمة الطليعة المسؤولة على توعية الجماهير وتربيتها وتوجيهها نحو تحقيق ماتصبو إليه من طموحات وأهداف. . إن هذا الدور يتطلب من الكتاب أن يتقنوا لغتهم الوطنية، لأنهم بدون ذلك يستحيل عليهم التفاعل مع سائر فيئات الشعب.

واستطاع مالك حداد أن يترجم كل هذه الحالات النفسية في كتاباته سواء باستعمال الرموز أو بأسلوب مباشر، وعلى سبيل المثال يمكن للقارىء أن يعود إلى الفصل العاشر من «رصيف الأزهار» ليرى كيف أن الأديب دلل ببراعة فنية على أن الاختلاف كبير بين المجتمعين الفرنسي والجزائري ومن ثمة يكون ادعاء الاندماج مجرد خرافة لا يصدقها سوى ضعاف العقول. أما في الفصل الثامن عشر فإننا نجد مايلي :

«كل يوم يمر يأتي بخبر يثير الجرح : فهذا اختفى عن الأنظار، وذاك ألقي عليه القبض وذاك عذب. وإذا كان الانسان لا يفقد عقله في حمة هذه الأحداث، فإن القلب يتحمل من ذلك عناء وأي عناء».

«وماذا تعني كلمة الوطن ؟ فالوطن هو الماضي الحافل بالذكريات. بل انه

الماضي قبل كل شيء. كلمة الوطن قد تشير مثلا إلى أولائك الذين ارغموا على أن يعيشوا على هامش الحياة أو الفلاحين ذوى المظلات الثقيلة، أو الرجال الـذين يضنيهم الجـوع وتصفعهم الأيدي. وقـد تشير كلمة الوطن إلى وباء التيفـوس الذي اجتاح البلاد في سنة 1942، والشارع الخالي من المارة بعد اعلان حالة الطوارىء والازقة الضيقة التي يذوب فيها الاسفلت في شهر يوليو».

«ولكن كلمة الوطن توقظ في خياله قبل كل شيء صورة وريدة وقد شملها بنـظراته وضمها بين ذراعيه واحاطها بهالة من البطون والحنان. . إن الوطن الـذي يؤمن به أمـام الله والنـاس وفي أيام المحنـة هو وطن الغابات الوارقة السعيدة والرمال الهامدة الهادئة والجبال التي تحافظ على شرف الأجيال والأطفال الصغار الذين يلعبون لعبة العظامة في الأحياء العربية».

ان الذي يتأمل جيدا هذه الفقرات الثلاث يستطيع أن يفهم بكل سهولة كيف أن حداد انـطلق من المـأساة التي كان الشعب الجزائري يعيشها يوميا بسبب أعـمال القمـع والاضطهاد المفروضيين عليه من قبل جيش الاحتلال وسلطاته، ليعرف الوطن ولينتهي بالقارىء إلى أن التضحية بجميع أنواعها أمر طبيعي إذا كان الهدف هو استعادة الشرف واسترجاع السيادة والتخلص من السيطرة الأجنبية.

وفي هذه الفقرات أيضا، يبين الأديب كيف أن المعاناة اليومية رغم شدتها ومـا تتسم به من قسـوة ووحشية أثنـاء فترة الكفـاح المسلح أهون بكثير من الأوضاع المزرية التي كان يعيشها الانسان الجزائري قبل اندلاع الثورة والتي كانت تتميز أساسا بالجهل والأوبئة والجوع والعيش على هامش الحياة.

أما في نهاية الفصل السادس والعشرين من «رصيف الازهار» فإن مالك حداد قد افصح من موقفه السياسي ونقله إلى قارىء الفرنسية بكل شجاعة كما يلي :

«وبمناسبة الحديث عن فرنسا، فإن الاستعمارات التي ما تتردد على الألسنة قد خطرت ببالي. طبعا قد تكون هذه العبارات تقريبية في مدلولها، وأنا أبدأ في استعمال هذه الاستعمارات لأقول بأن الجزائر هي أمي».

«إنني أنا خالد بن طبال، الطيب القلب، المتواضع المقام، لا أشك مطلقا في ذلك الحين الذي يمكن فيه أن تصبح فرنسا أختا لأمي. ستكون لها أختا ولكن لن تكون أكبر أو أصغر منها سنا، ولن تكون أكثر أو أقل منها غنى، ولا أكثر أو أقل منها ثقافة وعلما».

«إنني أنا خالد بن طبال، الطيب القلب، المتواضع المقام، لا أشك مطلقا في أن ترسل أمي ذات يوم إلى أختها تلك البطاقات البريدية التي تأسر عقلي بما فيها من البساطة وتسجل فيها هذه الكلمات التي يمكن التعبير عنها بالعربية أو الفرنسية، ابعث إليك قبلاتي الحارة.. كل شيء على أحسن ما يرام.. أن الدماء التي تجري في شرايين أمي وأمك مختلفة ولكن يوجد بينهما كثير من العلاقات. ففي نظري ينبغي أن تكون العلاقة فيما بينهما هي علاقة صداقة. هذا هو رأيي».

«ولكنني أنا خالد بن طبال، الطيب القلب، المتواضع المقام، أريد أن تشم أمي أريج البرتقال، مثلما تشم أمك أريج الخزامي، وأن تتمتع أمي بكامل السيادة في شؤون منزلها، مثلما تتمتع أمك بذلك. وأريد أيضا أن تعرف أمك بأنه توجد كثير من الأمور التي يجب أن تتعلمها من أمي وأن أمي قد شقيت بسبب أمك أكثر مما شقيت أمك بسبب أمي».

«إنني أنا خالد بن طبال، الطيب القلب، المتواضع المقام، أفكر أولا في أمي. أفكر بسببها ولأجلها ولكن ذلك لا يمنعني بطبيعة الحال، من أن أضمر المحبة لخالتي، شريطة أن لا يتدخل أبناؤها ذات يوم في شؤوني».

«إن وراء منزلنا لا يزالا الجيل قائما.. وإن الناس يشيدون الجدران حتى يوقفوا زحف الحرية ولكن الانسان الذي يطمح لاستعادة حريته لابد له من أن يجتاز تلك الجدران».

إن هذه الخلاصة التي انتهى إليها مالك حداد لم تكن نتيجة الصدفة ولا هي وليدة الخيال، لكنها عندما نتأمل جيدا مراحل حياة الأديب جاءت تتويجا لدراسة ميدانية ولتجربة طويلة في التعامل مع الشارع حينا ومع السلطات الاستعمارية ورفاق الدراسة أحيانا كثيرة.

ومما لاشك فيه أن المعاينة والمقارنة بين النظري الذي تنثره مرافق الاحتلال

والواقع الذي تعيشه فعلا جماهير الشعب هما اللذان كان يقودان حداد في كل ماكان يكتب. وكلما تعمق في الكتابة وجد نفسه يتفاعل أكثر مع الواقع الثوري.

فالتلميذ والمدرس، هو تعبير آخر بأسلوب أدق وتوجه وطني عن ملاحظة الجنرال بيجو عندما تغلب عليه الغضب ذات يوم وصرخ من أصدقائه قائلا: إننا لو أخذنا رأسين أحدهما لانسان جزائري والثاني لانسان فرنسي وطبخناهما مدة يومين كاملين في قدر واحد، لوجدنا في نهاية الأمر مرقين مختلفين». إن كلام بيجو بهذه الصيغة يدل على أنه اقتنع إلى حد الاشباع بأن الاختلاف القائم بين الشعبين الجزائري والفرنسي أكبر من أن يأتي عليه الزمن ولذلك يجب التفكير في طريقة أخرى للاحتفاظ بالمستعمرة الجديدة.. وشاع في ذلك الحين مشروع الابادة على غرار ما وقع للهنود الحمر في أمريكا.

إن الذي يقرأ «التليمذ والدرس» يصل إلى نفس الاقتناع الذي وصل إليه بيجو عندما يرى كيف أن صالح ايدير قد حاول مدة حوالي نصف قرن الخروج من جلده ليصبح فرنسيا كاملا.. تعلم واجتهد في دراسته إن أن صار طبيبا، ثم بذل كل مافي وسعه ليندمج كلية في المجتمع الفرنسي.. ذهب إلى حد الزواج من فتاة فرنسية لعله بذلك يصل إلى مبتغاه غير أن كل تلك المحاولات باءت بالفشل في تلك الليلة من ليالي ثورة التحرير عندما استيقظ صميره وعاد به الوعي إلى الماضي بكل مافيه من سيئات وحسنات وجعله يدرك بأن القفز على التاريخ والهروب إلى ماوراء البحر لا يكفيان لخلق عالم جديد لايوجد في الواقع سوى في خيال من استلبهم الفكر الاستعماري واستطاع ان يستحوذ على عقولهم بعد أن جردهم من ابرز عناصر شخصيتهم الوطنية.

لقد كانت مهمة حداد من أصعب مايكون، إذ كان عليه قبل كل شيء أن يقوم بثورة داخلية تمكنه من إعادة النظر في جل المفاهيم التي تعلمها في المدرسة أو بواسطة الكتاب الفرنسي الذي كان هو الوسيلة الوحيدة لكسب المعرفة من جهة ولصقل شخصيته واكتساب نمط الحياة الذي يلائمها من جهة ثانية.. لقد كان عليه ان يقنع بنفسه بأن ماجاء في كتب التاريخ التي حفظ جل ماتضمنته من نصوص هو تزييف للحقيقة التي يجب أن يبحث عنها وأن يجدها

في غير تلك الكتب. . فاجداد الجزائريين لسهم الغال، والجزائر ليست عبارة عن عمالات فرنسية ثلاث بنفس مستوى ونفس حجم باقي العمالات الفرنسية، والاحتلال الفرنسي لم يكن رحمة على الجزائريين كما أن أسبابه ليست هي الانتقام للشرق الفرنسي الذي دنسته ضربة المروحة التي صوبها الداي حسين إلى القنصل الفرنسي. . ومن ناحية أخرى هناك عمليات الافقار والتجهيل والتجويع والتي تجد لها أثرا في تلك الكتب. . وهناك أيضا المجازر الرهيبة وعمليات القمع الأعمى والعقوبات الجماعية التي صارت من كثرتها أمورا طبيعية لا تحظى باهتمام المؤرخين وعمليات اغتصاب الأراضي والتهجير الاجباري إلى غير ذلك من مميزات الاستعمار الاستيطاني.

وبعد الاقتناع بكل هذه الحقائق المزرية التي تحاول السلطات الاستعمارية عبثا اخفاءها يأتي دور الاقناع وهو لايقل صعوبة، لأن المطلوب من الأديب في هذه الحالة هو التوجه إلى النخبة قصد العمل على جعلها ترتقي إلى مستواه من حيث ادراك الواقع على حقيقته والسعي بكل الوسائل لتغييره واستبداله بأخر تتوفر فيه ظروف الحياة الكريمة على الأقل.

وكانت النخبة التي تشكلت في الجزائر، إلى غاية اندلاع ثورة نوفمبر، مكونة أساسا، من الذين يستطيعون قراءة مالك حداد وفهمه لكنها لم تكن في معظمها مستعدة لأن تتقبل منه أي فكر قد يجعلها في تناقض مع ماتعلمته في المدرسة أو في وسطها المحدود والمرتبط أشد الارتباط بالوسط المتعفن الذي أوجد الاستعمار ليكون ركزا للاستغلال والاضطهاد والاستبداد في العالم.

لقد كانت جل هذه النخبة لا تصدق ان ثمة شعبا جزائريا يمكن أن يكون منفصلا عن فرنسا ورغم أنه كان يشاهد الظلم واللامساواة ويلحظ التباين الكبير في انماط الحياة ووسائل العيش وحتى في التركيبة الفيزيولوجية، فإنه كان يرفض أن يكون للجزائر تاريخ غير الذي تعلمه في مدارس الاستعمار أو مصير غير الذي تحدده سلطات الاحتلال.

وإذا كان حداد قد استطاع بسهولة تجاوز المرحلة الأولى، ساعده في ذلك كما ذكرنا كونه عاش شخصيا انتفاضة الثامن من شهر ماي عام خمسة وأربعين وتسعمائة وألف واطلاعه في سن مبكرة جدا، على أدبيات الحركة الوطنية

واحتكـاكـه بمجموعة من المناضلين المحنكين، فإنه لم يجد طريقة إلى ضمير النخبة إلا بصعوبة ومشقة. ومن الواجب التنويه هنا بالجهود الجبارة التي بذلها بأساليب مختلفة للوصول الى مبتغاه.

وسيظل التاريخ محتفظا لمالك حداد بأنه من المثقفين القلائل الذين تكيفوا بسرعة مع المعطيات الثورية التي جاءت بها جبهة التحرير الوطني، وراحوا من ذلك المنطلق يقدمون الحلول لمختلف القضايا الثقافية التي تتحكم معالجتها في تخليص المجتمع الجزائري نهائيا من السيطرة الأجنبية.

لقد كان حداد من الأوائل الذين تفطنوا إلى أن اللغة لا تكون حيادية أبدا، لأن تعلمها يخضع بالضرورة إلى الانتاج الثقافي الذي يصدر عن الشعب الذي هي لسانه. وفضلا عن ذلك فإن التعبير عن طموحات الجماهير الشعبية لا يتم إلا إذا كان الكاتب قادرا على الوصول إلى تلك الجماهير حيثما وجدت. ومن المعلوم إن ذلـك يتطلب ربح ثقة القراء بواسطة الالتزام بسلوك يومي يكون متـطابقـا للشعـارات من جهـة ويستلزم إجادة اللغة التي نستطيع النفاذ إلى الجماهير الواسعة من جهة ثانية.

إن هذه الحقيقة هي التي أدت بحداد إلى القول «ان الفرنسية منفاي» لأنها تبعده عن الشعب الذي لا يمكن أن يتفاعل معه إذا لم يكن متسعا بثقافته.

وكان حداد في هذا السياق واثقا من أن الجزائر بعد استرجاع استقلالها، ستعيد للغتها الوطنية المكانة اللائقة بها وهي مكانة الصدارة التي لا تنافسها فيها لغة المستعمر، لأن الازدواجية شكل متستر من اشكال الاستعمار الجديد. لأجـل ذلك ورغم أنه لم يكن يجيد العربية، فإنه كان من الدعاة إلى نشرها وتعميم استعمالها لما في ذلك من ضرورة لصيانة الشخصية الوطنية واسترجاع الاستقلال الثقافي الذي هو شرط أساسي لاستكمال الاستقلال الوطني.

إن هذه المفاهيم الوطنية التي كان حداد يعبر عنها بكل دقة ووضوح، قد وجدت طريقها أيضا، إلى الرأي العام العالمي الذي استطاع من خلالها أن يدرك بعض ماكان يعاني منه شعب الجزائر الذي تحملت جبهة التحرير الوطني مسؤولية قيادته لخوض أكبر معركة تشن ضد أعتى أنواع الاستعمار والامبريالية.

وإذا كان بعض النقاد اليوم يرون أن حداد لم يكن واضحا في كل ماكتب وأنه كان يدور كثيرا حول الموضوع قبل الدخول في صميمه، فلأنهم لايعرفون حقيقة الوضع الذي كان عليها المجتمع الجزائري قبل اندلاع ثورة نوفمبر العظيمة، أما نحن فإننا نقدر في حداد شجاعته التي مكنته من تمزيق الغشاوة الاستعمارية وكسر الحواجز التي وضعت بأحكام لتعزل المثقف الجزائري عن باقي جماهير الشعب، ويحز كثيرا في أنفسنا أن الرجل الذي بلغ ذلك المستوى من الوعي قد توقف عن الكتابة مباشرة بعد استرجاع الاستقلال الوطني، أي في الوقت الذي كان الجمهور في احوج مايكون إلى استهاماته الفكرية ليتصدى إلى عملية الغزو الثقافي التي جاءت تعرقل عملية البناء والتشييد.

النمـوذج الـرابع



أحمـد الطيب معـاش

يعتبر أحمد الطيب معاش عينة من نوع خاص من المثقفين الجزائريين الذين صنعتهم جبهة التحرير الوطني، ذلك أنه بالاضافة الى استهاماته الشعرية في النضال من أجل تجسيد ايديولوجية الثورة على أرض الواقع، قد حمل السلاح مع مطلع سنة خمس وخمسين وتسعمائة وألف، كجندي في صفوف جيش التحرير الوطني، وظل يجاهد تارة بالبندقية وأخرى بالقلم، إلى أن استرجعت الجزائر استقلالها، بعد ذلك ألتحق بالسلك الديبلوماسي الذي لم يغادره إلا سنة سبعين وتسعمائة وألف (1).

لقد كانت تجربة معاش من أغنى التجارب إذا قلنا أننا نحيط بها كلية في صفيحات معدودة. وفي البداية نسجل أن الشاعر تكون في مدارس التعليم الحر ثم في معهد الامام عبد الحميد بن باديس قبل الالتحاق بجامع الزيتونة في تونس، ويذكر هو أنه كان بصدد انهاء تعليمه العالي عندما استجار لمنادي الجهاد بالناحية الأولى من منطقة الأوراس (2).

إن هذه المعلومات الأولية تسمح لنا بتكوين فكرة واضحة عن التزام الشاعر سياسيا قبل اندلاع ثورة نوفمبر، خاصة عندما نعرف أنه كان يكتب في جريدة البصائر وبعض مطبوعات المغرب العربي (3).

---

(1) عين سفيرا للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية في المملكة الليبية سنة 1963، وظل يمارس هذه الوظيفة السامية بنفس البلد مدة سبع سنوات متوالية.

(2) عندما التحق الشاعر بصفوف الثورة، كانت الجزائر مقسمة إلى مناطق. ولم يكن مصطلح الولاية قد ظهر بعد. لأجل ذلك فإن ما ورد في ديوانه من أنه التحق بالمنطقة الأولى من الولاية الأولى يعد خطأ بسيطا.

(3) أنظر ديوانه «التراويح وأغاني الخيام» الصفحة الأخيرة.

يقول الأستاذ عبد الرحمان بن العقون (1) في تقديمه لديوان الشاعر : «عرفت أحمد معاش الباتني» في شعره المبرك. وعرفته في مكاتباته لجريدتي البصائر (2) والمنار (3) آخر الأربعينات إلا أنني لم أعرفه حينها شخصيا ومن قريب. ولكن كنت أتصوره من خلال مقالاته التي يتضوع اريجها بأصالة عربية إسلامية. ومن قصائده الرنانة التي تتهادى شموخا، ولكنها تمثل «السهل الممتنع» وكنت أتصوره شاعرا كسائر الشعراء، ولربما اتصف بشعره بـ «أعذب الشعر أكذبه» كما تقول العرب. . . لكن فما حل يوم فاتح نوفمبر 1954، حتى وجدت أحمد معاش ينضم حينا إلى صف مفجري ثورة التحرير، فحاز فضل السابقين الأولين، ووجدت نفسي أعلن في إعجاب في كتابي «تاريخ الكفاح القومي والسياسي» فأقول : هكذا طبق أحمد معاش الفعل على القول في أسرع مايمكن حينما وجد الاتحاد ولو على الموت الزؤام. ولم ينضم إلى الثورة وحده بل جر معه أخويه محمد وصالح اللذين استشهدا في ساحة الشرف (4).

وبعد أن اعتزل العمل السياسي والديبلوماسي وراح يكرس حياته لخدمة الثقافة، وللدفاع بالكلمة الصادقة عن القضايا العادلة في الوطن العربي (5) والعالم الاسلامي حتى يبقى وفيا للأصالة العربية الاسلامية كما ذكر الأستاذ ابن العقون، نشر نزار قباني في العدد 147 من مجلة «الوطن العربي مقالا جاء

---

(1) من المناضلين القدامى في حزب الشعب الجزائري. مثل جبهة التحرير الوطني في المشرق العربي واشتغل سفيرا بعد استرجاع الاستقلال الوطني، كتب مذكراته في جزأين يعتبران من أهم المراجع المساعدة على فهم تاريخ النضال السياسي في الجزائر.

(2)

(3)

(4) التراويح وأغاني الخيام، ص 11.

(5) لقد كان الشعر من المتهمين خاصة بالقضية الفلسطينية. وفيما يلي مقطوعتين من قصيدتين مختلفتين :

ان مضى أربعون الا قليلا ... وفلسطين في صميم الشقاء
إنما الموت واحد فلماذا ... نتغذى به صباح مساء
رب موت مشرف وسريع ... انقذ الجيل كله من فناء

قالوا ملكنا المال والأرقاما ... وعلى العدو سنفرض استسلاما
قالوا لدينا النفط وهو سلاحنا ... وهو الذي سيحقق الأحلاما
قلنا واين القدس أو أخواتها ... ولقد غدت للغاصبين مقاما

فيه على الخصوص» زميلي السفير أحمد الطيب معاش يجمع موهبة الديبلوماسية إلى موهبة الكتابة والتعبير الجميل الصادق، وربما كان صدق الكلمة هو الذي رفعنا كلنا إلى الهروب بجلدينا من هذا الكرنفال التنكري الذي يسمونه السلك الديبلوماسي. واعترف للصديق السفير أنه غلبني بالحب، فأنا لا أغلب إلا بالحب، ولا سيما إذا كان هذا الحب قادما من قمم الأوراس».

وعندما نعود إلى الخمسينات نجد أن روح الشاعر كانت تفيض حماسا، وكانت الصراعات السياسية تحز في نفسه وكان من حين لآخر يحاول التعبير عن رغبته في أن يرى كل التشكيلات الوطنية موحدة في إطار حركة ثورية يكون هدفها الأوحد هو التخلص من السيطرة الأجنبية.

لقد كان في السابعة والعشرين من عمره سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة وألف، وكان طريح الفراش بإحدى المصحات الفرنسية عندما استفحل داء الانقسامات وتحول إلى أوبئة اجتاحت الساحة الوطنية بدون استثناء. ومن هناك راسل جريدة المنار قائلا : لقد اتحد المستعمرون واذنابهم، وعملوا (٨) ودوما يعملون على محو كل اثر جزائري، واضطهاد كل من هو جزائري، فلماذا يتحد الجزائريون المضطهدون ؟

وحينما وجهت جبهة التحرير الوطني نداءها التاريخي ارتاحت نفس معاش وراح يتفاعل مع الأحداث في انتظار ساعة التجنيد التي لم تطل كثيرا، إذ التحق متطوعا بالصفوف في الأشهر القليلة التي تلت اندلاع الشرارة الأولى، ولقد كان تتبعها لتطور النضال مصدر الهام مكنه في مناسبات كثيرة، من التعبير عن الوضع الجديد الذي ساد البلاد بفعل الثورة والتصدي لها من طرف الاستعمار الذي صار في تلك الأسابيع الأولى يخبط خبط عشواء لا فرق عنده بين جزائري وآخر. قال أحمد الطيب معاش يصور مثل هذه الحالة في قصيدة نشرها بجريدة البصائر مايلي (٩).

---

(٨) التراويح وأغاني الخيام ص : 11 .

(٩) التراويح وأغاني الخيام، ص : 30 وما بعدها .

قـالـوا خـــذوه فإنــه مشبـــوه ومضـــوا لما في البيـت فانتهبـوه
مـا نالـه بالكـدح قـد سلبـوه وإذا تأبـى للـردى وهبــوه
لـن يرحمــوه . . فإنـــه مشبـــوه
ساقـوه للجـلاد حيث يعـذب شر العذاب لأجل شر الاعتراف
في كل ســوط وازدجـار مطلـب يسعى به للذنب من غير اقتـراف
فـيـدان. ذاك لأنــه مشبــوه
جـاءوا بـه قبل الشـروق مقيـدا يمشي وشـر طيـان مثـل خيـالـه
ويقومـه قد كـان حـرا سيــدا فغـدا لدى الجـانين عبد جانيـا
يخشـــى اداه . . لأنـه مشبـــوه
لم انـس يـوم رأيتــه فـي قيـده يمشي وشر طيـان مثـل خيـالـه
كل يقيـد بالحـديـد لزنـــده ســارا بـه للسجـن شـر مآلـه
وهنـاك تبـكي أمـــه . . وأبـــوه
ربـاه لطفك . . ، ليس فينا مجـرم والقـوم شنـوها على البـرآء
حربـا عوانــا ، نارهــا تتضــرم من وقعـهـا انـا الـفي بأسـاء
ربـان لطفـك . . كلنـا مشبـوه

يذكر الشاعر أن هذه القصيدة نشرت يوم فاتح أفريل سنة خمس وخمسين وتسعمائة ألف (1). على اثر صدور قانون خاص يخول للسلطات الاستعمارية القاء القبض على كل جزائري أو جزائرية بمجرد الاشتباه في أمره، ويفوض لها استعمال مختلف أنواع التعذيب مع ابقاء المشبوه في المعتقل دون أدنى محاكمة ودون الرجوع لأي نص قانوني.

وبعد عام من هذا التاريخ كان الشاعر في جبال الأوراس يستوحي نغمات الرصاص لتخليد تاريخ الجهاد في قصائد من الشعر رائعة. لكن الغريب هو أن أحمد الطيب لم يخلد ساعة التحاقه بصفوف جيش التحرير الوطني ولو ببيت يتيم أو بيتين. لعل الشاعر عندما يقرأ هذه الأسطر يجيب القارىء في مكان آخر وفي الوقت المناسب.

---

(1) انظر جريدة البصائر، العدد رقم : 312.

أما فيما يخص الفصل الثاني من سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف، فإن أحمد قد استهله بقصيدة تحليلية للفترة التي انقضت من عمر الثورة، ضمنها احساساته المرهفة وجانبا هاما من رؤيته للجهاد وللأسباب التي دفعت إليه.

فالذي ينتهي من قراءة هذه القصيدة يقتنع بأن صاحبها جمع في أبياتها تأملات أيام طويلة قضاها في محاسبة النفس وفي البحث عن الحقيقة التي كانت في أساس اندلاع الثورة وانتصار الكفاح المسلح كسبيل أوحد لاسترجاع السيادة الوطنية المغتصبة.

إن الحياة في مذلة وخنوع من أجل سلم مزعومة لا تستحق الذكر بل أن أفضل منها موت عاجل أو تقبل لكل أنواع الحرمان مع الحفاظ على الشرف والكرامة. والجزائر ليست هي فرنسا، كما أن البحر الأبيض المتوسط ليس هو نهر السين. وزمن الرضاع قد ولى وانقضى، لأن الثدي صار كله سما ولأن الظئر لم تكن تعرف أنها أصيبت بالجذام.

زعمت حينا فرنسا انها	اطفئت في الشعب مكتوم الضرام
واحتفت باريس بالقرن الذي	وأدتنا فيه عاما بعد عام
فإذا الموؤود عادت روحه	وتجلت مثل اشباح الظلام
وإذا البرق توالى ومضه	فاضاء الكون من خلف الغمام
وإذا الحرب يدوى رعدها	وإذا باريس تلقي بالزمام
وإذا الطفل الذي ارضع سما	قد تبدى يافعا قبل الفطام
وإذا الاغلال فكت عن يد	حملت بندا وسارت للامام

هكذا تصور معاش القرار الذي اتخذته جبهة التحرير الوطني لقطع الحبل المصطنع الذي كان يشد الجزائر إلى فرنسا، وهكذا أيضا صور للأجيال القادمة كيف كانت الانتفاضة وكيف أخطأ الاستعمار في تقديراته وأصابت الحركة الوطنية التي عرفت كيف تقود الجماهير إلى ضفة الخلاص أما التقييم العام الأول من الثورة فقد اورده الشاعر كالآتي في مقدمة نص القصيدة :

هل أرى في الغاب اشباح الظلام	أم جنود الله خفوا للصدام
حملوا الروح على راحتهم	واستهانوا بالعوادي والحمام

سئمـوا السلـم بـذل وخنــوع فمضوا للحرب من أجل السلام
شاركـوا الأرواح في عصمتهـا وتسـامـوا فوق أنـواع الغـرام
حبهـم تحـريـر شعـب رازح تحـت ذل وقيـود وركـام
هـدد الاعـداء دينـا وحمـى وأرادوا لهمـا شـر انفصـام
وقضـوا قرنـا وربعـا وهمـو بين مسـخ وافتـراء وانتقـام
شـددوا فيـه نكـيرا وأذى سددوا للقلب مسموم السهـام
زعمـوا أن الـذي يفصلنـا من بحـار هـو سـر الالتحـام
زعمـوا انهمـوا ظئـرا لنـا عطفهـا لا ينتهي بالانفطـام

بعد هذه القصيدة سكت أحمد معاش مدة مئتين وأربعين يوما ولم تنطقه شعرا سوى معركـة تارشيوين التي ابلى فيها المجاهدون بلاء حسنا واستشهد من الأبطال ما ابكى الشاعر وجعله ينشد قائلا :

خلـدي المجـد واحفظي الشهـداء واذكـري النـار والـردى والدمـاء
واعيـدي على الانـام بفخـر ملحمات عرفتهـا حمـراء
كنت ياتاشيويـن للبؤس رمـزا ثم اضحيت للفـدا كربـلاء
هاهنـا تستقـر منارفـات لبنينـا بها سنعـلي البنـاء
هاهنـا العطـر من دمـا شهـدانا غمـر السفح والـربي والفضـاء
فئة من بنيك يـا شعـب تبنـى بدمـاهـا هنـا لنـا العليـاء
فئـة من بنيـك تـردى فئـات وتـرى الدهـر همه قعسـاء
كم الـوف بهـا العـدو رماهـا كـم الـوف بهـا إلـى الغـزو جـاء
لا أرى الطائـرات ترهب حـرا وهـب الـروح للبـلاد فـداء
لا ألـوف الجـراد يهـزم جنـدا جعـل النصر سؤلـه والرجـاء
فهـو جيش إلـى الجهـاد تصـدى ليس يخشـى عداتـه الأقـويـاء
همة في الحيـاة ارجـاع مجـد ومنـاه أن ينقـذ الأبنـاء

لقد قضى معاش حوالي ثلاث سنوات في داخل البلاد، يتنقل من مكان لأخر يشتبك أحيانا مع العدو في معركة أو يشارك في نصب كمين لاجناد الاستعمار أو في تنظيم هجوم على مراكزهم. وكان من حين لحين يسجل ما تجود به قريحته، ويحتفظ به ليوم قد تسمح له الظروف فيه بالطبع والنشر. لكن هذه

السنوات الثلاث التي كانت مليئة بالأحداث والمفاجآت لم يتمكن الشاعر من تخليدها في قصائد كثيرة، ربما لأنه كان مهتما بأشياء أخرى، أو لأنه أبدع وضاع الابداع في خضم المعركة.

غير أن قريحة أحمد الطيب ستتفجر من جديد عندما يأتيه أمر الالتحاق بالحدود التونسية ففي إحدى ليالي السفر ضلت مجموعته طريقها رغم الدليل الذي تغلب الظلام الدامس على خبرته. وكان البرد شديدا والجليد يمنع من السير بالسرعة المعهودة، وبدلا من البقاء في الممر السري وجدت المجموعة نفسها متوغلة في مستنقع كله وحل وحجارة حادة وماء مالح، فتقطعت الأحذية وضاع الزاد وساء الحال على حد تعبير الشاعر مما جعل بعضهم يسخط ويلعن ويفلت منه زمام لسانه (1) كل هذا أوحى لأحمد الطيب قصيدة مداعبة وعتاب توجه بها لأكثر الجماعة احتجاجا وصخبا وهو المجاهد الشهير محمد البريكي المعروف بصوت العرب.

قال الشاعر:

أخي في الجهاد اصوت العرب ... فإنك فظ قليل الأدب
كفرت بربك يا ظالما ... فامسيت في نصب وتعب

أضاع صوابك فرط العنا ... وثقب الحذاء وتلف النشب
لعنت السرى وأهنت (دليلا) ... وكان على العهد رهن الطلب
فبتنا نخوض غمار الكرب ... فضج (السعيد) وجن (بورب)
وبات (معاش) كعادته ... يهون أمرك رغم الغضب
ألا توبة قبل أن تنتهي ... حياتك بالموت أو بالعطب
لأن الرصاص سيحصدنا ... إذا سمعوا منك هذا الصخب
وربك يسمع ما تفتري ... فيرفع عنك وعنا الحجب
فتغشى جهنم حامية ... وتحمل أنت اليها الحطب
وتصبح مثل أبي لهب ... فلا المال أغناه أو ما كسب

ومن رمز اسمك يا (صوتنا) ... لنمضي جميعا فداء العرب

---

(1) التراويح وأغاني الخيام، ص: 381.

وعندما وصلت المجموعة الى خط موريس الذي أقامه الجيش الاستعماري ليمنع الامدادات المادية والبشرية من الوصول إلى مختلف مناطق البلاد، وشرع في العمل لفتح الممر بواسطة قطع الأسلاك المكهربة، وقع حافر البغل المحمل بالأمتعة على لغم فانفجر محدثا دويا كبيرا وعلى مقربة من المكان سقط البغل شهيدا. وكان لهذه العملية وقع في نفس الشاعر عبر عنه في الصباح الباكر بقصيدة فيما يلي بعض أبياتها.

سقط البغل في الكمين شهيدا ونجونا بفضل ذاك الشهيد
قد حمانا بجسمه من شظايا سكنت في قوامه الممدود
كان يمشي بقربنا طول ليل ويهز السكون بالتنهيد
سبق البرق اذ أحس بشر ثم مد الردار نحو الحدود
عندما صار حذو موريس سبقتنا خطاه كالصنديد
فرمى حافرا على شاحنة الموت فاضحى في الحين كالجلمود
فعلت منه شهقة وأنين كنحيب اليتيم يوم العيد
فحزنا عليه حزنا شديدا وأفضنا عليه في التمجيد
وهممنا بدفنه كشهيد غير أن العدو بعيد
أمطرتنا رماته فاختفينا وتركنا الزميل في الأخدود
واختفينا بغابة بعض وقت ثم سرنا كالطيف نحو الحدود

إن القصيدة طويلة، ورغم طابع الفكاهة الذي تتسم به، فإن مختلف مقاطعها تكتسي أهمية تاريخية بالغة. فهي تعبر عن معنويات المجاهدين أثر خروجهم من عملية هي في الحقيقة مصيدة استعمارية قاتلة، كما أنها تصف حالاهم بعد أن تمكنوا من أجتياز الأسلاك الشائكة والمكهربة وحقول الألغام المدمرة. ورغم المعاناة والآلام الجسمانية والحالة الرثة التي آل إليها الجميع، فإن أحمد الطيب الذي لم يكن سوى واحد من المجموعة يفكر مثلهم ويحس بما يحسون قد قال في نهاية القصيدة مخاطبا رفيقه المجاهد سعيد بوراضي (١).

وغدا يا سعيد قد تتساوى فوق أرض أو تحتها في الجود
ومن الحفرة الصغيرة ينمو ألف حقل وألف صبح جديد

وتقـوم الـزهـور من كل روض　　لتحيي رفـات كـل شهيـد
فنـوالي بعـد الغنـاء غنـاء　　ونشيـدا يفـوق كـل نشيـد

يبـدو أن الخروج من الجزائر لم يكن ملهما للشاعر الذي كان يتوقف عن الابداع رغم تعيينه ضمن البعثات الثقافية التي كانت تجوب مختلف الأقطار العـربية باسم جبهة التحرير الوطني. ففي كل السنوات الأربع التي قضاها معاش في مهمته الجديدة لم يتحفنا سوى بقصيدة واحدة كتبها بمناسبة الذكرى الخامسة للثورة التي داهمته وهو في العاصمة السورية.

لقد كانت تلك القصيدة مكونة من أكثر من سبعين بيتا متفاوتة من حيث قيمتها الفنية لكنها تعبر كلها عن حماس ثوري كان يلهب روح الشاعر وعن التزام واع بمبادىء جبهة التحرير الوطني التي قررت منذ البداية عدم التنازل عن شبر واحد من التراب الوطني، ومواصلة الكفاح المسلح إلى أن تسترجع السيادة الـوطنية المغتصبـة. ومن جملة ما يستوقف القارىء في هذه القصيدة مجموعة من الأبيات موجهة إلى الجنرال ديغول جاء فيها على الخصوص :

إني فتى الاسـلام شبـل عروبـة　　غـراء لا انـصـاع للغـربـان
إني أنـا الـفـادي بلادي كلهـا　　بدمـي وروحـي لا بشـيء ثـان
أنـي أنـا البـانـي قـلاع كـرامـتي بحـديـد عزمـي أو بحـد سنـانـي

أنـا لـم أثـر مـن أجـل شيء تافـه بل ثـرت أبـغي في الحيـاة مكـاني
سـل أرضـي الحمـراء سـل شهـداءها سلهـا تجبك روائـع الانسـان
سـل أن تشـأ تاريخنـا ينبئـك عـن ماكـان مـن قـومي ومـن أخـواني

جنسـي العـروبة وهـي أصـل أرومـتي لا أنتمي أبـدا لجنس ثـان
هـل أقبـل القيـد الـذي قد غلنـي دهـرا وأركـن للـذي أضنـانـي ؟
أني عرفت الغـدر فيكم شرعـة　　والشـر عندكمـو من الايمـان

هذه لمحة وجيزة عن أحمد الطيب معاش أثناء فترة الكفاح المسلح. لكنه شاعر لم يتوقف عن العطاء بعد وقف اطلاق النار، بل أن شعره في الفترة ما بعد سنة أثنتين وستين وتسعمائة وألف أغزر بكثير وأكثر تنوعا من كل ماقـاله قبل ذلك. ومن ثمة فإننا سنعود إليه في الجزء الثاني من : المثقفين الجزائريين والثورة.

الفهـــرس

حكمة الكتاب 03

الاهداء 05

التقديم 07

القسم الأول

فترة ما قبل ثورة نوفمبر 27

النموذج الأول

مفدي زكرياء 31

النموذج الثاني

محمد العيد آل خليفة 43

النموذج الثالث

محمد السعيد الزاهري 55

النموذج الرابع

الشيخ البشير الابراهيمي 69

النموذج الخامس

محمد الذيب 97

القسم الثاني

فترة الكفاح المسلح

النموذج الاول

مفدي زكرياء 105

النموذج الثاني

فرانتز فانون 131

النموذج الثالث

مالك حداد 159

النموذج الرابع

أحمد الطيب معاش 172

طبع المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار
وحدة الطباعة بالرويبة (الجزائر)
1995

الأهداف الداخلية :
1) التطهير السياسي بإعادة الحركة الوطنية إلى نهجها الحقيقي والقضاء على جميع مخلفات الفساد وروح الاصلاح التي كانت عاملا هاما في تخلفنا الحالي.
2) تجميع وتنظيم جميع الطاقات السليمة لدى الشعب الجزائري لتصفية النظام الاستعماري
الأهداف الخارجية :
1 - تدويل القضية الجزائرية،
2 - تحقيق وحدة شمال افريقيا في إطارها الطبيعي العربي والاسلامي،
3 - في إطار ميثاق الأمم المتحدة نؤكد عطفنا الفعال تجاه جميع الأمم التي تساند قضيتنا التحريرية.
وسائل الكفاح :
انسجاما مع المبادىء الثورية، واعتبارا للاوضاع الداخلية والخارجية، فإننا سنواصل الكفاح بجميع الوسائل حتى تحقيق هدفنا.
إن جبهة التحرير الوطني، لكي تحقق هدفنا يجب عليها أن تنجز مهمتين أساسيتين في وقت واحد وهما:
أولا: العمل الداخلي سواء في الميدان السياسي أو في ميدان العمل المحض.
ثانيا: العمل في الخارج لجعل القضية الجزائرية حقيقة واقعة في العالم كله، وذلك بمساندة كل حلفائنا الطبيعيين.
إن هذه مهمة شاقة ثقيلة العبء، وتتطلب كل القوى وتعبئة كل الموارد الوطنية. وحقيقة أن الكفاح سيكون طويلا ولكن النصر محقق.
وفي الأخير، وتحاشيا للتأويلات الخاطئة وللتدليل على رغبتنا الحقيقية في السلم، وتحديدا للخسائر البشرية واراقة الدماء، فقد أعددنا للسلطات الفرنسية وثيقة مشروعة للمناقشة إذا كانت هذه السلطات تحدوها النية الطيبة، وتعترف نهائيا للشعوب التي تستعمرها بحقها في تقرير مصيرها بنفسها.
1) الاعتراف بالجنسية الجزائرية بطريقة علنية ورسمية ملغية بذلك كل الأقاويل والقرارات والقوانين التي تجعل من الجزائر أرضا فرنسية رغم التاريخ والجغرافيا واللغة والدين والعادات للشعب الجزائري.
2) فتح مفاوضات مع الممثلين المفوضين من طرف الشعب الجزائري على أسس الاعتراف بالسيادة الجزائرية وحدة لا تتجزأ.
3) خلق جو من الثقة وذلك بإطلاق سراح جميع المعتقلين ورفع كل الاجراءات الخاصة وإيقاف كل مطاردة ضد القوات المكافحة.
وفي المقابل:
1) فإن المصالح الفرنسية، ثقافية كانت أو اقتصادية والمتحصل عليها بنزاهة، ستحترم وكذلك الأمر بالنسبة للأشخاص والعائلات.
2) جميع الفرنسيين الذين يرغبون في البقاء بالجزائر يكون لهم الاختيار بين جنسيتهم الأصلية ويعتبرون بذلك كأجانب تجاه القوانين السارية، أو يختارون الجنسية الجزائرية وفي هذه الحالة يعتبرون كجزائريين بما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات.
3) تحدد الروابط بين فرنسا والجزائر وتكون موضوع اتفاق بين القوتين الاثنتين على أساس المساواة والاحترام المتبادل.
أيها الجزائري إننا ندعوك لتبارك هذه الوثيقة. وواجبك هو أن تنضم إليها لانقاذ بلادنا والعمل على أن نسترجع له حريته، إن جبهة التحرير الوطني هي جبهتك وانتصارها هو انتصارك.
أما نحن، العازمون على مواصلة الكفاح، الواثقون من مشاعرك المناهضة للامبرياليين، فإننا نقدم للوطن أنفس ما نملك».

أول نوفمبر 1954